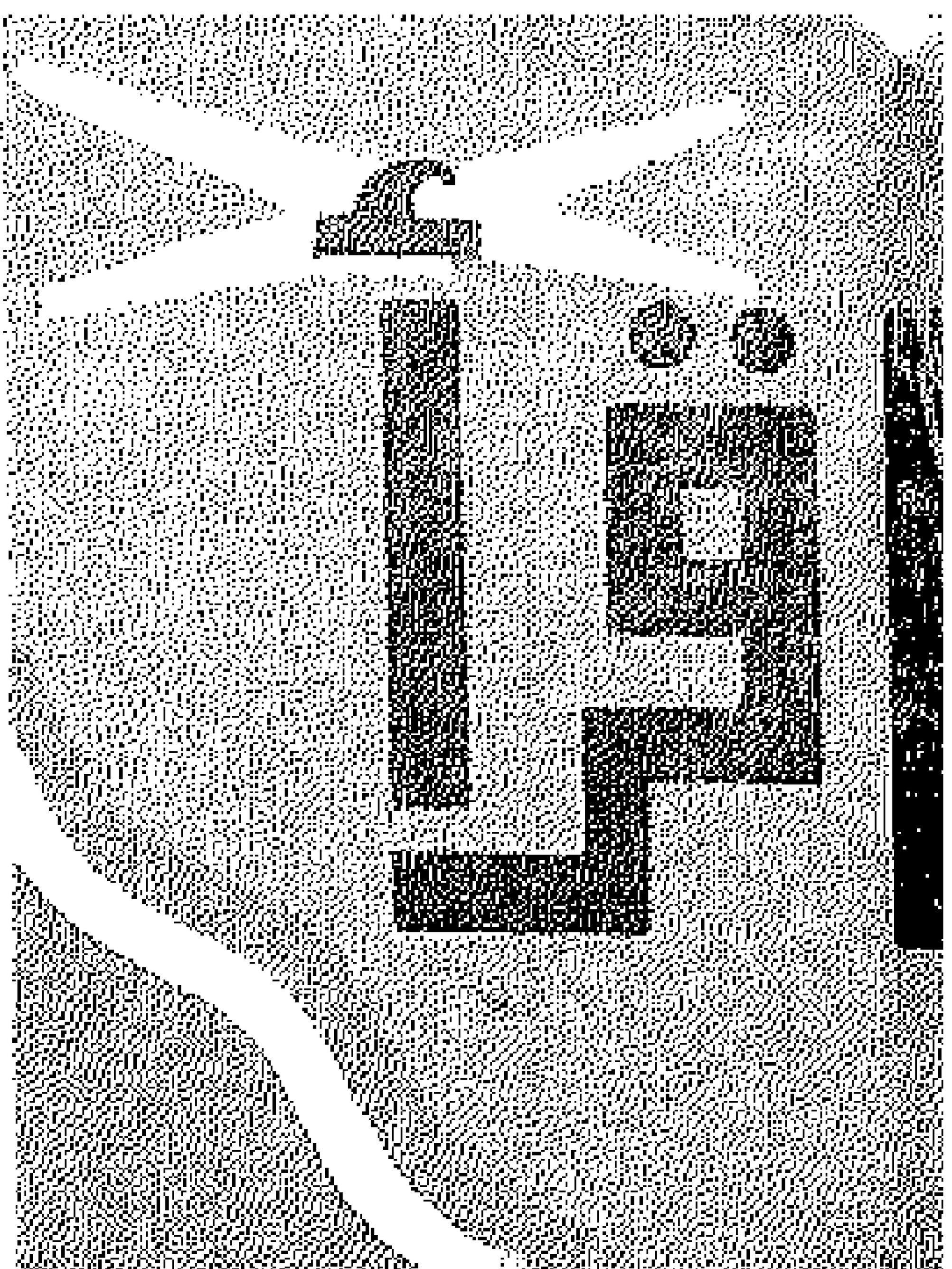


د. عبد الرحمن محمد النجار

رحلة دينية إلى إفريقيا

اقرأ

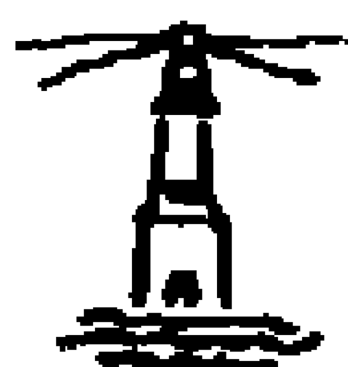
تصدر أول كل شهر

[٥١٢] - يونية - ١٩٨٥

رئيس التحرير صلاح منتصر

د. عبد الرحمن محمد النجار

رحلة دينية إلى إفريقيا



دار المعارف

تصميم الغلاف: منال بدران

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقدمة

أحمد الله سبحانه وتعالى، حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه، وأصلى وأسلم على خاتم أنبيائه ورسله سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وعلى سائر الأنبياء والمرسلين، وعلى آل محمد وأصحابه وأحبابه وأتباعه، ومن دعا بدعوته وتمسك بسنّته إلى يوم الدين..

أما بعد: فقد قدِّر لى أن أعيش فى أفريقية جنوبى خط الاستواء فترةً طويلة من الزمان، وعشت فيها أجمل سنوات العمر. وهى سنوات الشباب، حيث تنقلت فى جميع مناطق أفريقية بصفة عامة، وفى شرقها بصفة خاصة، حيث عملت رئيسًا لبعثة الأزهر بالصومال فى الخمسينات مدّة ست سنوات، وكنت أصغر رؤساء البعثات سنًا، حتى إن المسئولين فى الأزهر قالوا لى: إننا نصنع منك تجربة. هل يستطيع شباب الأزهر أن يقود الدعوة الإسلامية فى خارج البلاد. أو لا يستطيع أن يعمل إلّا وهو تابع لمن هو أكبر منه سنًا، ومن هو

أكثر منه تجربة؟ والحمد لله على نعمة التوفيق، لقد كان يدفعنى حماس الشباب إلى أن أقوم فى كل أسبوع برحلة إلى خارج العاصمة مقدشيو - ولم أترك شبرًا واحدًا فى الصومال إلّا وطرقته، والتقيت برجال القبائل فى مواقع قبائلهم - وتعلمت اللغة الصومالية وهى لغة لم تكن تكتب - بل لغة تفاهم فقط - وكانت تكتب بالحروف العربية؛ لأن الحروف العربية لها قداسة مستمدة من قداسة القرآن الكريم، ولذلك يقال للغة العربية لغة القرآن الكريم، وعايشت الصوماليين قبل استقلالهم وبعد الاستقلال الذى تمّ فى عام ١٩٦٠م.

وزرت المناطق الصومالية الخمسة: الصومال الجنوبى، والصومال الشمالى، والصومال المتنازع عليه من كينيا، والصومال المتنازع عليه من الحبشة، والصومال الفرنسى الذى كان عاصمته جيبوتى، وقد استقلّ حديثًا، ومن الصومال، عملت فى دار السلام عاصمة جمهورية تنزانيا مديرًا للمركز الثقافى الإسلامى مدّة ٤ سنوات، ومن هناك عشت زمنًا فى أوغنده. وعشت فى نيروبى عاصمة كينيا، وزرت جزر القمر. وعشت زمنًا فى جزيرة مورشيوس - وزرت الحبشة وإرتريا. وهكذا لم أترك شبرًا واحدًا من منطقة شرق إفريقية إلّا وقد زرته والتقيت بأبناء المنطقة فى القرى والنجوع والغابات وفى أحضان الجبال - وعند منابع النيل، ورأيت أن أفريقية ليست هى القارة السوداء - كما يطلق عليها الجغرافيون - إنما هى قارة خضراء - أرضها خصبة، وأمطارها غزيرة، والأرض سواء أكانت مستوية أم

فيها هضاب ووهاد كلّها تكسوها الخضرة، وتخرج جميع الثمرات التى أنعم الله بها على الإنسان، وشاهدت أثر الإسلام القوىّ فى عاداتهم وتقاليدهم وسلوكهم، وشاهدت مدى تدينهم وإخلاصهم فى هذا التديّن، واحترامهم للغة العربية باعتبارها لغة القرآن الكريم، وشاهدت نشاط الاستعمار الذى يدفع التبشير إلى هزّ عقيدة المسلمين، كما شاهدت دعاة المذاهب الهدّامة وهم ينشطون فى المناطق التى لم تصل إليها دعوة دينية، وعدم نجاح هذه الأنشطة لأن عقيدة التوحيد فطريّة فى الإنسان، والله تعالى يقول: ﴿فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله، ذلك الدين القيّم ولكنّ أكثر الناس لا يعلمون﴾.. ورأيت اللغة السواحلية وهى اللغة الوطنية لمنطقة شرق أفريقية ووجدت أن ٦٠٪ من كلماتها كلمات عربية، ولهذا سرعان ما تعلمتها وكنت أخطب بها فى المساجد، وأتحادث مع الناس مستخدمًا إيّاها فى لغة التخاطب.. وشاهدت أثر التجار العرب الوافدين من شبه الجزيرة العربية.. وهم حينما وفدوا جاءوا ومعهم مع تجارتهم دينهم بتعاليمه السمحة - ولغتهم التى هى لغة القرآن الكريم، وكان أوّل نشاط لهم فى بلاد المهجر بناء مسجد يجتمعون فيه للصلاة فى الأوقات الخمسة وفى يوم الجمعة. وكان سلوكهم المأخوذ من تعاليم رسول الله صلى الله عليه وسلم من أقوى الأسباب فى نشر الإسلام - كما كان للطرق الصوفية فضل كبير فى تجميع صفوف المسلمين وفى تصفية

قلوبهم، وترقيق وجدانهم، حتى إن كثيرًا من الأفارقة يحفظون قصائد فى مدح رسول الله صلى الله عليه وسلم باللغة العربية، وفى قمّة ما يعتزّون به بعد القرآن الكريم وأحاديث رسول الله قصيدة البردة للإمام البوصيرى، إنهم يحفظونها بعربيتها الفصحى ويتجمّعون فى المناسبات الدينية وينشدونها مجتمعين..

ولا عجب فى ذلك فإن كثيرًا من المؤرخين يرون أن الإسلام عرف طريقه إلى أفريقية، قبل أن ينطلق من مكة إلى خارجها، وقبل أن يصل إلى يثرب وهى المسماة بالمدينة المنورة، وذلك حينما أذن الله لجماعة من المسلمين أن يهاجروا إلى الحبشة مرّتين – وأقام بعضهم فى الحبشة فترة طويلة، وأنجب أطفاله فيها وتنقّل بين جنباتها، وقرأ القرآن على مسمع من أبنائها – فعرفوا الإسلام ومبادئه وأحبّوه وتعلّقوا به، ولابّد من أنّ بعضهم قد تآلف مع هؤلاء المسلمين واعتنق دينهم، وكان ذلك فى السنوات الأولى لظهور الإسلام ولم يكن قد خرج من مكة بعد...

هذه المعايشة الطويلة للمنطقة دفعتنى إلى تسجيلها لإلقاء مزيد من الأضواء على تلك القارّة التى لم تحظ بنصيب وافر من اهتمامات الكتّاب العرب والمسلمين – لكن أكثر من كتبوا عنها هم من الكتّاب الأوربيين ولغرض هذه الدراسة الميدانية، ليهتدى بها من

يحرص على نشر دعوة الإسلام فيها - وكيف يواجه تحدّيات الأعداء..

وذلك من منطلق قوله تعالى: ﴿وَمَن أَحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمِل صالحًا وقال إنّنى من المسلمين﴾.

صدق الله العظيم

القاهرة فى أغسطس ١٩٨٣م.

د. عبد الرحمن محمد النجار

البَـابُ الأول

عوامل انتشار الإسلام فى هذه المنطقة

أوّلاً: العوامل الذاتية لانتشار الإسلام

أفريقية القارة المسلمة:

تعتبر أفريقية القارة المسلمة بين قارات العالم، فالغالبية العظمى من سكانها الأصليين يدينون بالإسلام، وتذكر الإحصائيات أنهم حوالى ٧٠٪ من سكانها، أما غير المسلمين بها فمنهم من لا يزال يتبع المعتقدات القديمة الساذجة، ومنهم من لا يدين باعتقاد، ومنهم من جذبته المسيحية إليها، ومنهم البيض الغاصبون الذين أقامهم الاستعمار، وسلّمهم النفوذ والسلطان فى بعض المناطق.

ولم يقف حاجز ما بأفريقية أمام زحف الإسلام، فقد انتشر بالشمال وفى وقت مبكّر، ثم تخطّى الصحراء وزحف خلفها، وعبر من الجزيرة العربية للساحل الشرقى منذ عصره الأوّل، وتخطّى هذا الساحل إلى المناطق الداخلية إلى كينيا وتنزانيا، واقتحم نطاق

لغابات فى قلب أفريقية، ونفذ إلى هضبة البحيرات، وتدفق إلى لهضبة الحبشية، وانتشر على طول الساحل الغربى، ودخل جنوب أفريقية مع المهاجرين المسلمين من سكان شبه القارة الهندية وماليزيا، ولا يزال يُنشر حتى اليوم إلى آفاق جديدة[(١)].

وقد تغيرت خريطة أفريقية تغيرًا كبيرًا بسبب الإسلام خلال القرون الماضية، ولا تزال تتغير بسبب النشاط الحالى الذى اتّخذ شكلًا جديدًا، فإن العرب المسلمين هضموا الجديد من التغيرات السياسية العالمية، وأصبحوا يحصلون على مزيد من النجاح، كما حصلوا على هذا النجاح فى ظلّ الطرق الصوفية والتجارة من قبل.

انتشار الإسلام فى أفريقية بالدعوة:

وانتشار الإسلام فى أفريقية تم بواسطة الدعوة، بدليل أن انتشاره استغرق وقتا طويلًا يزيد على عشرة قرون، وتزخر المراجع التاريخية بتعزيز هذه الحقيقة، وقد قامت على مرّ التاريخ دول إسلامية أفريقية بجوار دول وثنية أو مسيحية ولم يكن الدين قط داعيا لعدوان المسلمين على غير المسلمين، بل إن المؤرخين يرون أن الحروب التى هبّت بين المسلمين بعضهم والبعض الآخر بأفريقية كانت أكثر وأشد مما حدث بين المسلمين وغير المسلمين، وعندما تهبّ

(١) هوبير ديشان - الديانات فى أفريقية السوداء ص١٥٢ - ١٥٣.

حركة إسلامية لتسقط نظامًا وثنيًا أو مسيحيًا فإن ذلك يكون بعد انتشار الإسلام وقوّة أتباعه لدرجة تمكّنهم من القيام بهذه الحركة الانقلابية، أما كيف أصبح هؤلاء مسلمين فإن من المؤكد أن ذلك حدث بطريق الدعوة، فلما رأى هؤلاء المسلمون أنفسهم قوّة أحسّوا بالتزامهم بالتغيير ليقيموا لأنفسهم النظام السياسي الذى يناسب معتقداتهم - وعن انتشار الإسلام بالدعوة فى أفريقية يتحدّث الكاتب المسيحى «هوبير ديشان» الذى كان حاكمًا للمستعمرات الفرنسية بأفريقية سنوات طويلة، وشاهد بنفسه تقدّم الإسلام وانتشاره، يقول هذا الكاتب:

«إن انتشار دعوة الإسلام بأفريقية لم تقم على القسر، وإنما قامت على الإقناع الذى كان يقوم به دعاة متفرقون لا يملكون حولاً ولا طولاً إلّا إيمانهم العميق بدينهم وكثيرًا ما انتشر الإسلام بالتسرّب المسلمى بالبطىء من قوم إلى قوم، فكان إذا ما اعتنقته الأرستقراطية وهى هدف الدعاة الأوّل تبعتها بقيّة القبيلة، وقد يسّر انتشار الإسلام أمرًا آخر، هو أنه دين فطرة بطبيعته، سهل التناول، لا لبس ولا تعقيد فى مبادئه، سهل التكييف والتطبيق فى مختلف الظروف، ووسائل الانتساب إليه أيسر وأيسر، إذ لا يطلب من الشخص لإعلان إسلامه سوى النطق بالشهادتين حتى يصبح فى عداد المسلمين، وقد حبّب الإسلام إلى الأفريقيين مظاهره الجميلة البعيدة عن التكلّف، مثل الثوب الفضفاض والسبحة والكتابة

العربية والوقار الدينى وشعائر الصلاة، مما يضفى على المسلم مكانةً مرموقةً وجاذبية ساحرة، فالذى يدخل الإسلام يشعر بأنه أصبح ذا شخصية محترمة وأنه قد ازداد من القوّة والحيوية[1].

وإذا كان هوبير ديشان قد أوضح أن نشر الإسلام بأفريقية كان بالسلم فإن كاتبًا غربيًا آخر يعطينا معلومات مهمّة تفيد أن نشر المسيحية بهذه القارة تمّ فى أكثر الأحوال بواسطة القهر والعنف والإلزام، إنه الكاتب «توماس أرنولد» الذى يقول: «فى سنة ١٨٧٨ عقد الملك جون مجمعًا، يضمّ رجال الكنيسة الحبشية وقرروا فيه وجوب الاقتصار على دين واحد فى كافة أنحاء المملكة وأُلزم المسلمون بالتعميد خلال ثلاث سنوات، والوثنيون خلال خمس سنوات، بيد أن الملك سرعان ما استطال هذه المهلة، فأذاع بعد أيام قليلة مرسومًا أنذر فيه كلّ الموظفين المسلمين بأن المهلة المحتومة لهم هى فقط ثلاثة أشهر». ويعلّق مستر «ماسايا» الذى ينقل عنه «أرنولد» أن كثيرين من الموظفين خضعوا لهذا التنصير الإجبارى، ولكنه كان تنصيرًا عديم الأثر، ويروى أنه شاهد بعضًا من هؤلاء يخرجون من الكنيسة بعد التعميد قاصدين المسجد يلتمسون فيه رجلًا مباركًا من رجال دينهم يمحو عنهم ما لحقهم من التعميد الذى أرغموا عليه.[2]

---

(١) الديانات فى أفريقية السوداء ص١٢٨ - ١٢٩.

(٢) الدعوة إلى الإسلام ص١٤١ - ١٤٢.

عوامل يسرت انتشار الإسلام:

يُسْر الإسلام وسماحته، وتمشِّيه مع فطرة الإنسان، فأُولى الركائز التى مكّنت للإسلام هى قيمته الذاتية وصلاحيته للبقاء لكل زمان ومكان ويبدو ذلك فيما يأتى:

(ا) العقيدة:

وأوّل لقاء مع عقيدة الإسلام والإنسان هو اللقاء مع فطرته الأولى التى فُطِر عليها، وبهذا تكون الاستجابة هى الاستجابة لنداء الفطرة والاتّساق معها، لا معاندتها ولا التمرّد عليها.

وكان الإنسان الأفريقى الذى رانت الوثنية على فطرته منطقيًّا مع نفسه حين أزاح هذه الحجب عن فطرته والتقى بها مع الإسلام.. وأساس هذه العقيدة هو الإيمان بوجود الله، وما يجب له من صفات الوحدانية وغيرها من صفات الكمال، والإيمان بالرسل وما جاءوا به، أما الإيمان بوجود الله مع انكار الوحى والأديان، فيكاد يكون هو أساس الشعور الدينى السائد عند كثير من عبدة الأوثان فى أفريقية بل وفى غيرها..

﴿ولئن سألتهم من خلق السموات والأرضَ ليقولُنَّ خلقهنَّ العزيزُ العليم[1]﴾.

(١) الآية ٩ من سورة الزخرف.

﴿ولئن سألتهم من خلقهم ليقولُنَّ الله فأنَّى يؤْفكون﴾[1]

وكانت مهمّة الإسلام أن ينمى عقيدة الإيمان، ويزيل عنها عنصر الشرك ويحوّلها إلى عقيدة التوحيد وهذا هو ما فعله فى الأفريقيين، وكانت عملية التحويل هذه تتم فى يُسْر عليه وعليهم لأنها استجابة منهم لفطرتهم، ويبقى بعدها ما ترسب عندهم من آثار هذه الوثنيات ممّا تجلَّى فى عباداتهم وسلوكهم ومجتمعاتهم وفلسفاتهم.

وكل هذا كان قابلًا لأن يتغيرّ ويحلَّ محلّه آثار إسلامية تصبغهم بصبغة الإسلام من غير أن تتوقّف حياتهم. بل هو يدفعها إلى ما هو أحسن وأرقى، ومن هنا كانت الاستجابة إلى الإسلام استجابة سريعة إلى الدين الذى يمدُّهم بالحقائق الصحيحة المتعلقة بالله تعالى وبالكون والإنسان، ووصلت إلى قلوبهم فنمّت إدراكهم، وأزاحت عن عقولهم الغشاوة وحررتهم من الأوهام والخرافات التى كان الإسلام يجدُّ فى مقاومتها والقضاء عليها، وسادت عبادة الله الواحد القهار.

(ب) الشريعة:

احتلت الشريعة الإسلامية محلَّ نزوات شيخ القبيلة أو الملك

---

(١) الآية ٨٧ من سورة الزخرف، والخطاب فى هذه الآية والآية السابقة وإن كان للرسول لإخباره بحال العرب إلا أن مدلوله عام يشمل مشركى العرب وغيرهم.

المستبدّ، وهذا تغيير جذرى يعد فى حدّ ذاته تقدمًا هائلاً على طريق الحضارة، كما أخذت سبيلها فى مطاردة السلوك الوثنى بعاداته وتقاليده ونظمه فحرّمت القبائح والرذائل من مثل أكل لحوم البشر، وتقديم الإنسان قربانًا، ووأد الأطفال أحياءً، وفى ظلّها يختفى العرى ويبدأ الإنسان ستر عورته ويتميز عن الحيوان بل يتأنق فى حليته.

وأصبح المسجد مركز إشعاع للطهر الحسّى والمعنوى، فالشريعة تأمر بالطهارة، وأصبح الذين لم يغتسلوا قط يغتسلون ويتوضّئون، والأذان يردّد عليهم شعار دينهم كلّ يوم أكثر من مرّة والصلاة خمس مرات، والقِبلة توحّد اتجاههم، والإمام ينظّم صفوفهم، والجمعة توحّد شملهم والخطبة توجّههم وهكذا بقيّة العبادات.

ونظافة المسجد تعلّمهم نظافة البيت والمجتمع، وهذا المسجد كان البديل الإسلامى الحضارى عن دار عبادة الأوثان أو (اليويو)[1] ذات المنظر البشع.

وأمّا نظامهم القبلى فكان يميل بطبعه إلى إفساح المجال لأساس أوسع نطاقًا وأدقّ نظامًا، وقد عملت الدعوة الإسلامية بنظمها على دمج القبائل، وإذابة الفوارق وإشاعة الإخاء والمساواة وتنشيط المعرفة، فصيّرت القبائل أممًا، ومن الأمم دولاً، ومن الدول

(١) توماس آرنولد: الدعوة إلى الإسلام ص٣٩٨ نقلاً عن سميث وغيره.

إمبراطوريات نضَّرت وجه أفريقية بحضارة الإيمان لا بجهامة الوثن، وارتبطت بالعالم الإسلامى من حولها ارتباط إخاء وحضارة.. وهذه الإمبراطوريات بنظمها خضدت من شوكة الوثنيات وحاولت جذبها فقلّ عددها، ووضعت للحروب معها تقاليد إسلامية قائمة على أسس رحيمة وإنسانية، وقيّدتها فلم تكن لتثأر بدون سبب، فساد الأمن على الروح والمال، وقلَّ السلب المطلق للإنسان واسترقاقه والمال واغتصابه.

وفى ظلّ هذا الأمن والسلام نمت الحضارة، فازدهر العلم، ونمت التجارة والصناعة، وقامت المدن، وأمنت السبل، واتسعت العلاقات وكثرت الرحلات، وقامت أساليب الحكم والإدارة المنظمة فى تذليل صعاب الحياة، وكان عصبها الإسلام دينًا، والمسلمين روّادًا وأداة.. هذا هو البناء الحضارى للدعوة الإسلامية التى أضاءت غرب أفريقية عقيدة وشريعة، ثم يأتى دور الركيزة الثانية وهى:

أسلوب الدعوة ومنهجها
في تغيير الفرد والمجتمع هناك

وقد اتّسمت الدعوة الإسلامية فى قيامها وانتشارها بطابع السلم والدعوة بالحسنى بلا عنف ولا سيف إلاّ ما كان من تصدّيها لإزاحة العقبات عن طريقها، فحين كانت تضطر لحمل السيف، فإنما كان ذلك فى وجه الفاتحين، وكان يسبق السيف فى معظم الحالات جهود سلمية فى غير شغف إلى العنف والدماء، بل لتحقيق هدف الدعوة ورسالتها، وكان يصاحب الفتح ويتلوه نشاط الدعاة فى تعليم وتحويل الفرد والمجتمع إلى الإسلام فى رفق وأناة، فبالنسبة للفرد ما أن يتحوّل الفرد إلى الإسلام حتى تتحوّل حياته كلها حسّية ومعنوية، سلوكه وتفكيره وعواطفه وآماله إلى أحسن وأرقى، فيحسّ أوّل ما يحسّ بالانتماء الهادف لا بالضياع ولا بالاستعباد وإنما بالانتماء إلى كيان دينى وإنسانى واجتماعى وحضارى يخوّله حق الحياة وحمايتها وتنميتها فى نطاق مكانىّ يمتدّ من المحيط الأطلسى إلى الصين ويستطيع أن يتحرك فيه تحت راية الإسلام، وأينما حلّ وجد

إخوة العقيدة ودار الإسلام يأوى إليهما، فهو بذلك عضو فى كيان حيٍّ ذى نفوذ، وأيًّا كانت طبقته فى هذا المجتمع الإسلامى فهو يحسّ بكيان فيه وهو يتعامل مع باقى أعضاء هذا الجسد الإسلامى معاملة الإخاء، فلا يحقره لونه، ومعاملة المساواة فلا ينتقصه تعصّب، ولم يفقد وطنه فليس هو بغريب، فقد حفظ له الإسلام استقرار الموطن ولم يصدّه أو يشعره باغتراب.

وفى نطاق زمانى: يشمل اليوم والغد والدنيا والآخرة، فهو يعمل للدارين معًا.

وهو فى أسرته العضو الراقى بإسلامه، يحيط كل أفرادها بعواطف فى إطار دينه، وهو القدوة لهم فى كل شىء، يلينها على أسس طاهرة، يجنّبها أىّ اتجاه ينزل بها عن مستوى الإنسانية.

وبالنسبة للمجتمع: هو فى مجتمعه الإنسان الذى يعمر الأرض لأنه خليفة الله فيها، إنه يحبّ الخير ويسعى إليه ويحسّ بمجتمعه، ويتميزسلوكه وفكره وهديه وسمعته ووقاره واعتزازه ونشاطه واعتماده على النفس واحترام الذات، ومن هذه اللبنة السليمة - الفرد السوى - أقام الإسلام المجتمع الأفريقى المسلم على أسس دينية حضارية، وأخذ يخطو قدمًا بالقبيلة الزنجية عقليًا وماديا ثم يؤلّف بينها وبين غيرها برباط العقيدة والمحبة ويبنى منها أمّة ذات رسالة تقيم دولة الإسلام على أنقاض الوثنيّات، وتبنى دنياها على

حضارة دينها، فالإيمان أساسها، والعلم شعارها، والصناعة قائمة. والتجارة رائجة بنظام محكم دقيق.

والمدن تنمو بالإسلام، والعلم فى أرض الزنوج كالقلاع تحطم الجهل، وتخرج المجتمع من الغابة إلى الحياة، فيجد فى ثقافة الإسلام ونظمه ما يلائم حاجته المشروعة وما يكفيه مطالبه ومطامحه، وقد وجد الأمن والسلام فى بلاده من بعد غارات أنهكته وحروب أهلكته، واسترقاق قضى على إنسانيته.

المساواة فى الإسلام بين الأجناس والألوان
من عوامل انتشار الاسلام

لقد كرّم الله الإنسان بأن خلقه وسوّاه، وأسجد لأبينا الأول ملائكته، بعد أن علّمه الأسماء كلّها، كرّمه بالخلق، وكرّمه بالعلم، وكرّمه بالاستخلاف فى الأرض، وكرّمه بالمساواة بين الناس، نجدها فى قوله تعالى: ﴿يأيّها الناس إنّا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبًا وقبائل لتعارفوا، إن أكرمكم عند الله أتقاكم، إن الله عليم خبير﴾.(١)

كرامة تتساقط دونها حواجز اللون والعنصرية والطبقية، ويرتفع معها صوت النبوّة فى حجّة الوداع وهو ينادى: «أيها الناس، إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، كلكم لآدم، وآدم من تراب، أكرمكم عند الله أتقاكم، وليس لعربىٍّ فضل على عجمى إلّا بالتقوى» ثم يشهد الله على قوله «ألا هل بلغت؟ اللهم فاشهد» فترد الجموع

(١) الحجرات آية ١٣.

المؤمنة فى موقف الحج الأكبر: (نعم) فيقول: «فليبلغ الشاهد الغائب».

ويتجلّى المشهد بصورة عملية حينما ترى جموع المسلمين تتوافد على المسجد النبوى الشريف أيام الحج على اختلاف ألسنتهم وألوانهم، كلهم أمام الله سواء، وفى بيته سواء، وفى الحياة سواء، لا يسألهم أحد عن أجناسهم وألوانهم ومواطنهم، وإنما جمعهم الإيمان الواحد بالإله الواحد، وبخاتم المرسلين، وضمّتهم أخوة إنسانية واحدة.

وإذا ارتفعت عيناك إلى زخارف الصحن الجديد، فى الجزء الخلفى من المسجد، فإنك ترى أسماء الصحابة وقد زيّنت عقود الصحن، ترى أسماء بلال بن أبى رباح، وصهيب بن سنان، وسلمان الفارسى رضى الله عنهم أجمعين، الأوّل يعود بأصله إلى الحبشة، إلى أفريقية، والثانى إلى اليمن، وعاش شطرًا من حياته فى أرض الروم حتى عرف باسم صهيب الرومى، والثالث من فارس، لقد مجد المسلمون أسماءهم، فزيّنوا بها المسجد النبوى على اختلاف أجناسهم وألوانهم... بلال كان مؤذن الرسول صلى الله عليه وسلم فى الحضر والسفر، صحبه فى المشاهد كلها وما تخلف عنه فى غزوة، بلال كان رقيقًا حبشيًا وعذّبه كفار قريش عندما أسلم، فكانوا يلقونه على الصخور فى وقدة الحر، ويشتدّون فى تعذيبه فلا يزيد على أن يقول

معلنًا إيمانه: «أحد أحد» ولم يرض برغم التعذيب العنيد أن يدنّس لسانه بكلمة الكفر، بعد أن طهّره الله تعالى بكلمة الإيمان، ويشتريه أبو بكر ويعتقه، فيقول فى هذا عمر بن الخطاب: أبو بكر سيدنا وأعتق سيدنا - يعنى بلالاً - ويدخر الله له فضلًا كبيرًا، فيكون مؤذّن الرسول فى المسجد النبوى، ويدعوه الرسول إلى الأذان فوق الكعبة عام الفتح، فيكون أوّل من ارتفع فوقها بالتكبير ولم يكن ذلك يسيرًا على قريش وكبريائها، فيقول عتاب بن أسيد وقد أسلم يوم الفتح، وكأنه يعبّر عن وجهة نظر قريش كلها، عندما صعد بلال فوق ظهر الكعبة مؤذّنا:.. الحمد لله الذى قبض أبى حتى لم ير هذا اليوم! وقال الحارث بن هشام: «أما وجد محمد غير هذا الغراب الأسود مؤذّنًا؟».. وفى هذه العصبية اللونية ينزل قول الله تعالى محدّدًا أساس الحياة الإنسانية فى آمادها وأقطارها: ﴿يأيها الناس إنّا خلقناكم من ذكر وأنثى، وجعلناكم شعوبًا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير﴾.. سورة الحجرات آية رقم ١٣.

ويدعوه عمر بن الخطاب إلى الأذان فى بيت المقدس عندما حرّره المسلمون فيكون أوّل صوت يرتفع فيه بالتكبير، فضلٌ ادّخره الله لرجل بدأ حياته فى الإسلام رقيقا حبشيًّا من أفريقية، فعاش فى مجتمع كريم أذهب الله عنه نعرة الجاهلية وتعاظمها بالآباء..

وسلمان الفارسى، الذى دفعه البحث عن الإيمان إلى أن يترك

طنه فى فارس فى رحلة مؤمنة إلى الشام، ثم إلى الجزيرة العربية يؤمن بربّه ويجاهد مع رسوله، ويقول عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم: «سلمان منّا أهل البيت» وهو الذى يشير على الرسول بخطّة حفر الخندق حول المدينة فى غزوة الأحزاب، فيكون ذلك من التخطيط العسكرى الذى تقف دونه قريش عاجزة، ولقد كانت غزوة الأحزاب غزوةً قاسية تغلّب فيها الإيمان والعمل العلمى، الذى أطلق طاقات الصحابة دون نظر إلى ألوانهم أو أعراقهم التى جاءوا منها.

وصهيب الرومى: يهاجر من مكة إلى الله بدينه، لا يعنيه إلّا أمر إيمانه، ويتبعه رجال من قريش يريدون القبض عليه وإعادته إلى مكة، فيلتفت إليهم كالأسد الهصور، وبين يديه سهامه وقوسه، وعلى عاتقه سيفه ويقول: «والله لقد علمتم أنى من أرماكم، ووالله لا تصلون إلىّ حتى أقتل بكل سهم من هذه رجلًا منكم، ثم أقاتلكم بسيفى حتى أقتل، وإن كنتم تريدون المال فأنا أدلّكم على مالى، هو مدفون فى مكان كذا وكذا».

فانصرفوا عنه فأخذوا ماله، فلما قدم قال رسول الله: «ربح البيع أبا يحيى» وأنزل الله: ﴿ومن الناس مَن يَشْرِى نفسه ابتغاء مرضاة الله والله رءوف بالعباد﴾[1]..

---

(١) البقرة آية ٢٠٧.

ولما جعل عمر رضى الله عنه الأمر شورى بين الستّة ليختاروا من بينهم خليفة كان هو الذى يصلى بالناس حتى تعيّن عثمان، وهو الذى ولى الصلاة على عمر، وكان له صاحبًا.

ويجمع النبى عليه الصلاة والسلام هذه الباقة الإنسانية معه فى حديث يقول فيه: «أنا سابق العرب، وصهيب سابق الروم، وسلمان سابق الفرس، وبلال سابق الحبش»[(١)].

ويأتى الآسيويون إلى المسجد النبوى أجيالاً بعد أجيال فيجدون لهم أبًا كان فيه من الصحابة هو سلمان، ويأتى الروم ومن وراءهم فيجدون لهم أبًا كان فيه هو صهيب، ويأتى الأفريقيون ليجدوا بلالا مؤذن رسول الله.

الأجناس كلها تمثّلت فى الصفّ الأوّل من أصحاب رسول الله، ويقولها الرسول عن سلمان: «سلمان منّا أهل البيت»، ويقولها عمر بن الخطاب من بعده «والله لئن جاءت الأعاجم بالأعمال، وجئنا بغير عمل، فهم أوْلى بمحمد منّا يوم القيامة، فإن من قصر به عمله لا يسرع به نسبه» هذا التكريم للإنسان من حيث هو إنسان، وهذه المساواة الكاملة بين الناس جذبت الأفريقيين إلى هذا الدين الوافد عليهم، دين الإسلام، لقد وجدوا دينًا يطبقه أهله تطبيقًا عمليًا

---

(١) السيوطى: الجامع الصغير جـ١ ص١٠٧.

فهم لا يترفعون على أحد، ولا يعطون لأنفسهم مكانة فوق مكانة الأفريقيين ولا ينظرون إلى الملونين نظرةً فيها مهانة أو احتقار فأحبوا هذا الدين الذى كرّمهم وسارعوا إلى اعتناقه، إن الإسلام ليست فيه تفرقة عنصرية، وأتباعه لا يفرّقون بين العناصر، إنما الجميع أمام الله سواء.. ولقد عالج القرآن الكريم قضية التفرقة العنصرية علاجًا جعل المسلمين فى تطبيقهم العملى لتوجيهات القرآن، لا يمارسون ولو من بعد تفرقة عنصرية من غيرهم.. القرآن لم يذكر البياض مادحًا، ولا ذكر السواد ذامًّا، وإنما ذكرهما ظاهرات تدلّ على قدرة الله وخلقه..

إن القرآن يذكر اختلاف الألسنة والألوان وسط حشد من الظاهرات الطبيعية والبشرية، ويعتبرها جميعًا أدلّةً على وجود الله. ووضعها بهذه الصورة دون أن يفرد لها وحدها دراسة خاصة، وفى هذا أعمق الدلالة على أنها مجرد ظاهرات كغيرها من الظاهرات الطبيعية والبشرية، تجمعها كلّها نظرة واحدة من التأمل الذى يعمّق الإيمان فى القلب، ويدعوها إلى العمل القائم على الحب والرحمة.

وفى هذا يقول الله تعالى: ﴿فسبحان الله حين تُمسون وحين تُصبحون، وله الحمد فى السموات والأرض وَعَشِيًّا وحين تُظهرون، يخرج الحىَّ من الميّت ويخرج الميّت من الحىّ، ويحيى الأرض بعد موتها وكذلك تُخرَجون، ومن آياته أنْ خلقكم من تراب ثم إذا أنتم

بشر تنتشرون، ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجًا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودّةً ورحمةً، إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكّرون، ومِن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن فى ذلك لآيات للعالمين، ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله، إنّ فى ذلك لآيات لقوم يسمعون، ومن آياته يُريكم البرق خوفًا وطمعًا، وينزّل من السماء ماءً فيُحيى به الأرض بعد موتها، إنّ فى ذلك لآيات لقوم يعقلون﴾[1].

وحديث القرآن عن اختلاف الألسنة والألوان بين الناس يماثل حديثه عن اختلاف الألوان فى آفاق البيئة الطبيعية، هو مظهر لقدرة الله، له فى النفوس قداسة واحترام، وواجبنا حياله أن نعمل وفق أوامر الله.

وفى هذا يقول الله تعالى: ﴿ألم تر أن الله أنزل من السماء ماءً فأخرجنا به ثمرات مختلفًا ألوانها، ومن الجبال جُدَدٌ بيضٌ وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود، ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك، إنما يخشى الله من عباده العلماءُ إن الله عزيز غفور﴾[2].

يتّضح من هذه الآيات أن الناس جميعًا إخوة فهم أبناء أب واحد، وأن يعملوا فى الحياة دون أن يكون لفروق اللون - بشرية

---

(١) سورة الروم الآيات من ١٧ - ٢٤.

(٢) سورة فاطر ٢٧ - ٢٨.

كانت أو طبيعية – من الأثر ما يعوق هذا التعاون الإنسانى من أجل حياة أفضل..

ومن أروع مظاهر الإسلام التى حبّبت قلوب الأفريقيين فيه، سواء أكانوا مثقفين أم عامّة، أنه وضع الأسس والمبادئ العامة التى تمجد المثل العليا والآداب الرفيعة، وتنظم المعاملات بين أفراد الجماعة الإسلامية، كما عنى الإسلام بالأسرة وقرر مبادئ حقوق الإنسان، فوضع أساس الحرية والإخاء والمساواة والتسامح الدينى، وخلف للإنسانية الحديثة هذا التراث المجيد من فلسفة وأدب وفن ونظم.

والقرآن الكريم يعترف بالأديان السماوية الأخرى، وبالأنبياء كموسى وعيسى، ويفرض على المسلمين أن يعترفوا بهذا كجزء مكمّل للعقيدة الإسلامية، وفى ذلك يقول الله تعالى: ﴿آمن الرسول بما أُنزل إليه من ربه والمؤمنون، كلٌّ آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرِّق بين أحد من رسله، وقالوا سمعنا وأطعنا، غفرانك ربنا وإليك المصير﴾[١]..

وقد حثّ القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة المسلمين على نشر الإسلام وإشاعة المحبّة بين الناس جميعًا، وقرر الله سبحانه وتعالى معنى الإسلام، فسمّى نفسه السلام، قال تعالى: ﴿هو الله

---

(١) سورة البقرة: ٢٨٥

الذى لا إله إلّا هو، الملك القدّوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبّار المتكبّر سبحان الله عمّا يشركون﴾[1] وقال تعالى: ﴿وأُدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنّاتٍ تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها بإذن ربهم، تحيّتهم فيها سلام﴾[2]..

والإسلام يؤلّف ولا ينفّر، ويقرّب ولا يبعد، فقد أوصى النبى صلى الله عليه وسلم بحسن المعاملة، روى فى بعض الآثار أن «الدين المعاملة» وأوصى الله تعالى بحسن الجوار، قال رسول الله: «ما زال جبريل يوصينى بالجار حتى ظننت أنه سيورّثه»..

وحقوق الجار عظيمة، من شأنها أن تربط بينهما المودّة والحسنى، وقال رسول الله: «والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن - قالها ثلاثًا - قالوا: من يا رسول الله؟ قال: ذلك الذى لا يأمن جاره بوائقه».

وقد نصّ النبى صلى الله عليه وسلم على الإحسان إلى الجار المشرك، فروى عنه أنه «قسم الجيران إلى ثلاثة: جار مسلم ذو رحم، له حقّ الجوار، وحقّ الرحم، وحق الإسلام، وجار مسلم: له حق الجوار وحق الإسلام، وجار مشرك له حق الجوار...

---

(١) سورة الحشر: ٢٣.

(٢) سورة إبراهيم: ٢٣.

ومن هذه الأخلاق التى أوصى فيها النبى بحسْن العشرة وحسن ...لة دخل الإسلام إلى القلوب وقرّب النفوس، وإن العدالة الإسلامية فى الشعوب التى كان للإسلام نفوذ فيها، كانت مرتبطة النفوس، مؤثّرة فى قلوبهم، فالله تعالى يقول: ﴿ولا يجْرِمنَّكم شنآنُ ...وم على ألّا تعدلوا، اعدلوا هو أقرب للتقوى﴾(١)..

والنبى أوصى بالذمّيين، وقال: «ومن آذى ذمّيًّا فأنا خصمه، ومن كنت خصمه خصمته يوم القيَامة».

وقد كان الخلفاء الراشدون حريصين على إكرام الذمّيين والعدالة ...هم، وحقّقوا القاعدة الفقهية التى تقول: لهم ما لنا وعليهم علينا، من غير وكس ولا شطط..

وإن عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان يعدّ المعاملة الطيّبة من الولاة للذمّيين، دليلًا على عدلهم، فكان إذا لقى الوفود من الأقاليم ...سلامية فى موسم الحج، كان أوّل أمر يسأل عنه معاملتهم للذمّيين، المعاملة العادلة تجذب القلوب وتقرّبها، فإذا علموا أنها من دين وافد إليهم يسمى دين الإسلام، سارعوا إلى التعرف عليه ودراسة مبادئه ...حكامه.

وإن العدالة حتى فى الحرب، والسيوف مشتجرة، كانت سائدة

(١) سورة المائدة: آية رقم ٨.

واضحة، يحكى تاريخ عمر بن عبد العزيز: الحاكم العادل، أن أهل صفد من أعمال سمرقند شكوا إلى الحاكم العادل - عمر هذا - ان قتيبة بن مسلم دخل ديارهم فاتحًا، من غير أن يخيّرهم بين الإسلام أو العهد أو القتال، كما هو الشأن فى الحروب الإسلامية. شكوا ذلك إلى عمر بن عبد العزيز - رضى الله عنه - فأرسل إلى القاضى يأمره بأن يجلس ويحقّق الشكوى، ويجمع بين الشاكين، والقائد العظيم قتيبة بن مسلم، فسمع القاضى إلى الشكاة، وإلى مقالة قتيبة، فتبيّن له صدق الشكوى، فأمر الجند الفاتح أن يخرج من ديار سمرقند، ويعود إلى ثكناته قبل الفتح، ثم يعود القائد إلى تخييرهم بين الإسلام والعهد والقتال.

لا شكّ أنهم يختارون العهد، ولا يختارون القتال، والكثيرون منهم يدخلون فى الإسلام، سواء أرضى أولياء الأمر فيهم، أم لم يرضوا.

إن الإسلام كان دين العدل فى وسط عنجهية الحكم الطاغى، والظلم المبين، وكان فيه إنقاذ الرعية، من الولاة الظالمين، والظلمة الآثمين.

ولا شك: أنهم عرفوا أن الإسلام فى عهوده التى يعقدها مع الحكام - ملوكًا كانوا أو غير ملوك، كان يشترط عليهم العدل فى رعاياهم، فإن لم يعدلوا، فقد نكثوا فى أيمانهم، وردّ اليهم عهدهم، وقام

المسلمون بقتالهم لإبعادهم عن ظلم الرعية.

ذلك: أن الظلم حرام فى الإسلام، جاء بتحريمه القرآن، ووصايا النبى صلى الله عليه وسلم - وكل شرط يحلّ حرامًا، أو يحرّم حلالاً فهو ردٌّ على من اشترطه كما قال صلى الله تعالى عليه وسلم: «المسلمون عند شروطهم، إلاّ شرطًا أحلّ حرامًا أو حرّم حلالاً» وإن الظلم حرام بحكم الشرع، وبحكم العقل.

ومن العوامل الذاتية لانتشار الإسلام: القدوة الصالحة

إن صلاح المؤمن هو أبلغ خطبة تدعو الناس إلى الإيمان، وخلقه الفاضل هو السحر الذى يجذب إليه الأفئدة ويجمع عليه القلوب، وأصحاب القلوب الكبيرة لهم من شرف السير وجلال الشمائل ما يبعث على الإعجاب بهم والركون إليهم، ومن ثم فإن الداعية الموفق هو الذى يهدى إلى الحق بعمله وإن لم ينطق بكلمة، لأنه مثل حىّ متحرّك للمبادئ التى يعتنقها.

وقد انتشر الإسلام فى صدر الإسلام بهذه القدوة الصالحة، فأعجب غيرهم بالإسلام فى أحوال الفرد، وفى أحوال الدولة، والداعية الأوّل رسول الله صلى الله عليه وسلم كان المثل الأعلى فى الأخلاق وحسن معاملته للناس، ورفقه بأصحابه فتأثر بهذه الأخلاق غير المسلمين ودخلوا فى هذا الدين الجديد، حينما دعا إلى الزهد فى متاع الحياة الدنيا - طبق ذلك على نفسه، فزهد فى نعيمها، وكانت الغنائم توضع أكوامًا فى المسجد، فلا يقوم من مجلسه إلّا بعد أن يوزعها، ثم يعود إلى بيته، فتقول عائشة فى هذا البيت: لقد كان يمرّ

علينا الهلال ثم الهلال تم الهلال ثلاثة أهلّة فى شهرين، وما يوقد فى أبيات رسول الله نار للطعام «وحينما كان يدعو إلى الشجاعة والخروج إلى مواجهة الأعداء كان أوّل من يخرج إلى المعركة، ويقول فى ذلك على بن أبي طالب رضى الله عنه: كنّا إذا حمى البأس واحمرّت الحدق، اتقينا برسول الله فلا يكون أحد أقرب إلى العدو منه.. وتميز المجتمع الإسلامى الأوّل بمعاملة المسلمين لغيرهم معاملة طيبة، حببت إليهم القلوب، فالود يقرّب، والعداوة تفرّق، وما كان يجوز سبّ دين المخالف للإسلام، ولا التهجّم على اعتقاده؛ فإن التهجّم يوجد مقاومة، والمقاومة توجد الانحياز، والانحياز يضع حاجزًا بينه وبين من يريد هدايته، والمنهاج فى ذلك قوله تعالى: ﴿قل يأيها الكافرون، لا أعبد ما تعبدون، ولا أنتم عابدون ما أعبد، ولا أنا عابد ما عبدتم ولا أنتم عابدون ما أعبد، لكم دينكم ولى دين﴾، سورة الكافرون.

وقد أوجد الفتح الإسلامى جوارًا بين المسلمين وغير المسلمين سواء أكان هؤلاء الجيران من العرب، أم من غيرهم، فرأوا من المسلمين حسن المعاملة، والإحسان إلى الجار، تطبيقًا لأوامر القرآن الكريم التى قرنت الإحسان بالجار بالإحسان إلى الأقربين، وقرن الإحسان بعبادة الله وحده، فقال تعالى: ﴿واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا وبالوالدين إحسانًا، وبذى القربى واليتامى والمساكين، والجار ذى القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت

أيمانكم، إن الله لا يحبّ من كان مختالاً فخورًا﴾[1]. وإن ذلك بلا ريب يقرب النفوس ويؤلّفها، وإذا تآلفت النفوس سهل وصول الحق إليها، ودخل إلى القلوب من أبوابها، وخصوصًا إذا كان العقل يؤيّد ما يدعون إليه فإن المعاملة الحسنة تُدنى، والجفوة تُبعد، والقول الطيب يهدى، وغيره ينفّر، وقد قال تعالى: ﴿وهُدوا إلى الطيب من القول وهدوا إلى صراط الحميد﴾[2] ويأمر الله سبحانه المؤمنين أن يقولوا للناس قولاً حسنا، فقال تعالى: ﴿وقولوا للناس حُسْنًا﴾[3].

ومع أن الإسلام مقنع بذاته، يدعو العقل ويخاطبها - مع هذا - يجب أن نفرض فرضًا آخر وهو أن الإسلام كان قويًّا، وكان المسلمون هم الأقوياء، والحكام منهم، فلابد من أن يقلّدهم المحكومون بهم، وتتحقق نظرية ابن خلدون التى تقرر: أن الضعيف شغوف دائمًا بتقليد القوى، ويظنّ أن كل ما فيه من أحوال وصفات من أسباب قوته وسرّ عزّته وعظمته، وأنه بمقتضى هذه النظرية لذلك الفيلسوف الاجتماعى، يفرض أن ناسًا من المحكومين ابتغوا الإسلام تقليدًا للأقوياء وهم حكّام المسلمين، فكانت على هذا قوّة المسلمين وسلطانهم من أسباب اتّباعهم، ولذا لا نجد أحدًا من هؤلاء الذين دخلوا فى الإسلام عن اقتناع خرجوا منه، بعد أن ذاقوا

---

(١) النساء آية ٣٦.
(٢) الحج آية ٢٤.
(٣) البقرة آية ٨٣.

بشاشته، وأن استمساك المسلمين غير العرب بدينهم الذى ارتضوا -وهو الإسلام- لدليل على أنهم اختاروه لاقتناعهم به، ووازنوا بينه وبين ما كانوا عليه من أوهام، فرأوا فيه كل ما يوافق العقل السليم، ورأوا ما رآه الأعرابى عندما آمن بمحمد رسول الله، وقد سئل: لم آمنت به؟ فقال: ما رأيت محمدًا يقول فى أمر افعل، والعقل يقول: لا تفعل، وما رأيت محمدًا يقول فى أمر لا تفعل والعقل يقول افعل..

وبذلك يتبين أن المسلمين فى الأراضى التى فتحها الإسلام، ما دخلوا فى الإسلام رهبًا، وما دخلوا تقليدًا للأقوياء، ولكن دخلوا رغبًا وتأثرًا بالقدوة الصالحة.

وكان العدل واضحًا فى المجتمع الإسلامى، وكانت الرعية تعيش فى أمن وسلام، قال عمرو بن العاص يومًا لأحد رعيته يا منافق، فقال الرجل له: والله ما نا فقت منذ أسلمت، وشكا إلى عمر فى المدينة، فأعطاه كتابًا قال فيه: من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى العاصى بن العاص لقد ذكر لى فلان أنك نفقّته، وما نافق منذ أسلم، فإذا جاءك كتابى فاجلس مع الملأ، واجعله يضربك أسواطًا، فجاء الرجل إلى الملأ فى المسجد، وقال لهم: من سمع الأمير نفقنى؟ قالوا: كلّنا سمعه، فقرأ عليهم الكتاب، فقال المنافقون حقًا الذين يطوفون حول الحاكم: أو تضرب الأمير؟ فقال الرجل متحديًا: ليس لأمير

ؤمنين هنا أمر، فطأطأ عمرو بن العاص رأسه، وأعطاه السوط، ال للرجل: اضرب، فهزّ الرجل السوط بيده وقال: الآن عفوْت.

هذه هي العدالة فى أسمى صورها، والتى طبقها الحاكم على ته؛ ولذا أحب الناس هذا الدين الذى يوفّر لهم الأمن والعدل لسلام...

والعرب الذين هاجروا من شبه الجزيرة العربية، واستقرّ بهم ام فى شرق أفريقية، هاجروا ومعهم قيم الإسلام وأخلاقه، لقد ى فيهم أهل البلاد البساطة فى العبادة، فالوضوء للصلاة ميسور، صلاة صلة بين العبد وربّه، وتؤدّى بلا تعقيد، ووجدوا البساطة جلّى فى أبهى صورها فى هؤلاء المسلمين، فهم يسكنون فى أحيائهم، صاهرونهم، ويأكلون طعامهم، ويلبسون ثيابهم، كما أنهم وجدوا فى رتهم الأمانة، فالعربى أمين وصادق وسمح حسبما قال رسول الله: حم الله رجلاً سمحًا إذا باع، سمحًا إذا اشترى، سمحًا إذا ضى» اندمج العرب بسرعة فى البلاد التى دخلوها، وذلك بعكس نود المسلمين فإنهم لا يختلطون بالشعوب الأفريقية، بل يسكنون ياء خاصة بهم، ولهم مساجدهم وحدهم، ولا يزوّجونهم ولا زوجون منهم؛ لهذا لم يكن لهم أثر يذكر فى توجيه غيرهم إلى هذا دين، لكن العرب قد أجادوا فنّ الاندماج بغيرهم، وعاشوا معهم كأنهم أبناء بلد واحد، تعلّموا لغتهم، وتزوجوا منهم، وتعوّدوا على عامهم؛ لذا ألفهم أهل البلاد وتأثروا بهم وبأخلاقهم، وبالواجبات

الدينية التي يؤدّونها، لقد رأوا البساطة فى أدائهم للعبادات. فحين
يريد المسلم أن يصلّى يغسل بعض أعضائه – وهى فرائض
الوضوء – ثم يقف متجهًا إلى جه معينة، وينوى الصلاة – ويق
الفاتحة – ويركع ويسجد فى يسْر وسهولة، وهو فى أثناء صلا
لا يشغل بشىء أبدًا، لا يلتفت إلى أحد، ولا يكلّم أحدًا ولا يعبث
بشىء ولا يتحرك من مكانه، وذلك مظهر رائع للنظام، فلفت ذلك
انتباه الأفارقة، وأحبّوا مزاولة هذه الطقوس، إنهم يرون المسل
نظيفًا، فى بدنه ونظيفًا فى ملابسه، ونظيفًا فى المكان الذى يجلس فيه
وهذا أمر محبّب إلى النفوس ثم رأوا منهم حبّهم للخير، وبذل
المعروف للغير، والتعاون مع الناس فى أحزانهم وأفراحهم، ورأوا منهم
القناعة، يبدءون طعامهم – أى طعام كان – بسم الله، وينتهون منه
بقولهم: الحمد لله، وينطلقون إلى العمل فى جدٍّ ونشاط، نهارهم كله
دأب وعمل، وسعى من أجل الرزق، فى أى ميدان من ميادين
العمل، زراعة، أو تجارة أو صناعة، طوال النهار يعملون، فإذا
ما أقبل المساء سارعوا إلى المساجد فى ثياب نظيفة يؤدّون الصلاة
ويقرءون القرآن ويسبّحون الله ويستغفرون، ثم ينصرفون إلى
بيوتهم مبكرين، ليناموا مبكرين، ويستيقظوا فى الصباح مبكرين،
حيث يؤدّون صلاة الفجر...

هذا المظهر الرائع حبّب الإسلام إلى قلوب الأفريقيين فكان وسيلةً من وسائل انتشار الإسلام بينهم...

ثانيًا: العوامل الخارجية لانتشار الإسلام

وتتمثل فيما يأتى:

القوافل التجارية:

الهنود فى قارة آسيا، يبلغ عددهم أكثر من ٦٠٠ مليون (ستمائة مليون نسمة) وهو عدد ضخم لا تكاد تتسع له البلاد؛ لذا فإن كثيرًا منهم يهاجر إلى دولة أخرى، وغالبًا ما يكونون تجارًا، فيعملون فى التجارة فى بلاد المهجر، وإن من البلاد التى شدّتهم إليها بلاد شرق أفريقية لوقوعها على المحيط الهندى، وأكثر هؤلاء المهاجرين من المسلمين المتمسّكين بالإسلام، وإن كان أكثرهم يتبع مذهب الشيعة، وكانوا فى الماضى يفدون على شكل قوافل ومعهم تجارتهم من البضائع الموجودة فى الهند، فيبيعونها ويأخذون أثمانها، أو يشترون بها منتجات البلاد ويعودون إلى بلادهم يبيعونها فيها، وهكذا تتوافد القوافل التجارية على ساحل شرق أفريقية، وكذلك يفد الإيرانيون، وإن كانوا يحبّون الإقامة، وليس فى طبيعتهم حبّ الأسفار وكثرة الانتقالات...

أما العرب، فإنهم من عشّاق الرحلات التجارية من العصور القديمة ويذكر القرآن الكريم نبأ رحلتين هامّتين لقريش: رحلة فى الشتاء إلى اليمن جنوبا، ورحلة فى الصيف إلى الشام شمالاً، وقال فى شأنها القرآن الكريم فى قوله تعالى: ﴿لإيلاف قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف فليعبدوا ربَّ هذا البيت، الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف﴾...

ونظرًا لأن الساحل الأفريقى مواجه لشبه الجزيرة العربية، ولا يفصل بينها إلاّ البحر الأحمر فإن القوافل التجارية كانت تجد سهولة فى الذهاب إلى تلك المنطقة للتجارة، وهى تحمل مع تجارتها قيم الإسلام ومبادئه، فيعطون للناس ما معهم من مواد تجارية، وفى نفس الوقت يعطونهم تعاليم الإسلام بمفهومه الحضارى من حيث حبه للخير، وحبه للناس جميعًا من أىّ لون أو جنس، والجميع سواسية. لا فرق بين كبير أو صغير، ولا فضل لعربى على عجمى إلاّ بالتقوى والعمل الصالح. فتمكن الإسلام من قلوب الأفريقيين، والقوافل التجارية لا تحطّ رحالها فى مكان واحد، بل هى سريعة التنقل من بلد إلى بلد، ومن الشاطئ إلى داخل البلاد، فرآهم جميع أهل البلاد - وتأثروا بهم وبمعاملاتهم، وبصدقهم فى القول وأمانتهم وقناعتهم، فتأثروا بالإسلام، وسارعوا إلى إعتناقه.

وبهذا كان للقوافل التجارية أثر كبير فى انتشار الإسلام.

وكان من تأثير ازدهار التجارة أن عمّ الرخاء سكان تلك المناطق الساحلية فارتفعت مستويات حياتهم، وليس يخاف أن العرب بذلوا جهودًا طيبة فى تطوير الزراعة، وتوسيع الرقعة الزراعية، وإدخال زراعة الغلات، وفضلاً عن ذلك فقد عرف الأهالى بعض الصناعات كصناعة التعدين والحلى والحياكة وغيرها.

كما كان للقوافل التجارية أثر فى نشر اللغة العربية، وقد اختلطت بلهجات قبائل البانتو وتولّدت اللغة السواحيلية التى اشتملت على عدد كبير من الكلمات العربية، ويتكلم هذه اللغة اليوم حوالى خمسين مليونا.

ولبيان أثر التجار فى خدمة الإسلام ونشره بأفريقية ينبغى أن نسير مع قافلة تجارية للمسلمين تجتاز الحدود إلى بلاد الزنوج خلف الصحراء. فالقافلة تتكوّن من عشرات الرجال معهم البضائع المتنوّعة التى تحملها الجمال والبغال وبعض الرجال لهم خبرة بالتجارة، وبعضهم يقومون بحراسة القافلة، والبعض للخدمة. وهم جميعًا يمتازون بصحّة جيدة، ويرتدون ملابس نظيفة، وكثيرون منهم يرتدون ملابس فخمة تلفت الأنظار، وطبيعة التاجر أنه حسن المعشر، فيه جاذبية يستطيع بها أن يروّج تجارته، وترتسم ابتسامة على شفتيه بسهولة عندما يبيع أو يشترى. وهو يحاول أن يكسب من يعامله، وأن يجعله يحسّ بأنه صديقه الوفى.. وتحطّ القافلة أحمالها فى

مركز من المراكز التجارية، ويزاول التجار البيع والشراء للأهالى، ولكن التجارة فى ظلّ الإسلام أصبحت تتخذ من الشرف والثقة دعامة لها، ولا غرو فالتاجر المسلم لا يستطيع أن ينسى وهو يعامل الآخرين قوله تعالى ﴿ويلٌ للمطفّفين الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون وإذا كالوهم أو وزنوهم يُخسِرون، ألا يظنُّ أولئك أنهم مبعثون ليوم عظيم[1]﴾ وهذا وثق العلاقة بين التاجر المسلم وبين المشترى وخلق لونا من الجاذبية والتقدير، وفى هذا الجو يتم تبادل السلع وتبادل الأفكار، ثم إن المركز التجارى يتميز بالنظافة وبالإضاءة، ولعب ثراء التجار دورًا كبيرًا إذ ساعد التاجر على بناء منزل جميل، وعلى الظهور بمظهر الكرم والسخاء، وكل هذا يجعل بيت الغنى موئلًا للسادة والرؤساء، وملاذًا للمحتاجين، ومكانًا يتطلع له الأذكياء، ومحبّو الاستطلاع والطموحون... وبعد أيام ترحل القافلة إلى مركز جديد تاركة بعض رجالها وبعض سلعها فى المركز السابق، وفى المركز الجديد تتم عملية اتصال تجارى على هذا النمط، وهكذا دواليك، والتجار المسلمون يصلّون، وتضمّهم صفوف جميلة فى صلاة الجمعة والجماعة، وهم لا يشربون الخمر ولا يأتون المنكر ومستواهم الخلقى غالبًا طيب للغاية وهذه الصفات كثيرًا ما جذبت الأهلين إلى الانضمام إلى دين هذه الجماعة، والتجار المسلمون

(١) سورة المطففين الآيات من ١ إلى ٥.

المقيمون فى المراكز أو المتنقلون من مركز إلى مركز يتزوجون من الأهالى، وهم فى الغالب يختارون زوجاتهم من بيوت رؤساء القبائل وأصحاب النفوذ، وتصبح دورهم منارات ينتشر منها الإسلام، وكثيراً ما يدخل رؤساء القبائل فى دين أصهارهم فتتبعهم باقى القبيلة، وقد لعب تعدّد الزوجات دورًا مهمًّا فى خدمة الإسلام فإن تعدّد الزوجات كان معروفًا فى هذه البقاع دون حدٍّ ودون شروط فجعله الإسلام مشروطًا بالعدالة، ولم يسمح بأن يتجاوز عدد الزوجات أربعًا، وكانت الضرورة تقتضى فى مثل هذه الظروف بتعدّد الزوجات، فالتاجر ترك زوجته فى وطنه، ويعسر عليه أن يعيش عدة شهور دون زوجة، ومن هنا يتّخذ له زوجةً فى المكان الذى يتجر فيه، ويصبح بيته مركزًا إسلاميًّا يلعب دورًا كبيرًا فى خدمة الإسلام.

ولأن كثيرًا من هؤلاء التجار المسلمين لا يجيدون الفقه والفكر الإسلامى فقد استقدموا الفقهاء والعلماء لهذه المناطق عندما يكثر عدد المسلمين بها ليتولّى هؤلاء العلماء تعليم الناس أمور دينهم، وكان بعضهم يشيِّد المدارس وينشئ المساجد، وكثيرًا ما كانوا يختارون أفذاذ الطلّاب من المواطنين لإرسالهم إلى المعاهد الإسلامية الشهيرة فى مصر أو الشمال الأفريقى، ليتلقوا مزيدًا من العلم، وليعودوا قادةً للفكر فى هذه البقاع، ومن هذا نستطيع أن نفهم لماذا كانت المراكز التجارية بأفريقية مسلمة قبل سواها من المدن والأنحاء.

ولم يقتصر الأمر على القوافل التجارية، بل إن هناك هجرات متعددة ومستمرّة، هذه الهجرات رحلت من الجزيرة العربية للاستقرار فى أفريقية تلك القارة الواسعة، ويعيش المهاجرون فيها حيث يعملون فى رعى الماشية وحرفة التجارة، أو يبلّغون الدعوة الجديدة ويعيشون فى كنفها. وبالإضافة إلى العامل الاقتصادى الذى دفع العرب للهجرة من جزيرتهم، وجد بعد الإسلام عامل سياسى دفع إلى الهجرة، كالفرقة الإسلامية، وكسقوط دولة وقيام أخرى، هذه العوامل جعلت بعض الطرق أو بعض القبائل تفرّ من اضطهاد واقعى أو محتمل وتتّخذ طريقها إلى أفريقية.

وعلى الرغم من أن الهجرات جاءت من أمكنة متعددة من الجزيرة العربية، وعلى الرغم من أن المهاجرين جميعا خدموا الإسلام ونشروه، فإن بلاد حضرموت جديرة بأن نقف عندها وقفة فيها إجلال وتقدير، لما قام به بنوها فى هذا المجال، فلقد تخطى هؤلاء الناس الصعاب، وركبوا البرّ والبحر فنزلوا هنا وهناك ولم ينسوا قط دعوة هذا الدين فى حلّهم وترحالهم، فحملوا الإسلام إلى الناس وحملهم الإسلام إلى أسمى الدرجات. وإن عدّة ملايين من البشر فى آسيا وأفريقية يرتبط إسلامهم بهجرات حضرية، والهجرات العربية لأفريقية اتّخذت طريقها عبر مصر أو عبر البحر الأحمر، ولم يتوقّف نشاطها عند الساحل، بل تعمّقت فى كثير من الأحوال حتى وصلت قلب القارة، ويلاحظ أن المهاجرين العرب لأفريقية قلّما صحبوا

زوجاتهم في هجراتهم فالمرأة العربية كانت التقاليد تحميها من المغامرات والأخطار، ثم كان العربى قريب الشبه فى زيّه وطعامه من أصحاب البلاد الأصليين، ونتج عن هذا أن حدث تزاوج وارتباط واسع المدى بين الطرفين، وهذا الارتباط قصّر المسافة بين الجانبين، ويسّر انتشار الإسلام، وبخاصّة بين جماعات اللادينيين، فتحققت بذلك نظرية علماء مقّارنة الأديان التى تقرر أن الدين الأعلى ينسكب فى قلوب من لا دين لهم، أو من يعتمدون فى تديّنهم على خرافات وأوهام، وذلك كالسيل ينحدر من أعلى إلى أسفل، وقد أحسّ المسلمون من سكان البلاد الأصليين أن العرب جاءوا من أرض النبى وأن لهم أو للكثير منهم صلة نسب برسول الله، ومن هنا أسلموهم القيادة فى كثير من الأحوال، وأصبح طبيعيًّا ما يقوله المؤرّخ «موك» من أنه قل أن ترى أسرةً حاكمة فى غربى أفريقية لا تنتسب إلى أصل عربى.. ولقى العلماء والمفكرون الذين هاجروا إلى أفريقية من الحجاز والعراق وغيرهما كنفًا ليّنًا وبسطة فى العيش فى المناطق التى رحلوا إليها، فأغراهم ذلك ليستقرّوا بها ولينشروا دين الله ويخدموا العلم والتصوف، فاتّخذوا من هذه المناطق مأوًى جديدًا واستوطنوها. وبناء على وثيقة يشير إليها «سير توماس أرنولد» يعتقد أن أوّل من هاجر من العرب إلى أفريقية هم جماعة من شيعة الشهيد زيد بن على زين العابدين بن الإمام الحسين، وقد فرّوا إلى أفريقية عقب هزيمة الثورة التى قام بها زيد، وأعدم من

أجلها سنة ١٢٢ هـ (٧٤٠م) فى عهد هشام بن عبد الملك الخلي الأموى.

ويعلّق «توماس أرنولد» على هذه الرواية بقوله: إن هذه الجماء عاشت فى مبدأ الأمر فى خوف بين السكان الأصليين الوثنيين، ولكنه نجحت بالتدريج فى نشر الإسلام، ثم فى بسط نفوذها على طو الساحل بيد أن جماعة أخرى من العرب أقوى وأشدّ جاءت مر الأحساء على الخليج العربى فارّة من الصراع الذى كان يدور هنال فى منتصف القرن التاسع بين الخلفاء والقرامطة.. ويقال: إن هذ الجماعة عبرت البحر على ثلاث سفن، ونزلت بالقرب من المكان الذى ينزل به الزيدية، ولكن لما كان الزيدية من الشيعة والوافدون الجدد من أهل السنّة، فإن الزيدية ارتدّوا إلى داخل أفريقية واندمجوا فى السكان الأصليين، تاركين الساحل للوافدين الجدد الذين كانوا أكثر عددًا وأوفر قوّة، ويقال: إن هؤلاء هم الذين أسّسوا مدينة «مقديشيو» عاصمة الصومال الآن، وهناك رأى آخر يرى أن مقديشيو أسّست فى منتصف القرن العاشر، وأن الذين أسّسوها كانوا فُرْسًا بدليل أن التسمية فارسية، ومعنى مقديشيو أى مقعد الشاه.. ويمكن التوفيق بين الرأيين باعتبار أن العرب أسّسوا المدينة فى القرن التاسع باسم آخر، ثم زاد الفرس فى المدينة وأطلقوا عليها مقديشيو أو أنهم أطلقوا هذا الاسم على الجزء الذى نزلوا به من المدينة، أو على المنطقة التى بنوها، ثم غلب الاسم على المدينة كلها..

ومن الوفود العربية التى هاجرت إلى أفريقية وفد هاجر فى القرن الخامس عشر، وقد جاء من حضرموت وهو مكوّن من أربعة وأربعين رجلاً، وقد نزلوا بربرة ثم انتشروا فى بلاد الصومال يدعون إلى الإسلام، وقد شقّ أحد هؤلاء المهاجرين واسمه «الشيخ إبراهيم أبو زرباى» طريقه إلى «هرر» حوالى سنة ١٤٣٠، واستطاع أن يحوّل كثيرين إلى دين الإسلام، ولا يزال قبره موضع تعظيم وتبجيل فى هذه المدينة(١).

وتتابعت الهجرات العربية إلى الساحل الشرقى لأفريقية، وإلى الجزر المجاورة للساحل، ويذكر المؤرخون هجرات من اليمن والحجاز وحضرموت انسابت إلى هذه البقاع وإلى ربوع السودان الغربى، واختلطت بالسكان، وانتشر الإسلام فى ذلك الجوّ الجديد، وتتابعت الهجرات العربية، ولم يمض جيل وجيل حتى كانت اللغة العربية هى لغة أكثر السكان، وكان النفوذ فى أيدى السلالات العربية، وقد تعرّض سودان وادى النيل وبخاصة مناطق النوبة والبجة وسنّار لهجرات عربية أكثر كثافة بسبب موقعه بالنسبة لمصر وبالنسبة للبحر الأحمر والتاريخ يحدثنا طويلاً عن هجرة المسلمين إلى الحبشة مرتين قبل الهجرة إلى المدينة وعن محاولة قريش استعادة هؤلاء المهاجرين، ويذكر التاريخ أن جعفر بن أبى طالب شرح

---

(١) عبد الرحمن زكى: المسلمون فى العالم جـ٢ ص ٥٢.

للنجاشي باسم المسلمين دعوة الإسلام، ورأى المسلمين فى مريم المسيح، وأن النجاشى تأثّر بكلام جعفر حتى يقال: إنه اعتنق الإسلام، والمهم هنا أن جعفر لقى مقامًا طيبًا ببلاد الحبشة وأن حياته هناك طالت فلم يرجع للجزيرة العربية عقب الهجرة، بل بقى بالحبشة حتى العام السابع للهجرة وقد هاجر جماعة من سلالة أخيه عقيل بن أبى طالب إلى الحبشة ونزلوا فى بقعة يقال لها «جبرة أو جبرت» وقد نسب هؤلاء المهاجرون إلى تلك المنطقة فأصبحوا يعرفون بالجبرتية، وإليها ينسب الشيخ المؤرخ الجبرتى، واستطاع أحفاد بنى عقيل أن ينشروا الإسلام فى هذه المنطقة وبمرور الزمن استطاعوا أن يكوّنوا أوّل دولة إسلامية فى الحبشة، وأخذ نفوذهم يمتدّ حتى إذا جاء القرن الرابع عشر كان قد تم لهم تأليف سبع ممالك زاهرة، سميت «الطراز الإسلامى» لأنها على جانب البحر كالطراز له[1].. وهكذا أصبحت المنطقة الشرقية توصف بأنها سلطنات عربية إسلامية، وبجوار ممالك الطراز الإسلامى كانت هناك سلطنات مشابهة فى مقديشيو وعلى ساحل البحر الأحمر والمحيط الهندى، وفى الجزر المقابلة للساحل، وقد نعمت الشعوب الأصلية فى هذه المناطق بالحكم الجديد وتعاونت معه فى ظلّ الإسلام.

---

(١) صبح الأعشى للقلقشندى جـ ٥ ص ٣٢٤.
والمقريزى: الإلمام بأخبار من بالحبشة من علوم الإسلام ص ٩.

وهكذا تدفّقت الهجرات العربية عبر القرون إلى أفريقية وبوجه خاص إلى الشمال وإلى الشرق وكان لها أثر كبير فى نشر الإسلام، بل امتدّ أثر هذه الهجرات إلى الجنس واللغة فأصبحت مناطق الشمال وأكثر مناطق الشرق عربية الدم واللسان. وكان ينبغى أن تصبح الحبشة بلادًا عربيّةً مسلمة وقد أوشكت أن تكون كذلك، فلقد قامت بها إمارات وممالك عربية اللسان، مسلمة الدين، ولكن الاستعمار الأوربى ابتداءً من عهد البرتغال حتى العهد الحاضر بذل أقصى الجهد ليجعل منها قلعةً مسيحية وسط القارة.

ولم تقتصر الهجرات على العرب، فهناك نشاط لمسلمين غير عرب فى قارة أفريقية باعتبار أن الإسلام دين الناس جميعًا، وأن المسلم أيًّا كان جنسه يحسّ بأن الإسلام دينه، وعليه مسئولية نشره والدفاع عنه..

ولعل أقدم الهجرات التى قام بها مسلمون غير عرب هى تلك الهجرات الفارسية التى قدمت من شيراز فى القرن العاشر الميلادى وكانت بزعامة حسن بن على، ويروى أن هذا الزعيم كان ابن سلطان شيراز ولكن أمّه كانت حبشيّة فجفاه إخوته لذلك، فقرّر أن ينتقل إلى أرض الحبشة، فركب مجموعة من السفن ومعه أهله وأتباعه، ورست هذه السفن فى أماكن متعدّدة على الشاطئ الشرقى لأفريقية - رست إحداها فى ممباسا، والثانية فى بمبا والثالثة فى مكان

أنشأ فيه هؤلاء المهاجرون مدينة «كلوا» وكان الإسلام قد عُرف فى هذه البقاع قبل ذلك، ولكن هؤلاء المهاجرين زادوا نشره واختلطوا بالسكان، حتى إنهم لم يتمسّكوا باتجاهاتهم الشيعية، واندمجوا فى مذهب الشافعى الذى كان سائدًا قبل حضورهم، وبمرور الوقت أصبح «لكلوا» سيادة على مدن الساحل..

وعندما كان الاستعمار الإنجليزى جاثمًا على الهند شجّع نشاط المذاهب المختلفة التى تنتمى للمسلمين وكان يقصد بذلك التفرقة بين المسلمين ، بل جعل من بعض الانحرافات مذاهب دافع عنها وبالتالى دافعت عنه وطال عمر المستعمر فى ظلِّ هذه الخلافات، وقد وجد الإنجليز أن المناطق الإسلامية بأفريقية متّحدة فى فكرها، وهم لا يريدون وحدة قد تتجّه ضدّهم، ومن أجل هذا أدخل المستعمرون إلى أفريقية أفواجًا من المهاجرين الذين يتبعون المذاهب التى ربّاها الاستعمار فى الهند، وعلى هذاحفلت المستعمرات الإنجليزية بجماعات من الإسماعيلية والأحمدية، وراح هؤلاء وأولئك يدعون إلى الإسلام كما يرونه، لكن الملاحظ أن الإسلام قد انتشر دون انحرافات تذكر وذلك لأن طبيعة الأفريقيين أنهم لا يقبلون الخلافات ولا الفرق والمذاهب، ولهذا بقى الإسلام فى نقائه وصفائه.

الطرق الصوفية:

التصوّف أصله من الزهادة والانصراف للعبادة، من غير أن ينقطع عن أسباب الحياة أو طلب الرزق، وقد دخل الإسلام من عدّة مسالك:

أوّلها: وجود الزهادة والزهد فى الحياة ومتعها، مكتفيًا بالحلال منها، وذلك أعلى الزهد، فقد قال الإمام أحمد - رضى الله عنه - مجيبًا من سأله عن الزهد فقال: هو طلب الحلال والاقتصاد عليه، ومن الزاهدين من اتّجهوا إلى الحرمان، وفهموا أن قطع النفوس عن الملاذّ حلال، وحرمانها هو فطم النفس، وهو الزهد ، ولكن هذا الفهم قد نهى النبى والقرآن عنه، فقد قال تعالى: ﴿يأيها الذين آمنوا لا تحرِّموا طيّبات ما أحلّ الله لكم﴾[1].

وثانيها: فلسفة هندية، تقوم على رياضة النفس على التحمّل والانقطاع عن الملاذ.

وثالثها: ما كان يظهر من بعض الديانات من الحرمان، وسرى إلى المسلمين من بعض الديانات القديمة، مع أن الإسلام نهى عن الرهبانية، لأنها من ابتداع النصارى كما قال تعالى: ﴿وقفّينا بعيسى

(١) سورة المائدة الآية ٨٧.

ابن مريم وآتيناه الإنجيل، وجعلنا فى قلوب الذين اتّبعوه رأفة ورحمة ورهبانيةً ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلاّ ابتغاء رضوان الله، فما رعوْها حق رعايتها، فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم، وكثيرٌ منهم فاسقون﴾[1].

وقد مرّت بعض مبادئ الرهبانية إليهم من بقايا الديانات القديمة التى تأثّرت بها نفوسهم.

ولقد قيل: إن الصوفية هى اتّباع لأهل الصفّة الذين كانوا يعيشون فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم فى عهد الصحابة، لا مأوى لهم غيره، ولا ملجأ لهم سواه.

ومهما يكن مصدر الصوفية، وسبب شيوعها بين المسلمين، فإننا نجد فيها تصفية للنفوس، وليست نوعًا من التشبه بالرهبنة، فأهل التصوّف يتزوّجون ولا ينقطعون عن الدنيا انقطاع الراهبين، وفى الحق أن الصوفية لها جانبان: جانب الخير وهو الاتجاه إلى الله والاستجابة له، وأن يكون قلب المؤمن عامرًا بالإيمان، ذاكرًا الله تعالى دائمًا، مشرقًا بنوره، يطلب من الدنيا مايقوى به على عبادة الله تعالى وطلب ما عنده فى الآخرة، فلا ينصرفون عن الدنيا ولكن يطلبونها على أن خيرها مطيّة الآخرة وطريقها.

---

(١) سورة الحديد الآية ٢٧.

والجانب الثانى وهو ظاهر فى بعض المتصوّفة، وهو الانقطاع عن الدنيا، وذلك وجه لا يريده الإسلام، ويظهر ذلك فى الانصراف إلى الذكر الذى يكون معه حركات.

ومهما يكن نوع التصوف وغايته، فإنه وجدت جماعات صوفية، يرأس كل جماعة شيخ من شيوخ العلم والتصوّف، والجهاد فى سبيل الله، فتعدّدت الطرق الصوفية، وكل واحدة تتبع شيخًا جديرًا بالاقتداء، وله فى الإسلام والدعوة إليه فضل وذكر، فالشيخ عبد القادر الجيلانى له علم غزير، وإرشاد وتوجيه وحكمة، وإبراهيم الدسوقى له علم مدوّن، وتوجيهات شديدة فى التقوى والزهادة، وأحمد البدوى له مواقف جهاد فى الحروب الصليبية، وله توجيهات قوية، والسيد أحمد الرفاعى من أهل العلم والتوجيه والإرشاد. وأحمد التيجانى له فضل كبير والسيد محمد بن على السنوسى له فضل علميّ وعمليّ وتوجيهى فى الإسلام، ودعوته إلى الإسلام هو والتيجانى نشرت الإسلام فى غرب أفريقية ووسطها وجنوبها، كما كان للجيلانية أثرها الواضح فى شرقيها، وإذا كان إسلام شرق أفريقية شارك فيه مع الصوفية الحضارية العرب والتجار فإن إسلام وسط أفريقية وغربها، للجيلانية والتيجانية والسنوسية فضل عظيم فى نشر الإسلام..

مصادر التصوف:

نشأ التصوّف روحيًا، وإن كان أخذ عند بعض الناس مسلكًا شكليًا، ولقد نشأ التصوّف من ينبوعين صافيين:

أوّلهما: هو انصراف بعض العباد المسلمين إلى الزهد فى الدنيا والانقطاع للعبادة، وقد ابتدأ ذلك فى عصر النبى صلى الله عليه وسلم، فكان من الصحابة من اعتزم أن يقوم الليل متهجِّدًا ولا ينام - ومنهم من يصوم ولا يفطر، ومنهم من انقطع عن النساء، فلما بلغ أمرهم النبي قال: «ما بال أقوام يقولون كذا وكذا، لكنى أصوم وأفطر، وأصلى وأنام، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتى فليس منى». ولقد نهى عن الرهبنة بمعنى الانصراف عن الدنيا فقال: «رهبانية أمتى: الجهاد».

وبذلك بيّن النبى معنى الزهد، وهو طلب الحلال، وألّا يحرّم ما أحلّ الله.

ولكن بعد أن انتقل الرسول إلى الرفيق الأعلى، ومضى عصر الصحابة والتابعين دخل فى الإسلام من كان فى نفوسهم تأثّر بالمذاهب القديمة، الذين كانوا يحسبون تعذيب الجسم لتقوية الروح نوعًا من العبادة، ولكن هذه الأفكار قد لفظتها المبادئ الإسلامية، وبقى معنى الزهد الذى قرّره الإمام أحمد - فيما أسلفنا من قوله: «الزهد: الاقتصار على الحلال».

وبالجمع بين هدى النبى صلى الله عليه وسلم وما جاء من منازع تجارب الحلال كان التصوف الإسلامى الذى لا يقطع عن الحياة، ويربى الروح والقلب، ويوجّهها إلى الله تعالى، وكان المزج الكامل بين متعة الحلال وفطْم النفس عن الشهوات هذا الينبوع إسلامى خالص.

والينبوع الثانى: للتصوّف وهو ليس إسلاميا، وإن تلاقى فى بعض نواحيه مع الأخلاق الإسلامية[1] التى ردّ عليها القرآن والسنّة وما كان عليه الصحابة، وذلك الينبوع هو ما سرى إلى المسلمين متأخرًا من فكرتين: الأولى فلسفية، والثانية من الأديان القديمة كالنصارى وغيرهم.

والنظرة الأولى لهذه الفكرة ترينا أنها بعيدة عن الإسلام ونبرئ التصوف الإسلامى منها تبرئة مطلقة.

وإن صوفية الإسلام يلتقى فيها أمران: أحدهما الإشراق، والثانى الشوق إلى الله تعالى ومحبّته، والمحبّة قدر مشترك بين الصوفية المسلمين أجمعين كالإشراق، وقد راض بعضهم نفسه على المحبّة، واتّخذ منها سبيلاً للاتصال بالله تعالى، وذلك نوع ليس فيه حلول، وليس فيه ما يسمّى بوحدة الوجود.

---

(١) منذ ظهور محيى الدين بن عربى ومدرسته، ويسمى فى اصطلاح المؤرخين للتصوف: بالتصوف البدعى، مقابلة له بالنوع الأوّل وهو التصوّف السنى.

تأثير الصوفية فى غيرهم:

الدعاية الصوفية تقوم على أمرين:

أحدهما: القدوة والاختلاط، والأخلاق الإسلامية والتسامح والرفق فى المعاملة والمثل الطيبة فى المعاملة الحسنة، وذلك أن أئمة الصوفية كانوا على أخلاق إسلامية طيبة، وكانوا على سماحة تدنى البعيد، وتثبت القريب.

وبهذه الأخلاق التى سرت إلى بعض مريديهم وأتباعهم، كانوا يجذبون إلى الإسلام طوائف من غير المسلمين الذين يختلطون بهم، فإن المعاملة الحسنة، والاختلاط الذى يكون بعشرة طيبة يجذب النفوس وتسرى بها العقائد الفاضلة، وقد كان هؤلاء الأفراد من المتصوّفة تصوفًا حقيقيا يختلطون بأهل أفريقية الوثنيين والمجوس والوثنيين فى آسيا، فيؤثّرون بمعاملتهم وبسعة صدرهم وعقولهم.

الثانى: من الأمور التى كانت تقوم بها الدعاية الصوفية: مجالس الوعظ التى كان يعقدها الأئمة من الأقطاب، فقد كانت مجالس عامة يحضرها المسلمون ويحضر فيها غير المسلمين فيتبعون الشيخ فى مواعظه، ثم يعلو الأتباع حتى يتبعوه فى عقيدة التوحيد، وكان من هؤلاء من له ثقافة إسلامية واسعة، وعلْم بالإسلام أصوله وفروعه، كعبد القادر الچيلانى الذى عاش فى القرن الخامس والسادس

الهجرى من ٤٧٠ إلى ٥٦١ هجرية، فقد كان عالمًا بالأصول والفروع والحديث روايةً ودراية، وقد جلس للوعظ أربعين سنة، فقد ابتدأ واعظًا من سنة ٥٢١ هجرية ومفتيًا من سنة ٥٣٦ هجرية إلى أن قبضه الله تعالى، وكأن منصب الإفتاء كان فى نظره أعلى من منصب الوعظ لأنه ما تصدّى للإفتاء إلّا بعد الستين.

وقد كانت تعقد مجالس وعظه، وتكون موعظة عامة لا يمنع منها أحد، ولا يمنع من الحضور فيها أحد، فكان يدخل اليهودى والنصرانى والمجوسى والوثنى وقيل: إن مجلسه كان يحضره نحو أربعة آلاف، وما كان المجلس ينفض إلا على إسلام كثيرين، ومنهم من كان يحضر إليه طالبًا الهداية فيسلم على يديه.

وقد جاء فى كتاب (قلائد الجواهر فى مناقب عبد القادر) أنه أتاه فى مرّة ثلاثة عشر رجلاً من النصارى، وأسلموا على يديه فى مجلس وعظه، وقالوا: «نحن من نصارى العرب، وأردنا الإسلام، وتردّدنا فيمن نقصده لنسلم على يديه، فهتف بنا هاتف نسمع كلامه ولا نرى شخصه: أيها الركب ذو الفلاح ائتوا بغداد، وأسلموا على يد الشيخ عبد القادر، فإنه يوضع فى قلوبكم ببركته ما لم يوضع فيها عند غيره من سائر الناس» لقد كان القطب عبد القادر مربّيًا لنفوس مريديه وداعيًا إلى الحق والهداية، ومن هذا الجانب دخل فى الإسلام على يديه الكثيرون، لطهارته وإخلاصه وحسن دعوته..

الطرق الصوفية التى نشرت الإسلام فى أفريقية:

يرجع الفضل الأكبر فى نشر الإسلام بين قبائل الزنوج فى أفريقية منذ القرن الثامن عشر إلى نشاط الدعاة من أرباب الطرق الصوفية، وقد وجد فيه الزنوج الطمأنينة بفضل نظامه الاجتماعى، وما يتمتّعون فى ظلّه من يسْر وأمن فى أسفارهم للتجارة، كما أنه لم يحمّلهم من الشعائر الدينية إلاّ أداء الفرائض اليسيرة، ثم إنهم وجدوا فى شيخ الطريقة إمامًا مزوّدًا بقوى علوية، وفى حلقات الذكر تجلّيًا وتساميًا روحيا، كما أنه أشبع نزعتهم الطائفية التى تبعث فى نفوسهم فى وقت واحد طمأنينة وحمية، غير أن التعصّب لمذهب أو طريقة ما، كان سببًا فى مشاكل خطيرة تحوّلت حينًا ما إلى حروب طاحنة[1].

ويلاحظ أن الطرق الصوفية تزدهر وتنمو معها حلقات الذكر أو ما يسمى «الحضرة» فى البيئات التى يوجد بها فراغ روحى، حيث لا تستغرق الأعمال أوقات الناس.

فى مثل هذه البيئات يوجد المتصوّفة، ويوجد الدراويش الذين يصفهم الخوارزمى[2] بقوله: «إن الواحد منهم خفيف الظل من كل

(١) الديانات فى أفريقية السوداء: روبير ديشان ص١٣٤.

(٢) رسائل الخوارزمى ص٩٠.

حق، منفكّ الرقبة من كل رق، لا يلزمه أداء الزكاة، ولا تتوجه إليه غوائل النائبات، ولا يستبطئه إخوانه، ولا يطمع فيه جيرانه، ولا تنتظر منه فى الفطر صدقة، ولا فى العيد أضحية، فهو كالمسجد يحمل إليه، ولايحمل عليه ويؤخذ بيديه، ولا يؤخذ من يديه، فهو إمّا غانم أو سالم» إلّا أن هذا التصوّر من الخوارزمى للصوفية ربما كان لجماعات كانت موجودة فى عصره تعيش عالةً على غيرها، لأن كثيرًا من الصوفية يغلب عليهم الجود، ومن شأن التصوف أن يربى أبناءه على البذل والعطاء، وهو ما يشاهد منهم ويلاحظ فى علاقاتهم ببعضهم وبغيرهم من الناس.

وقد كانت الطرق الصوفية واسعة الانتشار فى مصر وفى سواها من البلاد الإسلامية حتى مطلع هذا القرن، وكانت أكثر ازدهارًا فى الأماكن التى ينطبق عليها الوصف السابق، أى وجود الفراغ الروحى، فمن الطبيعى إذن أن تزدهر الطرق الصوفية فى أفريقية، حيث بساطة الحياة وفراغ الوقت، وحيث أفاقت القارة من الوثنية، ومن عبادة الأنهار، والأشجار، والأشخاص، وأخذت تتطلع إلى ما يملأ فراغها الروحى، فوجد الناس فى التجمّع حول الشيخ وفى الانضمام لحلقات الذكر، ما يشبع هذا الظمأ ويسدّ هذه الحاجة.

وطالما جذبت الطرق الصوفية إلى الإسلام جموعًا أفريقية، فقد كان الشيخ ومريدوه ينزلون على القبيلة ويقيمون بها حلقات الذكر

وينشدون الأناشيد والتراتيل الدينية، والشيخ تكسوه حالة من وقار، والمريدون يبرزون له أسمى الطاعة والولاء، يتلمّسون منه البركة والدعوات الصالحات، وطالما شاع الاعتقاد بأن للشيخ كرامات واسعة، يلعب الخيال بها، فيصل إلى فكّ العانى وشفاء المريض وإزالة العقم، وكان الناس يتناقلون هذه الشائعات ويضيفون إليها، فتتوافد على الشيوخ جموع الوافدين الراغبين فى دخول الدين والانضمام للمريدين.

وهكذا كان للطرق الصوفية مجال غير المجالات التى كانت للمهاجرين والتجار المسلمين، فإذا كان التجّار ينزلون المدن فإن رجال الطرق الصوفية يميلون للقرى والنجوع، وإذا كان التجّار يسعون للربح فرجال الطرق الصوفية لا يكترثون بالمال، ولا يسعون إلاّ للكفاف، ومن هنا كان المريد يلقّب بالفقير، وإذا كان نشاط المهاجر ونشاط التاجر يغلب أن يكون بالنهار، فإن نشاط الطرق الصوفية يرتبط بالليل، ولهدوء الليل سحر وجلال، وجمهور الليل أوفر ومريدوه أكثر، و «حضرة» الذاكرين تشدّ لها الحاضر، وتقرّب لها البعيد، وفى هدأة الليل تغمر أصوات الذاكرين النجع كله فيهرع الجميع إلى حلقة الذكر من شيب وشبّان ورجال ونساء، بل ربما انتقلوا مع الشيخ من نجع إلى نجع، ومن قرية إلى قرية[1] وقبل

---

(١) موسوعة التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية جزء ٦ ص ٢٠٩ د. أحمد شلبى.

ن نتكلم عن الطرق الصوفية بأفريقية نذكر أنها فى الغالب حافظت لى النهج الإسلامى السليم، ولم يكن فى أصولها بدع أو خرافات، فد سئل مؤسس التيجانية سؤالاً مهمًا هو: أيكذب عليك؟ فقال: بم، إذا سمعتم عنى شيئًا فزنوه بميزان الشرع، فما وافق الشرع إعملوا به، وما لم يوافق فهو كذب علىّ يتحتّم أن تتركوه.

وأشهر الطرق الصوفية التى نشرت الإسلام بأفريقية ثلاث هى: لقادرية، والتيجانية، والسنوسية وقد انتشرت هذه الطرق فى القطاع لأفريقى، وكانت القادرية والتيجانية، أوسع انتشارًا فى النصف لغربى من القارة، والسنوسية أوسع نشاطًا فى النصف الشرقى، مع نتشار القادرية فى شرق أفريقية، كما توجد الأحمدية والشاذلية..

والطرق التى لها انتشار كبير هى:

١ - الطريقة القادرية:

ومؤسّس هذه الطريقة هو الشيخ عبد القادر الجيلانى من أشهر جال الصوفية، ويعرف بالقطب الجيلانى، وهو أحد الأقطاب الأربعة: الرفاعى، والجيلانى، والبدوى، والدسوقى، ولد بجيلان سنة ٤٧١ هـ(١٠٧٧م) ونشأ بها وانتقل إلى بغداد سنة ٤٨٨هـ ١٠٩٥م) وهناك تتلمذ على كبار الشيوخ وتفقّه على أبى سعيد لمحرمى، وأجاد الفقه والأدب، واشتغل بالوعظ والتعليم، ثم مال للتصوف ولجأ للخلوة ومجاهدة النفس، وعزف عن ضجيج المدن

فاتجه إلى الصحراء، وكان له مريدون كثيرون نهجوا نهجه وساروا سيرته.. وعُرف الجيلانى بالتسامح الدينى وحبّ الجار، والبعد عن الترف وملذّات الحياة، ومن تسامحه الدينى أنه كان إذا ذكر أهل الكتاب لم يزد عن أن يعبّر عن حسرته لانحرافهم عن طريق النور، ويدعو الله أن يهديهم سواء السبيل، ومن حبّه للجار أنه كان لا ينعم بطعام أو مال دون جيرانه، فكان يوزع عليهم كل ما يرد إليه من الهدايا والأموال، ويدعوهم إلى مشاركة طعامه، كلما لذّ له هذا الطعام، وكان عزوفه عن الغنى سببًا فى أن يعيش فقيرًا، على الرغم من أن الملوك والسلاطين كانوا يتقرّبون إليه بالهدايا والأموال، ولكنه كان يوزعها فى الحال على الحاضرين وعلى الجيران والمريدين، وأكثر أتباع عبد القادر الجيلانى ساروا على هذا النمط من خلق أستاذهم وكان هذا هو السبب فى انتشار القادرية وكثرة أتباعها، وتوفى الجيلانى سنة ٥٦١ هـ. (١١٦٦ م) ببغداد، وله بها ضريح ومزار يعتبر من أهم مشاهد المدينة، وكثير من الافارقة الذين ينتسبون إلى الطريقة القادرية يسافرون من بلادهم لزيارة ضريحه، وكثير منهم يذهب لزيارته بعد أداء فريضة الحج إن كان قد توجّه لأدائها.

وقد كتب فى التصوّف كتبًا من أهمها «فتوح الغيب» و«الفيوضات الربانية» وقد انتشرت طريقته فى العراق واليمن والصومال والهند وتركيا ومصر والمغرب وغربى أفريقية ووسطها، وكان للقادرية أسلوبها فى هداية الناس للإسلام بأفريقية.

إنهم لم يكتفوا بما عرف عن الطرق الصوفية من حلقات ذكر وتراتيل، بل اتجهوا وجهات مختلفة قربتهم من الجماهير ونشرت الدعوة الإسلامية، فكثير منهم جلسوا معلّمين للصبية، وتفقّه بعضهم فى الدين، فأصبحوا علماء وخطباء وكتابًا، واتجه بعضهم إلى كتابة التمائم والتعاويذ، أما أغنياؤهم فاتجهوا إلى الشبان يختارون أذكاهم، ويرسلونهم إلى مراكز الثقافة بالشمال ليتزود هؤلاء بالعلم، وليعودوا قادةً بين أهلهم، وفتح الأغنياء كذلك المدارس للطلاب، ولما جاء القرن التاسع عشر كانت السيطرة الروحية والفكرية تامّة لجماعات القادرية فى أكثر نواحى أفريقية الغربية، وعلى يد رجال القادرية تحوّل الدخول للإسلام من حالات فردية إلى حالات جماعية، ومن أشهر قادة القادرية فى أفريقية سيدى أحمد البكاى.

وقد عمل على نشر دعوته فى الجزء الغربى من الصحراء الكبرى، وتعرف طريقته بالطريقة البكائية، وقد ازدهرت فى أفريقية حتى سنة ١٨٥٠. ولمنهم محمد بن عبد الكريم التلمسانى، الذى اتّجه بجهوده إلى الجزء الأوسط من الصحراء وإلى بلاد الهوسا، والشيخ السيد التأرازى الذى عمل على نشر القادرية فى جامبيا وغينيا البرتغالية وليبريا وساحل الذهب، والشيخ سيدى بابا فى مطلع القرن العشرين، وكان عالمًا وأديبًا واسع الفكر، عمل على القضاء على كثير من البدع والخرافات التى تفشّت بين المسلمين، وفى التاريخ المعاصر انتهى الإشراف على القادرية إلى يد الشيخ

عبد الله بن الشيخ سيدى، ويتخذ من موريتانيا مقرًّا له وله فى الحياة السياسية دور كبير بهذه البلاد[1].

والصومال تنتشر فيها الطريقة القادرية، وبها طرق أخرى لكن أوسعها انتشارًا هى القادرية.

ومن الطرق الأخرى الموجودة فى الصومال:

الطريقة الأحمدية:

ويقال لها الإدريسية أسسها «سيد أحمد بن إدريس الفاس» المتوفى فى بلاد عسير بالسعودية سنة ١٨٣٧ م. وله مؤلّف عنوانه «كنوز الجواهر النورانية فى قواعد الطريقة الشاذلية».

وقد أدخل هذه الطريقة إلى شرق أفريقية الشيخ «على ميه درجيا» الصومالى وقد جعل وقته كله لنشرها فى الصومال، وقد ذاعت هذه الطريقة لما كان يتصف به هذا الشيخ من صلاح وتقوى وزهد وإخلاص، والتفّ حوله عدد كبير من المريدين وبخاصة من سكان وادى شبيللى الأوسط، وتوفى فى مدينة «مركة» سنة ١٩١٧. ودفن فيها، وأتباع هذه الطريقة يتركزون فى مقديشيو وبورهكبة..

---

(١) د. عبد الرحمن زكى: الإسلام والمسلمون فى غرب أفريقية جزء أول.

الطريقة الصالحية:

وتنسب إلى محمد بن صالح، وهو ابن أخ إبراهيم الرشيد أحد تلاميذ أحمد بن إدريس «مؤسّس الطريقة الأحمدية». وقد توفى محمد ابن صالح عام١٩١٩ وقام بنشر طريقته الشيخ محمد جوليد أحد تلاميذه، وكان الشيخ محمد بن صالح قد عيّنه خليفةً على الطريقة فى الصومال، وقد أسّس الشيخ جوليد زاويةً ومركز استيطان للطريقة فى منطقة تقع ما بين بلدتى «جوهر» و «بلعد» على نهر شبيللى، ومن أشهر مشايخ هذه الطريقة الشيخ «على نيروبى» الذى أسّس مركزًا لها فى جنوب بلدة «برديرة» ويلاحظ أن الطرق فى الصومال لا يتوارث أبناء مشايخها آباءهم فى الطريقة كما هو سائد فى كثير من البلاد، وفى مصر كذلك ولو كان الابن.. ليست له ثقافة دينية، ولكن يرث الطريقة أحد التلاميذ الذين يتميّزون بالعلم والمعرفة وقوّة التمسّك بتعاليمها، وعلى هذا لا توجد بيوت يتوارث الأبناء منها الطريقة الصوفية عن الآباء..

وأتباع الطريقة الصالحية فى الإقليم الشمالى من الجمهورية الصومالية لهم سياسة وحكمة وفيهم تعصّب شديد لعقيدتهم، ومن شيوخها الكبار الشيخ عثمان عمر، وله مكانة مرموقة فى نفوس مريديه.

ومن أبرز أتباع هذه الطريقة رائد القومية الصومالية «محمد عبدالله حسن» مهدى الصومال الذى أعلن الثورة فى وجه الاستعمار فى الربع الأول من القرن العشرين، والسيد محمد يوسف الذى ثار ضدّ الحبشة ودخل معها معارك ضارية عام ١٩١٧م. وتنتشر الطريقة الصالحية بين سكان المنطقة الواقعة بين مديرية مجريتنيا وبين الصومال الشمالى، كما تنتشر فى الأوجادين، وفى بعض المناطق جنوب الصومال.

الطريقة الرفاعية:

وأتباعها غير كثيرين فى الصومال، وأغلبهم من العرب المستوطنين، ومن أشهر شيوخها الشريف العيدروس العلوى من العرب القدامى فى الإقليم الجنوبى وهو أوّل من أقام احتفالاً كبيراً بذكرى المولد النبوى الشريف.

الدندرية:

وتنسب هذه الطريقة إلى والد الشيخ أبى العباس الدندرى من أهل دندرة بصعيد مصر، وله أتباع فى الإقليم الشمالى ما بين بربرة وأودوين وشيخ وهرجيسة.

الميرغنية:

وتسمى بالختمية، وقد أدخلها إلى الصومال الشيخ رمضان المصوعى، ومن بعده جاء الشيخ نور حسين المصوّعى.

٢ - الطريقة التيجانية:

وتنسب إلى أبى العباس أحمد بن محمد بن المختار، وهو فقيه مغربى ولد بقرية عين ماضى بالجزائر عام ١١٥٠ هـ(١٧٣٧م) ودرس العلوم الدينية بمدينة فاس ثم انتقل إلى تلمسان، وفى عام ١١٨١ هـ(١٧٦٨م). خرج إلى الحجاز لأداء فريضة الحج، وعند عودته إلى بلاده أمضى فترة من الزمن بالقاهرة، وقد غلب الاتجاه التصوّفى على فكره فانضم للطريقة الخلوتية التى تنسب إلى كريم الدين الخلوتى الصوفى المصرى المتوفى سنة ١٥٧٨ م. ولكن التيجانى سرعان ما اتخذ لنفسه اتجاهًا جديدًا ضمن الطريقة الخلوتية، ممّا يجعل بعض الباحثين يرى أن الطريقة التيجانية فرع من الخلوتية، وقد اتّخذ التيجانى من مدينة فاس مقرًّا له ينشر منه طريقته الجديدة، فتبعه عدد كبير من المريدين أطلق عليهم «الأحباب» وعندما توفى سنة ١٨١٨ م. كانت الطريقة التيجانية قد استقرّت وعلا شأنها ببلاد المغرب، وبعد وفاة التيجانى قام ابناه محمد الكبير ومحمد الصغير بنشر دعوته بمعونة اثنين من أكبر مريدى الشيخ، وهما الشيخ محمود

ابن على التونسى والحاج على بن عيسى، وانتقل مركز الدعوة إلى قرية عين ماضى مسقط رأس صاحب الطريقة، وقد وجدت هذه الطريقة لها أنصارًا عديدين فى الصحراء الكبرى وغربى أفريقية ووسطها، وقد كان السيد أحمد التيجانى ومن جاء بعده لا يقتصرون فى تعاليمهم على بث التصوف والزهادة الروحية، بل يجتازون إلى أفريقية السوداء يبثّون فيها الإسلام ويربونهم، كانوا يعلّمون الزنوج الإسلام، وينشئون لهم معاهد تدرّس الإسلام، ويأخذون بعض الأفريقيين إلى المغرب الأقصى يعلمونهم مبادئ الإسلام، ثم يرجعونهم إلى أقوامهم دعاةً ومدرّسين فى المعاهد التى أنشئوها، وقد استمروا على ذلك حتى انتشر الإسلام فى غرب أفريقية ووسطها حتى إنك ترى الكثرة الكاثرة فى ساحل الذهب وساحل العاج وغانا وغينيا والسنغال والكنغو ونيجيريا من المسلمين الأقوياء فى تديّنهم وإن كان فيهم جهل يحتاجون معه إلى من يعرّفهم بالأحكام الإسلامية بإجمالها وتفصيلها وفروعها وكلّياتها.

ولما استعمرت أوربا أفريقية، وأرسلت لها المبشرين فرادى وجماعات لم تستطع تنصيرهم، ولم يستطيعوا أن يهضموا بعقلهم الفطرى المستقيم المعانى التى يدعو إليها نصارى هذا الزمان، ولكن الأوربيين جعلوا حكّامهم من غير المسلمين، ولا يزالون بعد أن خلعوا نير الاستعمار من فوق رقابهم يتعاطفون مع الأجانب خصوصًا الذين كانوا يستعمرونهم. والحبشة كثرتها الساحقة مسلمة.

بالدعوة الحضرمية، ولكن حكامهم يحولون بينهم وبين العلْم، لا يمكنون منه إلّا غير المسلمين، ليقتل الجهل المسلمين، مع أن الإسلام دين العلم.

وتتميّز الطريقة التيجانية بتزمتها وشدّة مناوأتها للوثنية، ومناهضتها للطرق الصوفية الأخرى روى التيجانى أنه رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المنام وأنه أخذ تلك الطريقة عنه، وقد فرض على أتباعه أن ينفردوا بصلاتهم عن بقية الجماعات الإسلامية، ولهم مسبحة خاصة بهم، تتوسّطها خرزة تفصل الاثنتى عشرة حبّة الأولى منها عن بقيّتها، وانتشرت هذه الطريقة انتشارًا واسعًا فى أفريقية السوداء وذلك أنها لا تتطلب من مريدها وقتًا طويلاً ولا مجهودًا فكريًّا[1].

٣ - الطريقة السنوسية:

تنسب السنوسية إلى السنوسى بن العربى جدّ مؤسّسها محمد بن على بن السنوسى وينتهى بنسبه إلى الأدارسة[2]. وقد ولد مؤسس السنوسية سنة ١٧٩٨م. فى بلدة مستغانم بالجزائر وتلقى بها مبادئ الدراسة، ثم رحل إلى فاس حيث التحق بجامعة القرويين،

---

(١) الديانات فى أفريقية السوداء: روبير ديشان ص١٣٥.

(٢) الطيب الأشهل: السنوسى الكبير ص٧.

ورحل بعد ذلك إلى الأزهر فتعلّم به وعلّم، ثم سافر إلى الحجاز حيث التقى بكبار المشايخ واستفاد بعلمهم وأعجب بالكثيرين منهم، وأدرك السنوسى حاجة الدعوة الإسلامية إلى الإصلاح فراح يعمل لذلك بحزم وإصرار. ووضع السنوسى مبادئ السنوسية، وتتلخّص فى أنه يرى أن الحدود السياسة بالعالم الإسلامى حدود مصطنعة، وأن حركة إصلاحية ينبغى أن تقوم بالعالم الإسلامى تتخطّى الحدود وتتجه إلى محاربة الانحراف والبدع، والعودة بالإسلام إلى اليسْر، والاعتماد على الكتاب والسنّة ومحاربة الزهد والخمول والاستجداء التى كانت طابع أغلب الطرق الصوفية، ومحاربة التضرع للأولياء والتبرّك بقبورهم، واعتمد السنوسى على نظام الزوايا ليصل أتباعه إلى الأهداف التى رسمها، وأنشأ الزاوية الأولى فى «أبى قبيس» بالقرب من مكّة المكرمة، ثم أتبعها بزوايا أخرى بالقرب من الطائف والمدينة المنوّرة وبدر وجدّة وينبع.

ثم أحسّ مؤسس السنوسية أن أفريقية أولى بحركته، فغادر الحجاز إلى مصر ثم إلى طرابلس، وفى سنة ١٨٤٣ أنشأ الزاوية البيضاء فى الجبل الأخضر ثم نقل مركز الدعوة إلى واحة الجغبوب سنة١٨٥٦، وقد استلزم انتقال الدعوة إلى أفريقية أن يضم إلى مبادئها مبدأ جديدًا ذلك هو نشر الإسلام بين الوثنيين بأفريقية لهدايتهم إلى الخير من جهة، ولمواجهة حركة التبشير المسيحية التى كانت آن ذاك تغزو أفريقية من جهة أخرى.

وضمّت الزوايا مئات بل آلافًا من الشخصيات التى تنتمى إلى أقطار وجنسيات مختلفة، ويجمعها كلها دين الإسلام، والحماسة لخدمته ونشره، وهكذا انتقلت السنوسية من حركة إصلاح داخلية فى الإسلام نفسه تضم إلى ذلك حركةً لنشر تعاليم الدعوة، وأصبحت عدّة قبائل أفريقية كانت وثنية أو مسلمة إسلامًا اسميا، أصبحت من أتباع الإسلام المتحمسين له منذ أن حلّ فيهم من قبل دعاة السنوسية، وللسنوسية نفوذ كبير فى بلاد واداى «والجلا» وحول بحيرة تشاد وفى بلاد كانم وباجرمى ودارفور، وعلى العموم كانت السنوسية تنتشر فى المنطقة المحصورة بين ساحل البحر وحوض النيجر وينشرون زواياهم فى واحات هذه الأجزاء[١].

وكانت أولى ثمرات هذه الزوايا - خصوصًا بين الوثنيين - ذيوع الدين الإسلامى فى قلب تلك القارة المظلمة، ونجحت تلك الدعوة السنوسية فى هذه الجهات، لدرجة أن صارت جمعيات المبشرين الأوربية المنبعثة فى القارة الأفريقية كلها، تجد فى الدعوة إلى الإسلام من السنوسيين خصمًا عنيدًا لا قِبَل لها بالتغلّب عليه، مع ما أوتيت من مال وقوّة دولية[٢].

كان كبير السنوسيين يرسل إلى الزوايا، وينقلون القوافل

---

(١) د. زاهر رياض: استعمار أفريقية ص ١٥٩.

(٢) د. محمود فؤاد شكرى: السنوسية دين ودولة.

والسائرين فى الصحراء، يدعونهم إلى الله آمرين بالمعروف، ناهين عن المنكر، هادين الوثنيين، حتى تكوّن من عمل هؤلاء وعمل من سبقوهم من التيجانية دول إسلامية أكثرها مسلمون.

ولقد خشى المتعصبون من الأوربيين من نجاح هذه الطريقة فحاربوا السنوسيين، ودسّوا بينهم وبين الدولة العثمانية التى كانت تلك البلاد تابعة لها أو خاضعة لنفوذها.

ولكنهم كانوا ماضين فى بثٍّ الإسلام فى نفوس الأفريقيين وإن ضجّ منهم المبشرون، وضاقوا ذرعًا بهم، إذ وجدت الإرساليات التبشيرية فى السنوسيين خصوما أقوياء، وقد أفسدوا عليهم دعاياتهم، ومعلوم لمؤرّخى العصور الحديثة أن التبشير نذير الإستعمار يتقدّمه ويقوّيه ولذلك أحسّت الدول التى باشرت استعمار أفريقية كفرنسا وإيطاليا وإنجلترا بخطر الدعوة الإسلامية ونشرها على مطامعهم المتعصّبة على الإسلام، وإن ظهرت بغير ما تخفى، ولذلك حاربت السنوسية أو حاربت فيها الدعوة إلى الإسلام، بكل الطرق سواء أكانت مشروعة فى قانون الأخلاق أو غير مشروعة، وقد اتّجهت الدعوة السنوسية إلى جنوب السودان، وكان آخر السنوسيين فى قوّة دعوته وإخلاصه، السيد أحمد الشريف السنوسى وكان قد رأى جنوب السودان وحاجته إلى الدعاة، فأرسل إليه الرسل من السنوسيين يدعون إلى الإسلام، حتى ضاق بهم ذرعًا

المندوب الإنجليزى - إذ ذاك - وهو اللورد كتشنر، فأرسل إلى السيد السنوسى يتضرع إليه أن يخفّف دعوته، ولولا حروب الطليان مع السنوسية فى ١٩١١ وسنة ١٩١٢ لحول الجنوب السودانى إلى مسلمين.

ولم يمت السنوسى سنة ١٨٥٩م. حتى كان قد نجح فى تأسيس دولة دينية وذلك بذكائه، واستخدام كل وسائل الترغيب فى نشر دعوته، ويدين أتباعه بالطاعة والولاء لهذه الدولة، ويلتزم أفراد هذه الجماعة القيام - بأوامر القرآن فى دقة بما يتفق وأكثر مبادئ التوحيد المطلق تلك المبادئ التى تجعل التعبّد لله وحده، وتحرّم التضرّع للأولياء وزيارة قبورهم تحريمًا قاطعًا، وقد أوجبوا على أنفسهم أن يمتنعوا عن شرب القهوة والتدخين، وأن يسهموا بنصيب معيّن من دخلهم يضاف إلى أموال الجماعة إذا لم يستطيعوا أن يكرّسوا أنفسهم لخدمتها، كما أوجبوا على أنفسهم أن يجندوا كلّ نشاطهم من أجل تقدّم الإسلام وأن يقاوموا فى الوقت نفسه أىّ لون من ألوان الخضوع للنفوذ الأوربى، ومع أن السنوسية كانت فى أوّل أمرها حركة إصلاح داخلية فى الإسلام نفسه، أصبحت إلى جانب ذلك حركة لنشر تعاليم الدعوة حتى أصبحت عدّة قبائل أفريقية كانت من قبل وثنية أو مسلمةً إسلامًا اسميًا بحتًا من أتباع الإسلام المتحمسين منذ أن حلّ فيهم دعاة السنوسية(١).

(١) د. حسن إبراهيم حسن: انتشار الإسلام فى القارة الأفريقية ص٤٧، ٤٨.

وفى ختام حديثنا عن الطرق الصوفية نذكر أنه من الشائع إسناد كثير من الفضل إلى الطرق الصوفية فى نشر الإسلام بأفريقية، ولكننا نقرّر حقيقةً أوضحتها الأرقام والتواريخ والتى تفيد أن نشاط هذه الطرق بأفريقية بدأ متأخرًا جدًا، ولم يتّضح إلاّ فى القرن التاسع عشر، لكن الدعاة المسلمين والمهاجرين والتجّار بدأ نشاطهم قبل ذلك بحوالى عشرة قرون، ومن هنا يمكن أن نقرّر حقيقة تاريخية هى أن دور الطرق الصوفية كان استمرارًا ولم يكن تأسيسًا[1].

لكننا نستطيع أن نقول إن التحول الإسلامى انتقل على يد الطرق الصوفية من حالات فردية إلى حالات جماعية، وأن الطرق الصوفية لم ترتبط بالخطوط التجارية والمسالك المعروفة والمدن الكبيرة، بل اندفعت إلى الناس فى القرى والنجوع هنا وهناك، وهى مآثر لا ينافسها سواها فى مجالها، إذن نستطيع أن نقرر أن الصوفية لم يكن دورها استمرارًا بل يعتبر تأسيسًا فى تلك المناطق النائية عن طرق التجار، وفى داخل البلاد التى دخلتها بعيدًا عن السواحل.. فأثرها فى نشر الإسلام والحفاظ عليه واضح بدليل الواقع، وحكم التاريخ..

---

(١) د. أحمد شلبى: موسوعة التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية جزء ٦ ص ٢١٩.

البَـابُ الثـانى

دراسة ميدانية معاصرة

دراسة ميدانية فى الصومال

امتدت الإمبراطورية المصرية فى عهد إسماعيل إلى الجنوب من البحر الأحمر فشملت الصومال، وجاء الاستعمار الغربى بعد أن أبعد عن الحكم إسماعيل واقتسم هذه الإمبراطورية، فكان الصومال من نصيب انجلترا وفرنسا وإيطاليا جميعًا.. ومن الموانئ الهامة التى وصل المصريون إليها ميناء زيلع، الذى يقع على خليج عدن، وكانت زيلع قبل الإسلام تابعة للحبشة[1]، ويذكر ابن حوقل أنها كانت ميناءً للعبور من هذه البقعة فى أفريقية إلى الحجاز واليمن[2]، ويسميها الإدريسيون «زالع»[3]، وقد انتشر فيها الإسلام منذ عهد مبكر، ربما يرجع إلى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، فقد كانت هجرات المسلمين إلى الحبشة تتصل بها ومن أشهر الذين هاجروا إليها ونشروا الإسلام بها بنو عقيل.

---

(١) ياقوت: معجم البلدان: ٤٣٥.

(٢) ابن حوقل: صورة الأرض ص ٦١.

(٣) صفة المغرب وأرض السودان ص:٣٥.

ومن تتبّع المراجع العربية يتّضح لنا خطوات تكاثر المسلمين فى هذه المنطقة، حتى أصبحوا الغالبية العظمى بها، فالمسعودى يتحدّث عن زيلع والدهلك وناصع، ذاكرًا أنها مدن فيها خلق كثير من المسلمين، إلّا أنهم فى ذمّة الحبشة[1]. ويقول أبو الفدا[2] ويجاور الحبشة من الجنوب «الزيلع» والغالب على سكانها دين الإسلام، أما عرب فقيه فيذكر عن زيلع أنها أصبحت عاصمة السلاطين المسلمين[3].

وهكذا يمكننا أن نقرر أن زيلع انتشر بها الإسلام منذ مطلعه، وظلّ ينتشر بها رويدًا رويدًا حتى غلب على أهلها، ثم تكوّنت بها سلطنة إسلامية سرعان ما امتدّ نفوذها. فلما جاء القرن الرابع عشر كان قد تم للمسلمين تأليف سبع ممالك زاهرة فى هذه المنطقة سميت «الطراز الإسلامى» لأن بعضها يقع على جانب البحر كالطراز له، ويعدّد المقريزى هذه الممالك السبع فيقول: إنها أوفات، ودوارو، وأرابينى، وهدية، وشرخا، وبالى، وداره، وأعظمها «أوفات» ويقال لها «جبرت»[4] وهى المجاورة لخليج عدن وتتبعها ميناء زيلع، وتتبعها كذلك إمارتان إسلاميتان صغيرتان هما «مورا» وميناء «عدال» إلى

(١) مروج الذهب ومعادن الجوهر جـ٢ ص١٨ - ١٩.

(٢) المختصر فى تاريخ البشر جـ١ ص٦٩.

(٣) فتوح الحبشة ص٥.

(٤) الإلمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الإسلام ص٦.

الغرب من ميناء زيلع. وقد تحول إلى ميناء زيلع كثير من النشاط التجارى الذى كان من قبل يتركّز فى منطقة مقديشيو. أما باقى ممالك الطراز الإسلامى فتتعمق بداخل القارة فى أرض الحبشة الحالية، وأكثرها تعمّقًا مملكتا هدية وأرابيني وتقربان من نهر سوباط..

وزيلع من قديم تتميز بوجود مجموعة من العلماء والمفكرين، أقاموا بها ينشرون الإسلام، ويتولّون كثيرًا من المناصب القضائية والإدارية، وفى قمّتهم الفقيه عبد الله الزيلعى، وهو الذى رأس سفارة إلى سلطان مصر الناصر محمد حوالى سنة ١٣٣٨م. ليساعد أهل زيلع فى صراعهم ضدّ الأحباش، وليعمل على حماية المسلمين فى هذه البقاع[١]. ومن علماء زيلع من وفد إلى القاهرة وأقام بها، ومن هؤلاء فخر الدين الزيلعى الذى وفد إلى مصر سنة ١٣٠٥ وجلس بها للتدريس والإفتاء على مذهب أبى حنيفة وله كتاب عنوانه «تبيين الحقائق فى فقه الحنفية» وهو شرح على كنز الدقائق للنسفى وتوفى فخر الدين سنة ١٣١٣. ومنهم جمال الدين الزيلعى، وقد وجّه اهتمامه لدارسة الأحاديث، واهتم اهتمامًا خاصًّا بتخريج الأحاديث الواردة فى تفسير الكشّاف للزمخشرى، وأحاديث الهداية فى فقه الشافعية، وألّف فى ذلك كتابًا عنوانه «نصب الراية فى تخريج أحاديث الهداية» وتوفى فى القاهرة سنة ١٣٦٠م.

---

(١) القلقشندى/صبح الأعشى جـ٥ ص٣٢٣.

ذكرنا هذا التاريخ لتلك المدن التى عمرت بالإسلام، وبالعلماء الذين بذلوا جهودًا ضخمة فى نشر التراث الإسلامى، وفى التآليف المختلفة فى العلوم الدينية، فإذا ما سألنا عنها الآن وجدناها قد وقعت تحت سيطرة الأحباش، وهى تمثّل المنطقة المتنازع عليها، وتدور من أجلها المعارك بين الصومال والحبشة. وأهل هذه البلاد ينتظرون اليوم الذى يتحرّرون فيه من سطوة الأحباش. وعودتهم إلى أصلهم الصومالى، ولقد كان إمبراطور الحبشة «هيلاسلاسى» مشهورًا بالتعصّب الدينى، ويحارب الإسلام فى أى مكان يوجد فيه مسلمون، ولهذا كان يشدّد قبضته على هذه المنطقة الإسلامية، وجاء النظام الثورى الحالى ولم يخفّف قبضته عنها، ولم يقل فى تعصبّه عن «هيلاسلاسى»، ولقد حاولت وأنا أعمل بالصومال أن أزور هذه المناطق فلم تصرِّح لى سلطات الأحباش، لأنهم يدركون مغزى هذه الزيارة من عالم مسلم ومصرى، وكيف يكون أثرها عند أبناء المنطقة.

لقد عملت فى الصومال ست سنوات، مبعوثًا للأزهر الشريف، وكنت شيخًا لمعهد الدراسات الإسلامية بمقديشيو ورئيسًا لبعثة الأزهر، ولم أترك إقليما من أقاليم الصومال إلاّ زرته، والتقيت بأهله وشاركتهم عاداتهم وتقاليدهم، ولمست عمق الإسلام فى قلوبهم، وحبّهم للعرب، وللغة العربية باعتبارها لغة القرآن الكريم، كما لمست حبّهم للأزهر الشريف ولعلماء الأزهر، وأذكر أننى فى

إحدى زيارات منطقة جوبا العليا جلست مع الأهالى فترة من الزمن، ولما حان موعد الانصراف وركبت السيارة وابتدأت تتحرك، رأيت رجلاً مسناً يتوكأ على عصا، وأقبل من بعيد مهرولاً تتعثّر خطاه وهو قادم وهو يشير إلى السيارة، فتوقّفت لأرى حال هذا الرجل الشيخ، وجاء وقال: لقد سمعت أنّ أحد مشايخ الأزهر جاء إلى منطقتنا فسارعت لأراه، وأخذ يضع يده على ملابسى الأزهرية كمن يتبرك بها، ويقول: الحمد لله الذى أطال فى عمرى حتى رأيت شيخاً من شيوخ الأزهر.

هذه صورة من صور تعلّق أبناء هذه البلاد بالأزهر الشريف، وصورة أخرى كنت أشاهدها كثيراً حينما يكون لبعض التجّار معاملات مع مصر، ويتأخر وصول ما يريدون استيراده، كانوا يأتون إلىّ ويقولون: اكتب لشيخ الأزهر ليأمر بتيسير أمورنا حتى ترد البضائع، إنهم يعتقدون أن شيخ الأزهر فى مصر يستطيع أن يصدر أوامره إلى مختلف الأجهزة دينية أو اقتصادية أو سياسية ليحقّق لإخوانه المسلمين ما يريدون... هذه المكانة يسّرت لنا أداء مهمتنا من موقع احترامهم وتقديرهم لنا، وثقتهم بأن كل ما نطالبهم به، أو نوجّههم إليه إنما هو خير لهم وللإسلام، وقد شاهدت بعد معركة العدوان الثلاثى عام ١٩٥٦ مدى الانفعال الذى يعيش فيه هذا الشعب، علماً بأنه لم يكن آنئذ قد استقل عن إيطاليا فى إقليمه الجنوبى ولا عن انجلترا فى إقليمه الشمالى، ورأيت رجلاً ذهب

يشترى جهاز راديو من حانوت بائع الأدوات الكهربائية، فجاء إليه بجهاز صغير، فسأله: هل يمكن لهذا الراديو أن يسمعنا صوت العرب؟ إننى لا أريد شراءه لشيء إلّا أن أسمع صوت العرب.. قارن بين هذه الثقة المتبادلة، والحب المبذول منهم للمصريين، ومن المصريين لهم وبين معاملة الأجانب لهم؟ إن المسيحية تدعو إلى المحبة والرحمة والسلام إلاّ أن المبشرين بها كانوا بعيدين عن هذه المبادئ السمحة، واستمع إلى هذه المناقشة التى حدثت بين أحد القساوسة ورجل أفريقى ملوّن:

«قال القسيس: «لابد من أن يكون الله أبيض، فهو لم يخلق اللون الأسود، فيما خلقه من ألوان النبات والأشجار والبحار، هل رأيت ثلجًا أسود؟ أو مطرًا أسود؟ أو بحرًا من الحبر؟ هل رأيت ملاكًا فى صورة سوداء؟ هل رأيت نبيًا أو رسولاً جاء من الجنس الأسود؟ إن كل هذا دليل على أن الله أبيض، وأنه اختار الشعوب البيضاء لتقود الحضارة الإنسانية»..

أولا: دراستي الميدانية للجانب الاقتصادي

١ - تمهيد:

المشكلة الاقتصادية موجودة فى كل ما يتّصل بحياتنا اليومية؛ لأن الإنسان يريد أن يتوفّر له قدر كبير من ضروريات الحياة، وتقوم المنازعات بين الأفراد وبعضهم مع بعض وبين الدول كذلك من أجل الحصول على أكبر نصيب من ناتج الأرض والوصول إلى أعلى مستوى من العيش الكريم، لكن هل تتيسر هذه الضروريات لجميع الناس؟ إننا لا نجد منها إلّا القدر المحدود الذى تحدّده الموارد الطبيعية فى بعض الأحيان - وتحدّده الموارد الإنسانية كمًّا وكيفًا فى أحيان أخرى، وتحدّده الموارد الآلية التى يخلقها الإنسان بمؤازرة الطبيعة فى أحيان ثالثة، هذا القدر المحدود من الطيبات يجعلنا نجيب إجابة سريعة عن هذا السؤال: لماذا يوجد الفقر المدقع؟ ولماذا يعيش كثير من الشعوب فى تخلّف مادّى، ولا يجدون لقمة الخبز إلّا بشقّ الأنفس وفى أفريقية بخاصة بينما تنعم بعض الدول بسعة من العيش وبالرخاء الزائد، وبالشبع الزائد إلى حدّ التخمة؟ يمكن أن نجيب بكلمة واحدة، وهى الضغوط الاستعمارية على هذه القارة

البكر التى تحمل فى بطونها ثروات لا حدّ لها، وهى لو وجدت الأيدى العاملة المدّربة تدريبًا دقيقًا، ولو وجدت العلماء الذين يخطّطون لاستغلال هذه الثروات لعاش أبناؤها فى نعيم ورفاهية. فأساس المشكلة - إذن هو عدم التكافؤ بين الثروات الكامنة وبين الأيدى العاملة، فلابد من بذل جهود مضاعفة، ويعتبر الاقتصاديون قدماؤهم ومحدثوهم أن بذل الجهود أو العمل هو أصل لكل الثروات المنتجة، أى الطيبات التى لا يمكن الحصول عليها بدون عناء... ولهذا نجد الأديان السماوية والإسلام بوجه خاص يحثّ على العمل والسعى فى الأرض والكدّ فيها،والقرآن الكريم يذكر عن أنبياء الله أنهم كانوا يعملون بأيديهم فى الإنتاج، والآيات الكريمة التى تدل على تسخير الأرض والبحر للإنسان تنبهه إلى استخراج ما فيهما من خيرات، وبهذا يؤكد الإسلام تكريمه للإنسان الذى ذكره ربنا تبارك وتعالى فى قوله: ﴿ولقد كرّمنا بنى آدم وحملناهم فى البرّ والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضّلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً﴾[١].

٢ - نشاط السكان:

يختلف نشاط السكان فى الصومال من مكان إلى آخر حسب طبيعة البلاد وموقعها، ففى المناطق الساحلية يشتغل السكان بالصيد والتجارة مع الأقطار المجاورة، وفى الداخل حيث المراعى يحترف

---

(١) سورة الإسراء آية: ٧٠.

السكان الرعى كما يقومون بجمع الصمغ واللبان والبخور، ويعتبر اللبان من أهم أركان الاقتصاد القومى فى المنطقة الشمالية وقد اشتهرت به منذ أيام المصريين القدماء، وتعتبر أكبر مصدر للّبان فى العالم إذ تنتج ما لا يقل عن ٦٠٪ من محصول اللبان فى العالم، وفى مناطق الأشجار يقومون بقطع الأخشاب وصيد الحيوانات للاستفادة بجلودها وأنيابها، وحول النهرين الرئيسيين[١] والآبار يشتغل السكان بالزراعة - أما الصناعة فبرغم توفّر عواملها إلّا أن النشاط فيها ضئيل.

والرعاة يكوّنون حوالى ٧٠٪ من مجموع السكان والزراع تصل نسبتهم إلى ١٤٪ أمّا الصنّاع وأرباب الحرف فيصلون إلى ١٢٪ ويأتى التجّار بعد ذلك فنسبتهم حوالى ٣٪ تقريبًا، أما صيادو السمك فلا تزيد نسبتهم على ١٪ من عدد السكان، وتقدّر ثروة الصومالى ومركزه الاجتماعى بعدد قطعان الحيوانات التى يملكها، ويحتل اللبن مركز الصدارة فى الغذاء اليومى للصوماليين، إلى جانب بعض دقيق الذرة المطبوخ وتسمى «جبشيشة» ومعها اللحم ثم القهوة المصنوعة من البن المقلى فى الزبد، والحيوانات الموجودة هناك والتى تكوّن الثروات لأصحابها هى الإبل والبقر والأغنام والماعز، ومع أن الظروف المواتية للزراعة فى الصومال متوفّرة إلّا أن التقدّم فى مجالها

---

(١) نهر جوبا ونهر شبيلى.

ضئيل ولعلّ السبب فى ذلك راجع إلى العوامل الآتية:

(ا) طباع السكان حيث يغلب عليهم الطبيعة الرعوية وهذا أمر طبيعى لما تمتاز به البلاد من ثروة حيوانية ضخمة.

(ب) قلّة عدد السكان بالنسبة لمساحة الأرض الصالحة للزراعة.

(جـ) عدم انتشار الآلات الزراعية البسيطة، فالصومالى لا يستخدم إلّا الفأس فى الزراعة ولو وجدت عندهم الساقية والمحراث والشادوف والنورج وما إلى ذلك من الآلات الزراعية البسيطة التى يستخدمها الفلاح المصرى بسهولة لكان للزراعة أثرها الكبير فى حياتهم..

علمًا بأن الإيطاليين فى الإقليم الجنوبى كانت لهم مزارع كبيرة واستخدموا فيها الوسائل الحديثة...

وأهم المحاصيل الزراعية: الموز - الذرة الشامية - الذرة الرفيعة - الفول السودانى - السمسم - قصب السكر - البصل - الفاكهة.

وتشمل كثيرًا من أنواع الفاكهة الاستوائية مثل المانجو والباباى وبعض أنواع الموالح مثل البومبامو (جريب فروت) كما يوجد هناك بكثرة جوز الهند، أمّا الخضراوات فهى كميات صغيرة وتزرع قريبًا من مقديشيو العاصمة وأهمّها الباذنجان والطماطم والبامية

والإسفاناخ والكوسة والقرع العسلى والخيار والقتّة والشمام والبطيخ والفلفل والخص..

ويقوم الصيد بدور هام فى الاقتصاد المحلى للصومال لاتّساع البلاد وتنوّع حيواناتها وكثرتها ولطول سواحلها وتعدد أنواع أسماكها.

صيد الحيوان:

أهم حيوانات الصيد فى الإقليم الشمالى الوعل والنعامة والغزال والظبى الصغير وتصاد هذه الحيوانات للحمها ودهنها وقرونها وجلودها، وفى الجنوب تصاد هذه الحيوانات أيضًا إلى جانب صيد النمر والفهد لجلودها الثمينة، كما يصاد الأسد لجلده والفيل لعاجه ويصاد الزراف وفرس البحر.

صيد السمك:

يوجد فى سواحل الصومال أنواع شتى من الأسماك، وتكثر أسماك التونة والقرش وتوجد الآن مصانع حديثة على ساحل مجرتين لتعليب سمك التونة وتصديره، كما توجد حاليًّا مصانع فى مدينة مركة لحفظ اللحوم وتصديرها للخارج.

٣ - أهم الصناعات:

لقد عمد الاستعمار إلى إبعاد هذه البلاد عن عالم الصناعة برغم توفّر المواد الخام، واليد العاملة، ورءوس الأموال، والأسواق التى تصدّر إليها الصناعات وذلك حتى يظلّ محتكرًا النشاط الاقتصادى فيها.

ومن أهم الصناعات:

(ا) صناعة حفظ اللحوم والأسماك.
(ب) صناعة السكر.
(جـ) صناعة الأحذية والجلود.
(د) صناعة الأثاث.
(هـ) صناعة الحديد وأهمها الخناجر الطويلة والسكاكين والبلط لقطع الأشجار.
(و) صناعة الزيت والصابون.
(ز) حلج القطن ونسجه.
(ح) صناعة المشروبات وأشهرها المياه الغازية المعروفة فى الإقليم الجنوبى «بالكوابنرالى» أى المياه المعدنية، كما توجد مصانع قليلة فى مقديشيو لإنتاج شراب الفواكه.
(ط) صناعة الثلج الذى يعتبر ضروريا فى هذه المناطق الحارة.

والصومال قد اكتشف فيها بعض المعادن مثل القصدير والرصاص والحديد، وكذلك بدأت شركات أجنبية تنقّب عن البترول.. ولم تظهر للآن نتائج لهذه الأبحاث.

٤ - النشاط التجارى:

تقوم التجارة الداخلية على المنتجات المحلية المختلفة مثل الحبوب والخضر والنباتات الزيتية كالسمسم والفول السودانى والحيوانات والفواكه.

أما التجارة فقد كانت أيام الاستعمار تحتكرها إيطاليا فى الإقليم الجنوبى وانجلترا فى الإقليم الشمالى، وبعد الاستقلال تحرّرت من هذا الاحتكار ووسّعت تجارتها فشملت: جمهورية مصر العربية وعدن وكينيا واليابان وغيرها.

وأهم الصادرات:

الموز - الماشية - اللبان - والصمغ - والبخور - اللحوم المحفوظة - وعلب سمك التونة.

وأهم الواردات:

الآلات الزراعية - السيارات - المنسوجات - الأدوية - مواد

البناء - الأدوية الكهربية - منتجات البترول - الأرز - دقيق القمح - البصل - المواد الغذائية الأخرى.

٥ - بعض المشروعات المقترحة:

وفى ختام هذا الفصل أريد أن أذكر بعض المشروعات التى ينبغى إقامتها فى الصومال خدمة للمسلمين وذلك من واقع خبرتى فى العمل هناك، وهذه المشروعات أهمها ما يأتى:

(ا) إقامة مصنع كبير لغزل القطن ونسجه، وقد نجح الصوماليون أخيرًا فى إنتاج القطن الطويل التيلة، وأصبحت البلاد تنتج من هذا القطن الخام حوالى ٢٠٠٠ طن فى العام، ومما يؤسف له أن إيطاليا أيام الاحتلال وفى ظل الوصاية كانت تشترى ناتج القطن بثمن بخس، فهى تشترى الكيلو جرام الواحد من القطن الخام بحوالى ٦٠ سنتا صوماليًا أى ٣٠ مليما، وتقوم بغزل القطن ونسجه فى بلادها ثم تعيد تصديره أقمشة قطنية غالية الثمن، لأبناء الشعب الذى كدّ وكدح فى سبيل إنتاجه.

(ب) إقامة شبكة مياه لتغذية العاصمة مقديشيو بالمياه العذبة من نهر شبيللى الذى لا يبعد عنها أكثر من ثلاثين كيلو مترا، إذ أن المياه الموجودة حاليًا فى العاصمة وتجرى فى الأنابيب هى مياه مالحة، وتكاليف استهلاكها عالية إذ يبلغ استهلاك المنزل الواحد الذى

تسكنه أسرة من ٥ أفراد ما بين ٣٠، ٤٠ شلنًا صوماليًّا فى الشهر، وهذه المياه لا تستخدم إلّا فى دورات المياه وغسيل الملابس والأوانى، وأما النوع الثانى من المياه فهو مياه الآبار الارتوازية المنتشرة فى المدينة وتنتقل إلى المدينة عن طريق سيارة كبيرة كسيارات حاملات المازوت أو فى براميل صغيرة على ظهور الحمير، وتستخدم فى الأعمال المنزلية العادية ويشرب منها عامة الشعب، ويستهلك المنزل الواحد المكون من ٥ أفراد حوالى ثلاث صفائح يوميا بمعدل ٢٠ شلنًا صوماليا شهريا، أما المياه الثالثة فهى عبارة عن المياه المقطرة التى تقوم بتقطيرها إحدى ماكينات شركة النور بمقديشيو وهى صالحة للشرب تمامًا ولا يستخدمها إلّا القلائل ويستهلك منها المنزل الواحد شهريا بحوالى ٢٤ شلنا صوماليا، وهناك النوع الرابع من المياه وهى المياه المعدنية المحلية وتستخدم فى بعض المنازل المحددة والمقاهى والهيئات الدبلوماسية ويستهلك منها المنزل المكون من خمسة أفراد بما قيمته ٤٠ شلنًا صوماليا شهريا، وبحساب بسيط يظهر أن المنزل الواحد فى العاصمة يستهلك شهريا بحوالى ١٢٠ شلنًا صوماليا أى حوالى ستة جنيهات فى المياه فقط، فإذا أقيم هذا المشروع الحيوى فكم يتوفّر للسكان من النفقات فضلًا عن سهولة الحصول على المياه؟؟

(جـ) مشروع خاص برصف الطرق، فحيث لا توجد قطارات سكة حديد تكون وسائل الانتقال ونقل البضائع هى السيارات،

والطرق هناك طويلة جدًّا، لذا فهى فى حاجة إلى رصف لأنها بحالتها الراهنة تؤثّر تأثيرًا سلبيًّا على اقتصاديات البلاد.

(د) مشروع بناء المساكن ليحدّ من ارتفاع إيجار المساكن الحديثة وخصوصًا فى العاصمة.

(هـ) توسعة ميناء مقديشيو، وبناء مطار هرجيبة الجوى إلى جانب توسيع الموانى البحرية الأخرى، مثل ميناء بربرة فى الإقليم الشمالى، وميناء كسمايو وميركا فى الإقليم الجنوبى وبناء الأرصفة لها لتيسير عمليات الشحن والتفريغ.

(و) إقامة أكثر من مجزر أوتوماتيكى تلحق بها ثلاجات لحفظ اللحوم وتصدّر للخارج مثلجة.

(ز) التوسع فى إقامة مصانع تعليب اللحوم وتعليب سمك التونة للتصدير إلى الخارج.

* * *

ثانيا: دراستى الميدانية للجانب الاجتماعى

١ - أسس المجتمع الصومالى:

يقوم النظام الاجتماعى فى الصومال فى أساسه بوجه عام على النظام القبلى، ولعل منشأ هذا النظام يرجع إلى أسلوب الحياة السائدة هناك وهو نظام الرعى، وقد لعب هذا النظام دورًا هامًّا قبل قيام الدولة الحديثة والمجتمع الجديد، وكانت القبيلة تُحكم حكمًا ديمقراطيا، أساسه التعاون ونصرة المظلوم والإخاء، تبعًا للمبدأ الذى أصبح قولاً مأثورًا وهو أن القبيلة الطيّبة لا يوجد فيها أحد جائع إذا لم يكن الجميع جائعين، وقد كان هناك عُرْف قبلىّ صومالى يسمونه (حير) وهو مجموعة التقاليد المتوارثة التى تلتزم القبائل بأحكامها، وكان للحير نفوذ قوى على القبائل وخصوصًا فى الشمال، ويظهر تأثيره واضحًا فى حالات كثيرة منها الحروب القبلية ودفع ديات القتلى، وفى الالتزامات التى تتقيّد بها المرأة.

والآن مع قيام الدولة الصومالية وتقوية الوحدة الوطنية فإن أهل الرأى وأصحاب الوعى الكامل من الصوماليين كافحوا من أجل

نبذ نظام القبيلة الذى يعرقل النهوض والتقدم، وبحمد الله نجحت هذه الدعوات المخلصة وحلّ الولاء للوطن ككل محلّ القبيلة الخاصّة.

٢ - أثر البيئة فى المجتمع:

للظروف الطبيعية السائدة فى شبه جزيرة الصومال تأثير كبير فى حياة المجتمع وتشكيل ألوان نشاطه، فحيث الارتفاع المستمر لدرجة الحرارة وغزارة الأمطار ووجود كثير من الحيوانات المتوحشة كان الصومالىّ حادّ البصر مرهف الحسّ سريع الحركة له قدرة فائقة فى التحمّل والجلد، وعلّمتهم حياة الترحال الأمانة والوفاء وغرست فيهم روح الحرية والاستقلال، وفى أرض الصحراء يتصّف سكانها بالشجاعة والكرامة وشدّة التدين، والصبر على المكاره وقوّة الاحتمال، والشعب الصومالى عمومًا من أشد شعوب العالم الإسلامى تديّنًا وإيمانًا بالله وبوطنه وبإخوانه، وعقيدة الإسلام تعتبر قوّة وحدوية ربطت بين الصوماليين ودعمت أخوّتهم وتعاونهم.

٣ - بعض الظواهر الاجتماعية فى الزواج:

الأسرة لها قداستها فى المجتمع الصومالى، وتقوم أساسًا من زوجين وأولاد - وللصوماليين فى الزواج تقاليد طريفة، فالخطيب يتقدّم فى جماعة من أقاربه وأعمامه إلى والد الفتاة ومعهم شبْكة تقدر

قيمتها بحوالى ١٠٠ شلن صومالى، فإذا وافق الأب على الخطيب أحالهم على أعمام الفتاة فهم الذين بيدهم الأمر النهائى فى القبول أو الرفض، فإذا وافقوا أخذوا الشبكة، واقتسموها فيما بينهم دون أن يأخذ والد الفتاة أو أبناؤه منها شيئًا، ثم يدفع الخطيب نحو مائة وخمسين جنيها بعد ذلك لإرضاء أهلها وشراء الجهاز للبنت، وقد يكون المهر عينًا أو دينًا مؤجّلًا على ذمّة الزواج، وبعد عقد القران تتم عملية الزفاف التى يصاحبه كثير من صنوف النشاط الذى يشمل القرية أو الحى من المدينة، وكثيرًا ما يتزوّج الواحد أكثر من واحدة لظروفه المالية، والزواج فى القبيلة يختلف عن الزواج فى المدن، ففى بعض القبائل لا يتزوّج الرجل من ابنة عمه، أو أحد أفراد القبيلة لأنه يعدّها جزءًا من نفسه، فإذا تقدّم العريس لخطبة فتاة، وقبل أهلها دفع شيئًا ممّا معه من عمامة أو خنجر أو مسبحة، ثم يقدّم المهر الذى يكون عينًا أو نقدًا، ثم تزفّ الفتاة إلى زوجها وتمكث فى بيت أهلها حتى تلد ولدها الأوّل، ثم يرحل بها إلى قبيلته، ويعتبر المهر بمثابة أمانة لدى أسرة الزوجة، فإن حدث توافق وانسجام بين الزوجين أصبح المهر ملكًا لأسرة الزوجة، وإن حدث اختلاف بينهما ردّ إلى الزوج، وإن مات الزوج تزوجت أرملته أقرب الناس إليه.

ومن الظواهر الاجتماعية الموجودة شيوع الطلاق فى البلاد وبخاصّة فى المدن والقرى الجنوبية، وهو لا يحدث نتيجة مبررات

قوية تحتمه ولكن يحدث لأوهَى الأسباب، وقد يكون بلا سبب إلّا مجرد إرادة الزوج تجديد الزوجة، أو يكون عدد من على ذمّته من الزوجات أربع زوجات ويريد أن يتزوج زواجًا جديدًا فيعمد إلى طلاق إحدى الزوجات، ليمكن له أن يتزوج بالجديدة بحيث لا يزيد العدد على أربعة حسبما قرّره الشرع الإسلامى، ونتج عن فوضى الطلاق مشكلة اجتماعية وهى كثرة المشردين الذين يتسكعون فى الطرقات، وقد شاهدت موقفًا مؤثرًا من أثر فوضى كثرة الزواج والطلاق... كنت جالسًا فى مطار مقديشيو منتظرًا قدوم أحد المصريين من القاهرة، وجلست فى استراحة المطار وعلى المائدة التى بجوارى جلس شاب ومعه فتاة فى مثل عمره، وقد وصل إلى سمعى كلماتهم الغزلية–وهما لايعرفان أننى أعرف اللغة الصومالية – واستمر الحديث فترة من الزمان تبادلا فيه كلمات الحب والهيام.. ثم قال لها: لماذا لا نتزوج؟ قالها وهو يضغط على يديها فى حرارة. فقالت: كنت أتمنّى ذلك، لكننى فى عصمة رجل كبير فى السن. قال لها: إذا لم تكن حياتكما الزوجية سعيدة، فلماذا لا تطلبين منه الطلاق، وقد أحلّه الله، ﴿وإن يتفرّقا يغن الله كلًّا من سعته﴾ أجابت البنت: كيف أجرؤ على ذلك؟ إنه رجل كبير وعظيم وقد زوّجنى أبى منه حينما زار هذا الشيخ قبيلتنا، ووالدى وهو شيخ القبيلة – عرض عليه الزواج منى مبالغةً فى الحفاوة به، وفى نفس الوقت تكريم لأبى – فقال لها: من هو هذا الرجل، وأنا أتدخل فى فكرة الطلاق؟

فذكرت له اسمه، وفجأةً وجدت هذا الشاب قد استحال إلى طفل صغير يبكى بكاءً حارًّا ويقف يقبل رأس الفتاة ويقول لها: سامحينى، إنك فى منزلة أمّى، إنك زوجة أبى، واسمه شيخ الإسلام مختار، هذا المشهد المؤثر جعلته مادةً لحملة مستمرّة فى المساجد لمقاومة فوضى تعدّد الزوجات وفوضى الطلاق، حفاظًا لكيان الأسرة.

٤ - عادات وتقاليد قديمة ينبغى مقاومتها:

يوجد عديد من العادات الشعبية الشائعة فى الصومال، وهى تحتاج إلى توعية الناس بعدم جدواها ومثالها: عادات الزار، وعادة إشعال الحرائق فى أوّل السنة النيروزية والضرب بالعصى حتى إسالة الدماء فى أوّل أغسطس من كل عام فى منطقة أففوى وقد يحدث قتل شخص أو أشخاص، ويقولون إنها من بقايا العادات الفرعونية فى الصومال والزرع لا ينمو نموًّا كاملًا بدونها.

وعلاج الأمراض بالكىّ بدلا من التداوى، وحلقات اللعب والرقص وكىّ الحيوانات بالنار لتميزها عن مواشى القبائل الأخرى مع عدم مراعاة ضياع قيمة هذه الجلود التى أصابها الكىّ، ومن عاداتهم فى الولادة والختان أنهم يفرحون كثيرًا بولادة الذكور ويحتفلون احتفالات كبيرة بولادتهم، أما الأنثى فيقابلون ولادتها بفتور. وعند تسمية الطفل – وغالبًا ما يكون فى يوم السبوع –

يذبح الأب ضحية[1]، وبعض القبائل تلطّخ رأس المولود بدم الذبيحة، أما عاداتهم فى الدفن والحداد فتتميز بالبساطة المتناهية التى تتّفق مع تعاليم الإسلام، وقد حضرت كثيرًا من حالات العزاء، وكان يقدّم لنا أهل المتوفى شراب البرتقال المثلج، ويقدمون البلح مع القهوة -.. ولم نسمع صراخ النساء ولا بكاء أحد من أقارب المتوفى.

٥ - مركز المرأة:

يُنظر إلى المرأة على أنها أقل من الرجل بكثير، وليس لها حقّ حضور مجالس القبائل أو العشائر، كما لا يحق لها أن تطالب بدية أولادها؛ إذ يتولّى ذلك نيابة عنها ولىّ أمرها الذى يرتبط بها من ناحية العصب لا الرحم وهذا إذا كانت غير متزوجة، أما إذا كانت متزوجة فإن زوجها هو الذى يتولّى عنها ذلك، وتتضح هذه النظرة كذلك فى عدم السماح للنساء بركوب الدواب فى أثناء الارتحال بل عليهن السير على أقدامهن فيما عدا العجائز وقد يكلّفن بحمل بعض الأمتعة على رءوسهنّ... بينما كان الرجال يركبون الخيل فى أثناء هذه الارتحالات.. وملابس المرأة الصومالية تمتاز بالاحتشام وهى ليست متبرّجة ومع ذلك لا يضعن حجابًا على وجوههن، ونادرًا ما تضع المساحيق على وجهها، وحرية الاختلاط مكفولة للفتاة

---

(١) وهى فى عرف الإسلام تسمّى عقيقة وهى سنّة مستحبّة.

الصومالية فيمكن لها أن تسير وحدها. والتعليم الابتدائى والثانوى مشترك بين الابن والبنت، وكذلك فى الفصول المسائية للكبار، وهى تشارك فى مواكب الدعاية الانتخابية ولها حق الترشيح وإعطاء صوتها بمحض اختيارها.

٦ - الأعياد والمواسم:

يحتفل الصوماليون بالأعياد الدينية الإسلامية بنفس البساطة التى تسود حياتهم، ففى عيد الفطر يصنعون نوعًا من الفطائر يتناولونها قبل ذهابهم إلى صلاة العيد، وفى عيد الأضحى يذبحون الضحايا بعد الصلاة، ويحرصون على ارتداء الملابس الجديدة فى أيام الأعياد، ويزور بعضهم بعضًا مهنئين، أمّا الأعياد الوطنية فهى كثيرة فى الجنوب وخاصة عند جماعة البانتو الزراع الذين يسكنون ضفاف الأنهار، ومن أشهرها عيد رأس السنة الشمسية حيث يشعلون النيران ويقفزون فوقها، ويرقصون حولها وبعد الانتهاء من كل رقصة يغرز ربّ الأسرة رمحه فى النار إشارة إلى فقء العين الشريرة، ويستمر إيقاد النار عدّة أيام وتسمى كذلك عيد فرعون، وهذه التسمية تدل على مبلغ قدم هذا العيد، كما تدلّ على الصلة التاريخية القديمة مع مصر.. وهناك عيد آخر هو عيد الاستسقاء أو طلب المطر، ويحتفلون به فى بداية موسم المطر، وفى هذا الاحتفال يقرأ الفقهاء

الآيات القرآنية والأحاديث، بينما يخرج الأهالى رجالاً ونساءً فى جماعات تطوف بالبلد وتنشد الأناشيد وتردد الدعوات لطلب المطر، وعند نزوله تذبح الضحايا وتقام الولائم التى يطلق عليها. «الله برى» أى «شكرًا لله».

ثالثا: دراستى الميدانية للجانب الثقافى

١ - اللغة:

الصومال بلد ذو ثقافة عريقة وقديمة، ويرجع تاريخها إلى الزمن الذى كانت فيه الحضارة القديمة كحضارة قدماء المصريين والإغريق والفرس، وقد أثبت التاريخ وجود الصلات التاريخية والتجارية مع هذه الحضارات منذ أكثر من ثلاثة آلاف سنة قبل الميلاد، ولا تزال النقوش والآثار القديمة فى دور الآثار تشيد بذلك.. وفى الصومال عادات قديمة متوارثة لها صلة وثيقة بعادات قدماء المصريين مثل بناء الأهرامات الموجودة فى مناطق بحر ينيا ومدق، كما توجد كلمات مشتركة بين اللغتين الصومالية والمصرية القديمة، وقد ذكر الأستاذ سليم حسن المؤرخ المعروف: إن هناك تشابهًا كبيرًا بين اللغة المنطوقة بالصومالى ومثيلتها فى بلاد النوبة فى مصر، ومما يدلّ على تشابه الألفاظ الصومالية مع الألفاظ المصرية القديمة هذه الأمثلة:

الكلمة	معناها فى اللغة الصومالية	معناها فى اللغة المصرية القديمة
سماء	عـر	حـر
ماء	بيو	مـو
شمس	قرح	رع
النار	دب	دب
أنا	أنيجا	أنج
هـو	أموجا	أمو

واللغة الصومالية تسمّى لغة الأم لأنها تستخدم فى التخاطب فقط ولا تكتب، ويطالب المثقفون الآن بضرورة كتابة هذه اللغة ولكن بأى حروف تكتب؟ هناك دعوة لكتابتها بالحروف اللاتينية، ولكن يعارض هذا الرأى جماهير الشعب لأن علاقة الصومال باللاتينية كانت عن طريق الاستعمار الذى فرضها عليه فرضًا، والآن بعد أن تخلّصت البلاد من كابوسه يجب أن تتخلصّ من آثاره، فضلاً عن أن التبشير يرعى اللاتينية بهدف ربط ثقافة الشعب بالغرب، وكثيرًا ما كنت أسمع عند الحملة على هذه الطريقة قولهم إن اللاتينية معناها اللادينية وذلك بهدف تنفير الناس منها، وهناك من يدعو إلى اختراع كتابة جديدة بحروف جديدة، ولكن كم من الزمن يحتاجه

الشعب ليتعلم هذه الطريقة الجديدة وأية الحروف التى ستستحدث المطابع والوقت علمًا بأن العالم فى سباق من أجل تنمية معارفه وزيادة ثقافته، إذن لم يبق إلّا كتابتها بالحروف العربية ويرجّح هذه الفكرة وجود الأسباب الآتية:

١ - أن الشعب الصومالى مسلم مائة فى المائة، وبحكم إسلامه يدرس القرآن ويحفظه ويدرس الحديث والفقه والتوحيد وما إلى ذلك من مختلف العلوم باللغة العربية، ودراسة الدين واجبة بنص الدستور.

٢ - قرأت فى دستور وحدة الشباب الصومالى الذى كوّن فى ١٥ مايو سنة ١٩٤٣ فى المادة ٢ فقرة «ب» هذا النص:

(الاهتمام بتعليم اللغة العربية نظرًا لأنها لغة القطر الرسمية).

٣ - الحجج والوثائق فى البيع والشراء والزواج والوقف وما إلى ذلك كلّها مكتوبة باللغة العربية منذ زمن بعيد.

٤ - كتابة الصومالية باللغة العربية يسهل على الدارس دراستها نظرًا لأنه يألف هذه الحروف من قراءته فى المصحف وفى كتب الحديث ويجعله على صلة وثيقة بالثقافة الإسلامية.

٥ - هناك شعوب إسلامية تكتب لغاتها بالحروف العربية مثل الباكستان وإيران والملايو.

٦ - من السهل الحصول على المطابع والحروف العربية وبذلك يتيسّر طبع المؤلفات باللغة الصومالية والحروف العربية.

وإذا بحثت فى القرآن والأحاديث تجد كثيرًا من الكلمات العربية تشترك فى لفظها ونطقها ومعناها مع اللغة الصومالية، وهذا يدلّ على قرب اللغتين ببعضهما مثلًا: أعوذ - أسماء - أب - إقرار - أخبار - أصنام - إنس - أمانات - اقتصاد - استعمار - اسم - أيتام - هجرة - هدية - هباء منثورا - هدهد - هلال - واحد - وعد - والد - وقت - ورقة - وزن - يوم - يتيم - ياقوت - وغير ذلك من مئات الكلمات المشتركة.

كما توجد جمل وتراكيب مشتركة بين اللغتين فى مناسبات التحية واللقاء والوداع والدعاء مثلًا عبارات:

الحمد لله - الله أكبر - حاشا لله - السلام عليكم ورحمة الله وبركاته - وعليكم السلام - إن شاء الله - تبت إلى الله - صباح الخير - أستغفر الله - تفضّل معى - على بركة الله - بإذن الله - على الله - كيف حالك - بعت واشتريت - مع سلامة الله - صديقى - صاحبى - أحسنت - بيت الله الحرام..

ومع فهم الأهالى للغة العربية لأنها لغة القرآن، ومع أن جميع الشعب سواء فى البادية أو فى الحضر يتكلمون اللغة الصومالية مع اختلاف فى بعض لهجاتها فإن اللغة الإنجليزية تنتشر بين المثقفين فى

الإقليم الشمالى واللغة الإيطالية فى الإقليم الجنوبى، ومع قداستهم للغة العربية نجد أن لغة الدواوين، والكتابة فى المصالح الحكومية هى الإيطالية فى الجنوب والإنجليزية فى الشمال، الأمر الذى يجب التنبيه إليه لمضاعفة النشاط فى تعليم اللغة العربية من أوّل مراحل التعليم إلى نهايته حتى تكون هى لغة الدواوين، وقد انحسرت - بعد ثورة أكتوبر ١٩٦٩ - اللغات الأوربية فى مجال التعليم وفى الثقافة العامة.

٢ - الثقافة فى الصومال:

كلمة ثقافة تعنى التهذيب والتربية والتنمية وتتأثّر بالدين والعادات والتقاليد والفنون والآداب والمذاهب والفلسفة، وعلى هذا فإننا نجد للأمة الصومالية ثقافة عريقة - نابعة من دينها وعاداتها وفنونها، فدينها الإسلام، بما يمثّله من عقيدة وشريعة وقيم وأخلاق وسلوك، وللصوماليين تراث أدبى يعتزون به يشمل الروايات والقصص والأناشيد والأمثال والأنساب، وهم يتناقلون هذا التراث جيلاً بعد جيل بالرواية فقط بسبب عدم كتابة اللغة الصومالية والشعر الغنائى الصومالى ثلاثة أنواع:

(ا) شعر المدح ويسمى جباى.

(ب) شعر الحرب ويسمى جرار.

(جـ) شعر الحب والغزل ويسمى حس آو بين.

وليس قرض الشعر خاصا بالرجال، بل كثيرًا ما تلقيه النساء فى الاحتفالات وخاصة حفلات الزواج، ويصاحب شعر الغزل غالبًا أنغام موسيقية كذلك يوجد فنانون فى التمثيل ويمثلون فى الغالب أبطالهم الذين كان لهم دور بطولى فى مقاومة الاستعمار.

ومن وسائل نشر الثقافة المذياع الذى يذيع أحاديث وتمثيليات وموسيقى وغناء، وكذلك توجد الصحف والمجلات التى تكتب بالعربية وبالإيطالية فى الإقليم الجنوبى وبالعربية والإنجليزية فى الإقليم الشمالى، ولكنها لا تقرأ من سكان البوادى.

٣ - التعليم فى الصومال:

توجد عدّة أنواع من المدارس بالصومال تسهم جميعها فى رفع المستوى، التعليمى والثقافى للشعب وفى تنمية الوعى القومى، إلّا أن هذه المدارس لا تزال ضئيلة بالنسبة لاحتياجات السكان المتزايدة ومواجهة رغباتهم فى تعليم أبنائهم.

وأهم أنواع التعليم هناك أربعة أنواع

١ - التعليم الدينى

وهو تعليم الغالبية العظمى من الصوماليين الذين لهم إلمام بالقراءة والكتابة وله ثلاث مراحل:

المرحلة الأولى:

التعليم فى الكتاتيب وتسمى «الدوكسى» باللغة الصومالية والتعليم فيه يمضى على غير نظام وعلى طريقة واحدة فى الصومال كلها، فالتعليم فيه يبدأ بتعليم الطفل فى سنّ السابعة أو الثامنة تقريبًا الحروف الهجائية منفصلة بعضها عن بعض، ثم نطقها بأشكال مختلفة ثم ترتيبها فى كلمة مكوّنة من حرفين أو ثلاثة وبعد الانتهاء منها يبدأ بتعلم القرآن ابتداءً من سورة الفاتحة ثم المعوذتين وهكذا من آخر المصحف إلى أوّله حتى سورة البقرة. وكل أبناء البادية يعلمون أولادهم فى الدوكسى لأنهم يعتقدون بأن الرسول سيسألهم يوم

القيامة عن تعليم أبنائهم لغة القرآن، وتستخدم الألواح الخشبية فى تدريب الأفراد على قراءة القرآن وحفظه وتسمى «داركين» ولكل لوح يد يمسك منها خشية إزالة الكتابة نتيجة الاستعمال المستمر، ويقوم الأولاد بالكتابة على هذه الألواح بواسطة قطعة من الخشب طويلة من فروع الأشجار، أما الحبر فهو من لبن البقر أو الغنم مضافًا إليه الفحم والصمغ، ويمكن إزالته بالمياه والكتابة على الألواح مرّة أخرى.

ويتقاضى معلّم الدوكسى من كل تلميذ مبلغًا يتراوح ما بين شلنين أو ثلاثة مع نهاية كل شهر، وجدير بالذكر أن نظام التعليم فى الدوكسى بوسائله البدائية هذه تمتاز بسرعة حفظ الأطفال للقرآن، إذ يتم الطفل كتابة القرآن كله فى مدة سنة ونصف أو سنتين فيعيد كتابته مرّة ثانية، وأحيانًا ثالثة ليتمكن من إتقانه ولكل طفل فى الدوكسى ثلاثة ألواح أو أربعة طويلة وقصيرة، حسب مدارج الطفل من سلم القرآن، فمن كان فى قصار السور أخذ اللوح القصير، ومن كان فى طواله أخذ اللوح الطويل، وفى السور الوسطى يأخذ اللوح المتوسط، بمعنى أن التلميذ كلما زاد فهمه فى القراءة والكتابة كلما زاد تبعًا لذلك طول لوحه وكثرة عشره، وقد جرت العادة فى البادية أن المعلّم يأمر الأطفال بالاحتطاب مساء كل يوم من أيام الأسبوع ماعدا مساءى الخميس والجمعة، حيث يوقدون النار ليلًا ليقرءوا فى نورها المقرّر حفظه فى المساء بعد المغرب، ويكتبوا فى نورها القدر

المطلوب حفظه فى الصباح، وبعد الانتهاء من تعليم القرآن يغاد
الطفل الدوكسى ليرعى الجمال أو البقر أو ليحرث الأرض، أما من
يريد مواصلة دراسته الدينية، فينضم إلى شيخ من مشايخهم ويتتلمذ
عليه فى مادّة اشتهر بها ويدرس عليه كتابًا معروفًا فى التفسير أو
فقه الشافعية وغالبًا ما يكون منهج الطالبين أو كتابًا آخر من كتب
النحو أو الصرف. وليست الدوكسيات قاصرة على البوادى بل إنها
تنتشر فى المدن، ففى مقديشيو يبلغ عددها حوالى ٣٠٠ دوكسى
وأغلبها فى الأحياء الشعبية وعدد التلاميذ فى كل دوكسى حوالى ٠
تلميذًا ويوجد فى باقى الإقليم الجنوبى عدد كثير منها، وفى بعضها
يقوم بالتعليم فيها سيّدات ويسمين حرمات، وقد بنيت أخيرًا فى
الأقاليم أبنية حديثة للدوكسيات عن طريق مشروع ساعِد نفسك،
ويوجد فى مدينة هرجيا بالإقليم الشمالى حوالى ٥٠ دوكسيا ومتوسط
تلاميذ كل دوكسى حوالى ١٠٠ طفل وطفلة. وبعض الدوكسيات بها
معلمان أوثلاثة ويتقاضون مرتبهم من صاحبها، وعند إتمام التلميذ
حفظ القرآن فى المدينة مع تجويده يلبس أحسن ما عنده من ثياب
ويدور فى المدينة فى حفل كبير يحيط به أهله مع جمع كبير من الناس
ليعلم الجميع أن هذا الصغير قد أصبح شيخا وهو فى سنّ الصبا
حافظًا للقرآن كلّه، وحبذا لو اعتنى بمعلّمى الدوكسيات عن طريق
تدريبهم على أساليب التعليم الحديثة وتزويدهم ببعض العلوم مع رفع
مستواهم المادّى، حينئذ يكون لها أثرها الجبّار فى تنشئة الأجيال على

حفظ القرآن وإجادة اللغة العربية كتابةً ونطقًا.

المرحلة الثانية: التعليم فى المساجد:

الصوماليون يعتبرون علم الدين من فقه وتفسير وحديث وتوحيد ومناقب: مقاصد، ويعتبرون اللغة العربية من نحو وصرف وبلاغة ونصوص وسائل ضرورية تجب دراستها لمعرفة علوم الدين، وهذه المواد كلها تدرس فى المساجد على يد علماء صوماليين كرّسوا وقتهم لتعليم طلّاب المساجد ابتغاء وجه الله ولا يتقاضون أجرًا على التعليم، أمّا الطلاب فإن الأهالى يطعمونهم ويكسونهم ويقدّمون لهم بعض المعونات ويعتبرون ذلك قربى إلى الله.. هذا النوع من التعليم ليس له منهج معيّن، ولا زمن محدّد ولا عدد معيّن من السنين فلا امتحان فيه وبالتالى لا يعطى لدارسيه شهادات وإنما يتعلّم المتعلّم ليفهم حكم الشريعة فى العبادات وفى المعاملات والتقاضى فيقضى بين المتنازعين ويفتى الناس متطوعًا، وقد يعطونه جَعْلًا وهو قدر من المال يسمّونه «حق العلم» ولهؤلاء العلماء تقدير كبير فى الصومال ولهم رأيهم الذى يسمع ولهم مواقفهم المشهودة فى مقاومة الاستعمار.

وبعض الطلاب ينتقلون بين البلاد فى البوادى يعلّمون التلاميذ تحت الأشجار، وكثيرًا ما يقضى بعض طلّاب العلم حياتهم مجاورين فى المساجد كما هو الحال فى جامع شيخ عبد القادر وجامع مرواس

بمقديشيو، ومواد التعليم الديني مركزة في عدد من المتون التي تجمع أمهات المسائل وفي شروح هذه المتون.

وهؤلاء التلاميذ يتّصلون بالأزهر روحيًّا عن طريق الكتب التي يدرسونها فهي من الأزهر، وبعضهم يكمل تعليمه في الأزهر فيسافر بطريقته الخاصّة، وأعرف بعضًا منهم حضر إلى مصر ماشيًا على قدميه هذه المسافة الطويلة وهدفه أن يلحق بالأزهر الشريف، ومن قديم والصوماليون يراسلون الأزهر لاستفتائه في مسائل استغلقت عليهم فهمًا ويأتيهم الرّد عليها، ولهذا يجب تقوية صلة الأزهر بهم لتظلّ الدعوة الإسلامية قوية في هذه المنطقة.

المرحلة الثالثة: الدراسة بالمعاهد الدينية:

عملت في الصومال من عام ١٩٥٧ - ١٩٦٣ وكنت رئيسًا لبعثة الأزهر هناك وقد خبرت عن قرب طلاب المساجد، ورأيت شدّة تعلقهم بالأزهر وحرصهم على تعلّم علوم الدين واللغة العربية، وهم عدد لا بأس به، موجود في مقديشيو وفي البادية، ووجدت أنهم يقصرون دراستهم على هذه المواد ولا يعرفون شيئًا عن المواد الحديثة، ولا يحصلون على شهادات دراسية وبالتالي لا يشتغلون في أيه وظيفة من وظائف الدولة مع علمهم وخلقهم الرفيع وأمانتهم، ورأيت أنهم يعيشون منفصلين عن مجتمعهم ففكّرت في جمعهم من المساجد ليتلقّوا العلوم الدينية والعربية والمواد الحديثة في معهد ديني

على نظام معاهد الأزهر، وعرضت الأمر على بعض المخلصين من أبناء العاصمة مقديشيو فرحّبوا بها كل ترحيب.. وأعلنا عن هذه الفكرة ووافق الأزهر على ضمّ هذا المعهد إليه وأنشئ معهد مقديشيو الدينى لطلاب المساجد فى عام ١٩٦١ ووردت إليه أسئلة امتحان الشهادة الابتدائية الأزهرية من الأزهر وعقدت لجنة امتحان ووكل الأزهر إلى رئاستها، وبعد الامتحان أرسلت أوراق الإجابة لتصحّح فى مصر وفاز المعهد الذى أنشئ لأوّل مرة بمرتبة متقدّمة من بين معاهد الأزهر، ومُنح الطلّاب الشهادات الموقّع عليها من شيخ الأزهر، وقد كنتَ تشهد منظرًا مؤثرا حينما تسلم الطلاب لأوّل مرة شهادة من الأزهر وهم فى الصومال وعليها توقيع شيخ الأزهر، لقد اعتبروها وثيقة لها قداستها وجلالها، وكذلك مُنح طلّاب معهد برعو الدينى فى الإقليم الشمالى هذه الشهادة للناجحين منهم، وقد استمر المعهدان فى أداء رسالتهما ووصلت مراحل التعليم فيهما آنذاك إلى السنة الثانية الثانوية، ثم إلى نهاية المرحلة الثانوية، وتعدّدت بعد ذلك المعاهد الدينية فيوجد الآن ثمانية معاهد أزهرية وجميعها معاهد إعدادية ما عدا معهدى مقديشيو وبرعو فهما إعدادى وثانوى وأهم هذه المعاهد:

١ – معهد مقديشيو الدينى.
٢ – معهد برعو الدينى.
٣ – معهد بلدوين الدينى.

٤ - معهد بيدوا الدينى.
٥ - معهد جلكاعيو الدينى.
٦ - معهد كسمايو الدينى.
٧ - معهد بورما الدينى.
٨ - معهد هرجسا الدينى.

ويوجد فى مقديشيو معهد اسمه معهد الدراسات الإسلامية وقد أنشئ عام ١٩٥٣ فى عهد الإدارة الإيطالية الوصية قبل الاستقلال وكان هو المنفذ لدخول شيوخ الأزهر إلى الصومال للتدريس فيه قبل الاستقلال، ومدّة الدراسة به ٤ سنوات وتخرّج الفوج الأوّل منه عام ١٩٥٧، وقد طورناه حينما كنت شيخًا له وألحقنا به تخصّصًا للقضاء ليخرج القضاة الشرعيين والمحامين، وتخصّصًا للتدريس ليخرِّج المدرسين، وكنت أتمنّى أن يطوّر ليكون نواة للجامعة الإسلامية فى الصومال على نظام كليات الأزهر الشريف، وقد خرّج هذا المعهد مجموعةً من خيرة الشباب الصومالى الذين تثقفوا بالثقافة العربية والدينية بعمق وأصالة وأكثرهم تولّى مناصب رفيعة فى وزارة التربية والعليم الصومالية وبعضهم حصل على مِنح من جمهورية مصر العربية لإتمام تعليمه فى الأزهر وفى الجامعة وفى الكليات العسكرية ولا أزال أفخر بأن من بين تلاميذى فى هذا المعهد الذين أتموا تعليمهم فى الكلية الحربية بمصر ضباطًا فى مجلس قيادة الثورة الصومالية التى قام بها صفوة من خيرة الشباب المثقف

فى الصومال بقيادة اللواء محمد سياد برى وذلك فى ٢١ أكتوبر سنة ١٩٦٩ وقد علمت أخيرًا مع الأسف أن هذا المعهد لا يأخذ حظّه من الرعاية وهو آخذ فى الاضمحلال.

٢ - التعليم الحكومى

١ - تطور هذا النوع من التعليم:

لقد كان التعليم فى الصومال قبل النصف الثانى من هذا القرن تعليمًا لغويًّا دينيًّا فقط، ونشبت الحرب العالمية الثانية وكانت إيطاليا تستعمر الإقليم الجنوبى وبريطانيا تستعمر الإقليم الشمالى، وقد استولت إيطاليا أوّل الأمر على منطقة الصومال البريطانى، وبقيت فيها لمدة سبعة أشهر ثم انسحبت منها فى أوائل عام١٩٤٠ وعادت إليها القوات الإنجليزية المرابطة فى عدن، وفى عام ١٩٤١ وقعت الصومال كلها فى يد بريطانيا عدا الشمال الأقصى الذى كانت قوّات فرنسا الحرة تسيطر عليه، وانتهت الحرب والبلاد تحت وطأة الحكم البريطانى، وفى أثناء الحرب حدثت تفاعلات نتيجة الاتصال المباشر بين الجنس الأجنبى الوافد بعلمه وصناعته وأسلحته الحديثة، وأيقن الشعب الصومالى أنه لابد له من نهضة علمية جبارة يستطيع بها أن يقف فى وجه هذه الدول المتقدّمة، فأنشأ الأهالى المدارس

وعيّنوا فيها مدرسين غير مؤهلين، كما أنشأت الأحزاب والجمعيات بدورها مدارس كثيرة، وشجّعت بريطانيا رغبة الشعب فى التعليم ولكن بلغتها الإنجليزية.

ثم وضعت الأمم المتحدة صوماليا تحت الوصاية الإيطالية لمدة عشر سنوات تبدأ فى ديسمبر سنة ١٩٥٠ وتنتهى فى الثانى من ديسمبر سنة ١٩٦٠ بإشراف إيطاليا عليها يراقبها مجلس استشارى من الأمم المتحدة مكوّن من مندوب من مصر ومن الفلبين ومن كولومبيا وذلك لإعداد البلاد سياسيا واجتماعيا للحكم الذاتى، ولما عادت الإدارة الإيطالية الوصية فى أبريل عام ١٩٥٠ بدأت تفتح مدارس لتدريب المعلمين لتدريس لغتها، ثم قامت مصر بفتح باب القبول فى مدارسها للطلاب الصوماليين وبهذا استقبلت مصر أوّل بعثة صومالية تغادر البلاد للتعليم فى الخارج عام ١٩٥٢ وبعدها بدأت إيطاليا تفتح المدارس وتستقدم للتدريس فيها مدرسين كثيرين من إيطاليا ودرّبت بعض الصوماليين على تدريس اللغة الإيطالية وأرسلت عددًا كبيرًا منهم إلى بلادها، وفى نفس الوقت كانت المدارس آخذة فى الانتشار وبخاصة فى المرحلة الابتدائية وقد استقل الصومال واتّحد الإقليم الجنوبى مع الشمالى فى أوّل يوليو سنة ١٩٦٠ ومنذ ذلك الحين اتسع نطاق التعليم وفتحت المدارس الحكومية الكثيرة فى مراحل التعليم المختلفة ومراحل التعليم الحكومى تسير كالآتى:

(ا) المرحلة الابتدائية:

ومدّة الدراسة بها ٤ سنوات وتدرس بها المواد باللغة العربية مع وجود لغة أجنبية.

(ب) المرحلة الإعدادية:

ويلحق بها التلميذ الحاصل على الشهادة الابتدائية ومدّة الدراسة بها ٤ سنوات وتنقسم هذه المدارس إلى قسمين:

١ - القسم الإنجليزى: وتدرس فيه جميع المواد باللغة الإنجليزية عدا اللغة العربية التى تدرس كلغة إضافية.

٢ - القسم الإيطالى: وتدرس فيه جميع المواد باللغة الإيطالية عدا اللغة العربية التى تدرس كلغة إضافية.

وأهم مشكلات هذه المرحلة أن التلميذ ينتقل فجأةً من المدرسة الابتدائية والتدريس فيها باللغة العربية إلى المدارس الإعدادية والتدريس فيها بالإنجليزية أو الإيطالية.

(جـ) المرحلة الثانوية:

ويلحق بها الطالب الحاصل على الشهادة الإعدادية ومدتها ٤ سنوات ويحصل الطالب فى نهايتها على الشهادة الثانوية التى تمكّنه

من الالتحاق بالجامعة الصومالية وقد كانت تسمى «معهد صوماليا الجامعى» وهى كلّيتان للاقتصاد والحقوق، ويمكن للطالب بعد حصوله على الشهادة الإعدادية أن يكمل تعليمه فى كلية المعلمين بأفجوى التى تخرّج مدرّسين للمدارس الابتدائية، والتدريس فى هذه الكلية باللغة الإنجليزية ويوجد بها قسم لاستقبال الحاصلين على الشهادة الثانوية، وبعد تخريجهم منها يتم تعيينهم فى المدارس الإعدادية، كما توجد مدرسة للإدارة ويلاحظ أن جميع المدارس الحكومية فيها التعليم مشترك فى جميع المراحل بنين وبنات.

٣ - التعليم الوطنى

ونقصد به التعليم الذى يسير وفق مناهج مدارس جمهورية مصر العربية وتدرس فيه المواد المختلفة باللغة العربية، وسمّى بالتعليم الوطنى لأن مدارسه فى الأصل أنشأتها لجان قومية من الصوماليين الوطنيين المؤمنين بضرورة مشاركتهم مشاركة إيجابية فى إصلاح بناء التعليم والحفاظ على لغة القرآن الكريم، وأنشئت أوّل مدرسة فى مقديشيو عام ١٩٥٤ ثم أنشئت مدارس فى أنحاء أقاليم الصومال، وأنشأت الأحزاب والجمعيات مدارس أهلية على نظام المدارس الوطنية. وتساعد البعثة التعليمية بالكتب والمدرسين ويوجد فى مقديشيو وحدها من المدارس الوطنية المدارس الآتية:

١ - مدرسة جمال عبد الناصر الثانوية:

ومبناها تمتلكه البعثة التعليمية لجمهورية مصر العربية بالصومال، وبها ١٧ فصلًا ومجموع تلاميذها ٩٢٥ تلميذًا وتلميذة وعدد المدرّسين فيها ٣٣ مدرسًا منهم مشرف وأمين معمل، وذلك فى خلال الستينات.

٢ - معهد المعلمين الوطنى بمقديشيو:

وقد أنشئ فى العام الدراسى ١٩٦٦/٦٥ والغرض من إنشائه إعداد مدرّسين للمدارس الابتدائية بالصومال يدرّسون فيها جميع المواد باللغة العربية وكان به ٦ فصول وعدد طلبته ٢٤٠ طالبًا وطالبة.

٣ - مدرسة محمد عبد الله حسن الإعدادية بمقديشيو:

وقد أنشئت عام ٦٩/٦٨ وأطلق عليها اسم الزعيم الصومالى البطل الشهيد محمد عبد الله حسن، وقد قامت البعثة التعليمية العربية ببنائها ضمن مبانى مجمع المؤتمر الإسلامى وبها ٩ فصول وعدد تلاميذها ٣٩٠ تلميذًا وتلميذة.

٤ - مدرسة المجمع الإسلامى الإعدادية:

وتشرف عليها البعثة التعليمية فنيًا وإداريًا فقط حيث إنها ملك

لصاحب المحفل المذكور وبها ٣ فصول إعدادى وعدد تلاميذها ١٣١ ويعمل بها خمسة مدرسين.

وفضلاً عن ذلك يوجد عدد ٩ مدارس ابتدائية وطنية فى مقديشيو وتوجد مدارس وطنية فى المدن الآتية:

هرجسا بالإقليم الشمالى: جلكتاعيو، بلدوين، بيدوا، ميركا، براوة، جماعة كسبايو، ومدرسة كسبايو ابتدائية وإعدادية وثانوية وهى أكبر المدارس الوطنية فى الصومال بعد مدرسة جمال عبدالناصر الثانوية بمقديشيو وقد أطلق عليها أخيرًا اسم جمال عبدالناصر إحياءً لذكراه.

وبعد ثورة ٢١ أكتوبر سنة ١٩٦٩ أممت هذه المدارس كلها وأصبح التعليم فيها كلها وطنيًّا ما عدا المعاهد الدينية فبقيت تدرس طبقًا لمناهج الأزهر الشريف باعتبار أن الدراسة بها دراسة دينية والدين عام لجميع الأمم والشعوب.

٤ – التعليم الأجنبى

كان يوجد بالصومال كثير من المدارس الأجنبية التابعة لجاليات مختلفة وأهمّها ما يأتى:

١ - فى مقديشيو:

توجد المدرسة الثانوية الروسية وقد أنشأتها الجالية الروسية وتعرف باسم مدرسة نادر الثانوية والدراسة فيها باللغة الروسية وتبعث بخريجيها للحصول على الشهادة الجامعية من روسيا، وهى مدرسة كبيرة وعليها إقبال كبير من الصوماليين، كما توجد المدرسة الإيطالية وتشمل الحضانة والروضة والابتدائى والإعدادى والثانوى، والطلبة فيها خليط من الإيطاليين والصوماليين وبعض أبناء رجال السلك السياسى فى مقديشيو من الأجانب، وخريجو هذه المدرسة يعينون فى الوزارة والمصالح الحكومية بالصومال الجنوبى، لأن اللغة الإيطالية هى لغة دواوين المصالح الحكومية المختلفة.

٢ - فى بيدوا:

يوجد بها كثير من أبناء الجاليات المختلفة، الجالية الإيطالية ولها مدرسة ابتدائية، والجالية الكندية وتقوم بتعليم اللغة الإنجليزية مساءً لتقوية التلاميذ فيها، والجالية الروسية وتقوم بتعليم اللغة الروسية مساءً لمن يرغب فى تعلمها، ونظام الدراسة بها داخلى.

٣ - فى براوه:

توجد مدرسة ابتدائية ملحقة بالكنيسة الإيطالية ونظام الدراسة

بها داخلى، وبعد الانتهاء من هذه المرحلة يلحق التلميذ بمدرسة إعدادية فى بلد أخرى ثم ينتهى به الأمر إلى التعليم العالى فى إيطاليا.

٤ - فى بلدوين:

ويوجد بها مدرسة إيطالية ابتدائية يديرها المبشّرون كما يوجد بها فصول اللغة الإنجليزية ويشرف على هذه الفصول بعض الأجانب العاملين فى مستشفى الأمريكان.

٥ - فى كسمايو وجماعة:

يوجد بكسمايو مدرسة إيطالية عدد فصولها ٥ فصول وعدد تلاميذها ١٥٧ تلميذًا، ويوجد بمدينة جماعة مدرسة أمريكية تضم ٧٥ طالبًا وبالمدرسة قسم داخلى يضم ٢٨ طالبًا ويوجد بالمدرسة قسم مسائى يضم حوالى ٤٨ طالبًا وطالبة والدراسة بهذا القسم ٤ أيام فى الأسبوع، كما تقوم المعلمات الأمريكيات وزوجات الأطباء ومدرس المدرسة بتعليم النسوة أشغال الإبرة والتطريز وشئون المنزل.

وهذه المنطقة تعتبر من المناطق التى ينشط فيها المبشرون، وبعد ثورة أكتوبر أممت هذه المدارس وأصبحت كلها وطنية، ويتبين منها فكرة التبشير التى يريد المبشرون نشرها عن طريق المدارس الخاصة. والتى توجب على المشتغلين بالدعوة الإسلامية اليقظة لمثل هذه الأساليب، والتى يدخلون بها للشعوب عن طريق نشر التعليم..

الطرق الصوفية كما شاهدتها فى الصومال

١ - أثر الطرق الصوفية:

حينما يذكر انتشار الإسلام فى هذه المنطقة من أفريقيا تذكر الطرق الصوفية؛ فلقد أدّت ولا تزال تؤدِّى حتى الآن - دورًا رائعًا فى نشر الإسلام وفى الحفاظ على قيمه ومبادئه وفى التصدِّى للمبشّرين وللمستعمرين. إنهم رهبان الليل وفرسان النهار، فهم يتجمّعون فى حلقات الذكر يرفعون به أصواتهم ويجأرون إلى الله بالدعوات وينشدون القصائد فى مدح رسول الله حتى إذا ما جدَّ الجدُّ ونادى منادى سارعوا بدافع عقيدتهم إلى حمل أسلحتهم وتقدّموا صفوف المقاتلين واعتبروا ذلك جهادًا فى سبيل الله. ومن شدّة تمسّكهم بقيم دينهم تجدهم يسمّون الأجانب غير المسلمين نصارى، أمّا كلمة يهودى عندهم فهى من أخسّ الكلمات وأبشعها لديهم ولا يحبّون سماعها، وإذا ما أراد واحد من أهل البلاد أن يسبّ آخر بلفظ بالغ الإيذاء قال له يا يهودى، وحينئذ تراق الدماء دفاعًا عن الكرامة، ومما يذكر بالفخر موقف رجال الطرق الصوفية وعلماء الدين فى أيام استقلال عام ١٩٦٠ حينما وصل إلى مسامعهم أن وفدًا

من إسرائيل سيحضر إلى الصومال للتهنئة بعيد الاستقلال وقامت المظاهرات فى المساجد وتعاهدوا على القتال حتى الموت ولا يدخل إسرائيلى أرض هذه البلاد المؤمنة.

وقد كان. ولم يحضر إسرائيلى واحد، وبفضل جهود العلماء والطرق الصوفية والوعى الإسلامى العميق تعتبر الصومال من الدول الأفريقية القليلة التى لم تعترف بإسرائيل، ولم تتعامل معها مباشرة ولا بالواسطة ولا يوجد بها يهودىّ واحد، ولقد كان لرجال الطرق الصوفية وللعلماء مواقف خالدة أيام العدوان الثلاثى على مصر عام ١٩٥٦ فقد اعتبروا أن العدوان واقع عليهم وكوّنوا لجانًا لجمع التبرعات وعاشوا بقلوبهم مع مصر، وكذلك كان موقفهم فى عدوان يونيو ١٩٦٧. وللصوفيين طرائف يذكرونها إذا أرادوا تنفير الجماهير من فكرة معيّنة فمثلاً يسمّون اللاتينية: اللادينية، ويسمّون المبشّرين: المغْوين، ويسمّون الاستعمار بأنه استخراب وهكذا.

٢ - أشهر الطرق الصوفية:

الصوماليون يتمسّكون بعقيدتهم الإسلامية، ويقدّسون كتاب الله ولغة القرآن، وينشئون أبناءهم على معرفة العلوم القرآنية وشريعة الإسلام، وقد عبّروا عن تعاونهم الأخوىّ بطرق شتّى، حيث يعتبر التعاون الأخوى فى الإسلام من العناصر الأساسية فى هذه الدعوة، هذا التعاون الأخوىّ هو المحور الأساسى فى عقيدة المتصوّفين التى

تنتشر فى كافة أنحاء الوطن الصومالى الكبير، والطرق الدينية من أهم الظواهر الإسلامية فى الصومال، وهدفها هو التقدّم المادّى والمعنوى ومساعدة الضعفاء ونشر الدين والعلم.

ومن أهم الطرق الصوفية ما يأتى:

أولاً: القادرية: يقول صاحب كتاب «مسالك الأبصار» الذى جمع حقائق عن طريقة المتصوّفة فى شرق أفريقيا «١٣٣٢ - ١٣٧٨ م» أن القادرية هى أولى طرق المتصوّفة جاء بها إلى البلاد مهاجرون من اليمن وحضرموت - وانتشرت فى مصوّع وزيلع ومقديشيو حتى وطدت أقدامها فى المدن الساحلية عامة، والذى جاء بالمتصوّفة إلى هرر رجل من الأشراف يدعى عبد الله العيدروس الذى مات فى عدن سنة ١٥٠٣ م. وأدخل هذه الطريقة فى منطقة جوبا العليا الشيخ أديس محمد محيى الدين القادرى البراوى وأقام مسجدًا فى بيولى عام ١٩٠٩ وقد جمع حوله مئات الألوف من الصوماليين الذين وجدوا فيه الإيمان الصادق، والإخلاص والصلاح والتقوى، وتوفى ودفن فى بيولى بجمهورية الصومال ويقام فى كل عام احتفال كبير بمناسبة ذكراه يقام حول ضريحه ويستمرّ ثلاثة أيام، ويشهد هذا الاحتفال مندوب من الحكومة الصومالية. ومع أن بيولى تقع فى وسط البادية وبعيدة عن العاصمة، وفى واد غير ذى زرع، والطريق إليها طويل وشاقّ إلّا أنك ترى فى أيام الزيارة الوفود

تقدم إلى هذا المكان من العاصمة ومن جميع جهات الصومال والجميع ينشدون الأناشيد الدينية، وقد قمت فى عام ١٩٦٢ بزيارة هذا المكان أيام الاحتفالات مع بعض الأصدقاء الصوماليين ومن بينهم بعض كبار المسئولين فشاهدت أمرًا عجبًا: عشرات الألوف يتجمّعون فى مكان واحد يقضون نهارهم فى قراءة القرآن وإنشاد الأناشيد، وفى الليل تقام حلقات الأذكار يذكر فيها اسم الله وصفاته والصلاة على رسول الله وذكر مناقب الشيخ أديس ويخيل إليك أن الكون كله يرتجّ من أصوات الذكر، وأن صدى الأصوات تتجاوب به السموات ورأيت حلقات قراءة القرآن عينًا، وصورتها كالآتى:

تعقد حلقة يجلس فيها أكثر من مائتين من حفاظ القرآن وأكثرهم من أبناء البادية الذين لم يدخلوا مدرسة ولم يجلسوا إلى معلّم سوى محفّظ القرآن، وتبدأ التلاوة بواحد من الحلقة يقرأ الآية الأولى من سورة البقرة، والذى يليه يقرأ الآية الثانية والذى يليه يقرأ الآية الثالثة وهكذا، كل واحد يقرأ الآية التى يصل دوره عليها ويستمرون هكذا حتى يختموا القرآن حفظًا، ولقد دخلت إحدى هذه الحلقات وشاركتهم هذه القراءة، ولم ألاحظ لحنًا واحدًا من أىّ واحد منهم، بل إن القراءة مجوّدة تجويدًا كاملاً، ولمّا قرب الدور منى أسرّ صديقى الذى رافقنى فى هذه الرحلة فى أذنى وقال مداعبًا: تنبّه يا شيخ، خشية أن تنسى أو تخطئ فى القراءة، وأنتم يا مشايخ الأزهر مثلنا الأعلى فى حفظ القرآن وتجويده. وعشنا معهم ثلاثة أيام

فى بساطة وأخوّة، نأكل لحم الإبل، ونشرب اللبن ولا شيء سوى ذلك، ولا ننام من الليل إلا قليلاً، وفى آخر يوم يقام احتفال رسمى يتحدّث فيه مندوب الحكومة، وأحد مشايخ الطرق الصوفية، كما تحدثت فيه داعيًا إلى الحفاظ على كتاب الله فهو الرباط الذى يربط بين المسلمين جميعًا فى مشارق الأرض ومغاربها، وعدنا إلى العاصمة، وسجّلت هذه الزيارة فى سلسلة مقالات فى الجريدة الرسمية عندهم وتسمى «بريد الصومال» وجعلت عنوانها الشعار الذى كانت الوفود تنادى به وهم متجهون إلى الزيارة «هيا المدد يا نور الله» ولقد علمت بعد ذلك أن الأعداد التى نشرت فيها هذه المقالات قد ملأت سائر جهات الصومال واحتفظوا بها لأنها سجّلت ذكرى عزيزة عليهم وهى ذكرى زيارة الشيخ أديس فى بيولى، وبعد أن عدت تجمّع شيوخ الطريقة القادرية وأعلنوا فى احتفال كبير اختيارى «خليفة خلفاء الطريقة القادرية» وسلّمونى فى هذا الحفل علم الطريقة الأخضر، وإجازة هذا الاختيار فى سلسلة طويلة مكتوبة بخطّ عربى مزخرف.

وقد أخذ عن الشيخ أديس الطريقة الشيخ عبد الرحمن بن عبد الله الشاش الشهير بالشيخ صوفى المتوفى سنة ١٩١٩م. وقد أسّس زاوية فى مقديشيو حيث يوجد ضريحه ويقام فى ذكراه كل عام احتفال كبير يحضره مندوب عن الحكومة وكان الشيخ صوفى يسكن فى حياته فى حى حمراوين بمقديشيو وكان عالمًا جليلاً يدرّس لتلاميذه

العلوم الإسلامية والنحو والفقه والتوحيد، وكان مواظبًا على عبادة ربه، وقد زهد فى الدنيا ابتغاء مرضاة الله، وكان يعيش عيشةً بسيطة لا متاع فيها، وظلّ فى زهده، خمسة عشر عاما إلى أن لقى ربه، وكان دائمًا يقول لأتباعه: إن الدنيا ليست دار قرار، وعلى الإنسان أن يقدّم بين يديه عملاً صالحًا ينفعه يوم لا ينفع مال ولا بنون إلاّ من أتى الله بقلب سليم، وكان من صفاته أنه لا يخرج من بيته إلاّ يوم الجمعة لتأدية الفريضة، وقد لقب بالشيخ صوفى لأنه كان يلبس لباس العلماء والأولياء أيام حياته، وكان شافعيّ المذهب، وقد صرف كلّ ما يملكه فى الدنيا فى سبيل مواساة الفقراء والمساكين ومعاونة الطلّاب الذين لا يجدون وسيلة للعيش، وفى صلة الأقارب والأرحام، وقد أدّى فريضة الحج وكان متحدثًا لبقًا باللسان العربى الفصيح واللغة السواحيلية واللغة الصومالية، وكان ملمًا بتاريخ الإسلام وأحوال المدن الإسلامية فى زمانه، وكان يملك النفوس بفطانته وإرشاده ويستولى على قلوب مريديه لبلاغته وإخلاصه فى دعوته، ومن تلاميذ الشيخ صوفى الشيخ محيى الدين بن معلم مكرم وغيره من المشايخ وقد انتشرت هذه الطريقة فى الإقليم الشمالى وبخاصة مديرية مجريتنيا على يد الشيخ عبد الله بن يوسف القلنقولى.

ثانيًا: الطريقة الأحمدية ويقال لها الإدريسية: أسّسها «سيد أحمد بن إدريس الفاسى» المتوفى فى بلاد عسير بالسعودية سنة

١٨٣٧ وله مؤلّف عنوانه: «كنوز الجواهر النورانية فى قواعد الطريقة الشاذلية»...

وقد أدخل هذه الطريقة إلى شرق أفريقيا الشيخ «على قية درجيا» الصومالى وقد جعل وقته كله لنشرها فى الصومال. وقد ذاعت هذه الطريقة؛ لما كان يتّصف به هذا الشيخ من صلاح وتقوى وزهد وإخلاص والتفّ حوله عدد كبير من المريدين وبخاصة من سكان وادى شبيللى الأوسط وتوفى فى مدينة مركة سنة ١٩١٧ ودفن فيها، وأتباع هذه الطريقة يتركّزون فى مقديشيو وبورهكبة.

ثالثًا: الطريقة الصالحية: وتنسب إلى محمد بن صالح - وهو ابن أخ إبراهيم الرشيد أحد تلاميذ «أحمد بن إدريس» مؤسّس الطريقة الأحمدية، وقد توفى محمد بن صالح عام ١٩١٩ وقام بنشر طريقته الشيخ محمد جوليد أحد تلاميذه وكان الشيخ محمد بن صالح قد عيّنه خليفة على الطريقة فى الصومال، وقد أسّس الشيخ جوليد زاويةً ومركز استيطان للطريقة فى منطقة تقع ما بين جوهر وبلعد على نهر شبيللى ومن أشهر مشايخ هذه الطريقة الشيخ «على نيروبى» الذى أسّس مركزًا لها فى جنوب بلدة برديرة، وأصحاب الطريقة الصالحية فى الإقليم الشمالى من الجمهورية الصومالية لهم سياسة وحكمة وتعصّب شديد لعقيدتهم، ومن شيوخها الكبار الشيخ عثمان عمر، وله مكانة عظمى فى نفوس مريديه، والشيخ الحاج

محمود عثمان، ومن أبرز أتباع هذه الطريقة رائد القومية الصومالية «محمد عبد الله حسن» مهدى الصومال الذى أعلن الثورة فى وجه الاستعمار فى الربع الأوّل من القرن العشرين، والسيد محمد يوسف الذى ثار ضدّ الحبشة ودخل معها معارك ضارية عام ١٩١٧م وتنتشر الطريقة الصالحية بين سكان المنطقة الواقعة بين مديرية مجريتنيا وبين الصومال الشمالى كما تنتشر فى الأوجادين، وفى بعض المناطق جنوب الصومال.

رابعًا: الطريقة الرفاعية: وأتباعها غير كثيرين فى الصومال، وأغلبهم من العرب المستوطنين، ومن أشهر شيوخها الشريف العيدروس الناضرى العلوى من العرب القدامى فى الإقليم الجنوبى، وهو أوّل من أقام احتفالاً كبيرًا بذكرى المولد النبوى الشريف.

خامسًا: الدندرية: وتنسب هذه الطريقة إلى والد الشيخ أبى العباس الدندرى من أهل دندرة بصعيد مصر وله أتباع فى الإقليم الشمالى ما بين بربرة وأدوين وشيخ وهرجية، وإذا ما ذهب إليهم نائب الشيخ استقبل استقبالاً لا مثيل له.

سادسًا: الميرغنية: وتسمّى بالختمية، وقد أدخلها إلى الصومال الشيخ رمضان المصوّعى ومن بعده جاء الشيخ نور حسين المصوّعى.

هذه الطرق الست تكلّمنا عنها سريعًا لنتبيّن أثرها فى الحفاظ على العقيدة الدينية وعلى كتاب الله وسنّة رسوله، وفى الارتباط

الوثيق بين هذا الشعب المسلم المتديّن وسائر الشعوب الإسلامية وبخاصّة الشعوب العربية، ويلاحظ أن جميع أتباع هذه الطرق ملتزمون كل الالتزام بالتمسّك بأهداب الدين وبالحفاظ على شعائره فلا تجد واحدًا منهم يفرّط فى صلاة أو صوم أو زكاة، ومن استطاع الحجّ ينهض لأداء هذه الفريضة مهما تكن المشقّات، وكلٌّ منهم يحفظ قدرًا يسيرًا أو كثيرًا من القرآن، ويعرف أحكام الفقه الشافعى كعالم من علماء الأزهر، ويلاحظ أن كل شيخ من مشايخ هذه الطرق إذا نزل مكانًا من الأماكن كان أوّلَ ما يفعله هو إقامة المسجد الذى يجمع المسلمين جميعًا، وفى ظلاله يؤدّون الصلوات ويقيمون حلقات الذكر ويتلون الأدعية والأوردة الخاصة بكل طريقة منها، ويسمعون دروس العلم من العلماء، وهذه الطرق الكثيرة بالأعداد الضخمة التى تتبعها تدلّ على تغلغل التصوّف فى نفوس الصوماليين وعلى حسن اعتقادهم بالله والصالحين من أولياء الله والتوصّل بهم إلى الله.

كما أن للطرق الصوفية أثرًا كبيرا فى محاربة الرذائل ومقاومة التبشير والاستعمار؛ لذا فإن دراستها تعتبر وثيقة الصلة بموضوع بحثنا وهو الدعوة إلى الله فى منطقة شرق أفريقيا..

٣ - أثر الطرق الصوفية فى مقاومة التبشير ومحاربة الاستعمار:

التبشير يدخل إلى مثل هذه البلاد بأسلوب مقنّع، فهو يذهب مختفيًا وراء مستوصف يقام لعلاج المرضى، أو مدرسة للتعليم،

أو مزرعة يعمل فيها فلاحون أو مصنع من المصانع، ومن هذه الطرق ينشر دعوته برفق ولين، وكثيراً ما يستخدم وسائل الإغراء المادّية، ولقد تيقّظت الطرق الصوفية لخطر هؤلاء المبشّرين وأسموهم المغوين أى الذين يغوون الناس وليسوا مبشرين لهم، وقام شيوخهم يناهضون الحركة التبشيرية المسيحية ويحذّرون المسلمين من خطرها ويدعون إلى الجهاد المقدّس باسم الإسلام وينشرون تعاليم هذا الدين الحنيف ولهذا أقاموا المدارس والكتاتيب والمساجد لتحفيظ القرآن وتفسير آياته، وقد حبّبوا إلى مريديهم التعاون والاتحاد والتمسّك بمكارم الأخلاق كما حبّبوا إليهم البذل والتضحية بالنفس والمال فى سبيل الدين والعقيدة.

وكانت أوامرهم واجبة التنفيذ لدى مريديهم ومن أصدق الأمثلة على ذلك سيرة «الإمام أحمد جرى» المجاهد الصومالى حيث كانت حياته صورةً صادقة للمتصوّف الذى قاد حرباً ضارية للقضاء على الحرب الصليبية التى شنّتها الحبشة والبرتغال ضد الصومال الإسلامية فى القرن السادس عشر، وكذلك أمامنا سيرة البطل الثائر «السيد محمد عبد الله حسن» ومواقفه فى مناهضة التبشير المسيحى والاستعمار ويسجّل التاريخ مواقف خالدة لهذا الشعب المؤمن وأثر التصوف فى الحفاظ على عقيدته، ومن أمثلة ذلك ما حدث عام١٨٩٧م. حينما نزلت إلى البلاد جماعة من المبشّرين، وأقاموا مدرسة فى بربرة تحت إشراف مبشّر مسيحى وأخرى فى قرية ديمولى

وعليها مبشّر مسيحى كذلك، وقد حاول هذان المبشران تحت حماية الاستعمار البريطانى أن يحوّلا بعض الصوماليين عن الإسلام عن طريقة إعطاء الهدايا المالية والملابس والطعام والعلاج.

واستطاعوا أن يجمعوا خمسين طفلاً من الأيتام واللقطاء وحملوهم على اعتناق المسيحية، وأدرك الصوفيون هذا الخطر من أعمال المبشرين فأعلنوا الجهاد المقدّس ضدّ جميع المبشرين ومن معهم من رجال الحامية البريطانية.

وقد تمكن الصوماليون من هدم مدرسة مبشر ديمولى الذى هرب إلى زميله فى مدرسة بربرة، حيث أطلق مبشّر مدرسة بربرة رصاصةً على مؤذّن المسجد القريب من منزله بحجّة أنه يؤذّن فى الفجر ويزعجه من نومه، وإن كانت الرصاصة لم تصب المؤذّن بالقتل إلاّ أنها كانت الشرارة الأولى فى الكفاح الشعبى المقدّس بقيادة محمد عبد الله حسن، مما اضطر الاستعمار إلى أن يهرّب المبشرين إلى عدن تحت حراسة السفن البريطانية بل إن الحكومة البريطانية أصدرت مذكرة إلى شعب الصومال أذاعتها السلطات الاستعمارية فى هرجيسيا وهى تحتوى على ضرورة خروج المبشرين من أى جنس بصفة عامة من الصومال وعدم السماح لهم بعد ذلك بدخول البلاد وعدم السماح ببناء كنيسة أو أديرة فى البلاد كلها وعدم فتح محلّات للخمور أو السماح بتعاطيها، وقد استمر هذا التعهّد سائر المفعول حتى عام ١٩٥٠ حينما أنشئت كنيسة صغيرة للضباط، والجنود البريطانيين فى

داخل المعسكر، كما فتحت خمّارة صغيرة فى هرجيسيا للأجانب.

وكان أهل الطرق الصوفية فى الجنوب متيقّظين لخطر التبشير كذلك ولم يعرف الإقليم الجنوبى المبشرين إلاّ حينما تعرضت البلاد للغزو الإيطالى، وكان المبشرون يجدون الأذى الشديد من الصوفيين والشعب الصومالى المسلم، وفى خلال فترة الوصاية الإيطالية على الصومال الجنوبى حرّضت الإدارة الإيطالية بعض الإرساليات المسيحية على إيجاد مناطق للتبشير فى الجنوب وإنشاء مدارس وملاجئ للأيتام واللقطاء إلاّ أن الصوفيين كانوا لهذه الحركات بالمرصاد، وقد ظهر صراع جديد بين المبشرين وبين الشعب الصومالى حينما ظهر التبشير المسيحى على يد المبشرين الأمريكيين الوافد مع النقطة الرابعة وشركات البحث عن البترول والخبراء ومكتب الدعاية الأمريكية وكانت البعثة الأولى برئاسة المبشر الأمريكى القسيس «ويلبرت لند» البروتستنتى، والبعثة الثانية برئاسة الأمريكى «مورد بكرويد» وبدأ نشاطهما فى مقديشيو عن طريق تدريس اللغة الإنجليزية ثم تشويه معتقدات الطلاب وأرادا أن يمدّا نشاطهما خارج العاصمة فى جوهر ومهداى إلاّ أن الشعب الصومالى المسلم بقيادة زعمائه العلماء ورجال الطرق الصوفية قاوموا هذه الفكرة، ولم يمكنوهم من نشر نشاطهم فى تلك البقاع، بل قد حدث اعتداء من بعض المتحمّسين الصوماليين على بعض هؤلاء المبشرين. وقد حاول التبشير الأمريكى أن يمدّ نشاطه فى داخل

الصومال وخصوصًا فى مناطق البحث عن البترول مما يدل على الصلة القوية بين التبشير وشركات البترول، وقاد الصوفيون معارك ضارية ضد الاستعمار الإيطالى فى الجنوب والبريطانى فى الشمال، باعتبارهم أعداء لهم فى الدين فضلاً عن معاونتهم للمبشرين أعداء الإسلام وللصوماليين أثر كبير فى الحفاظ على اللغة العربية باعتبارها لغة الإسلام ولغة القرآن، ولشيوخهم قصائد باللغة العربية يحفظها مريدوهم حفظًا جيدًا، ومثال ذلك قصيدة الشيخ أويس وعنوانها:

حادية الأنام إلى قبر النبى عليه الصلاة والسلام. ويقول فى مطلعها:

إذا ما شئت تيسير المراد فصلّ على رسولك خير هادى
وقل مستنجدًا فى كل ناد صلاة الله ما نادى المنادى
على المختار مولانا الحماد

حبيب الله أفضل من ترقى وقبره فاق كرسيًّا ومرقى
وكل مواضع الخيرات صدقا يفوح المسك والريحان حقا
لقبر محمد نور الفؤاد .

ويختتم قصيدته بقوله:

ورحمتنا ونعمتنا وبشرى وعصمتنا بذى الدنيا وأخرى
وتسليم عليه يفكّ عسرا وحضّ الآل والأصحاب طرّا
مع الأتباع ما نادى المنادى

ومن شعراء الصومال العظام الشيخ عبد الرحمن الزيلعى، وله قصائد صوفية رائعة منها «سراج العقول والسرائر» فى التوسل بالشيخ عبد القادر ويقول فى مطلعها:

ياغوث أعظم قم لنا غوثا مدد ... يابان أشهب هب لنا خيرًا أبد

يا محيي الدين أحينا يا معتمد ... يا سيدى كن لى ظهيرًا بالمدد

يا سيد السادات عبد القادر.

وللبطل المجاهد محمد عبد الله حسن قصائد حماسية تعدّ من الأدب البليغ كتبها باللغة الصومالية وبحروف عربية، وهذه بعض أبيات له مع معناها بالعربية:

النص الصومالى	معناه بالعربية
١ - أفيكيل كفرك أرى ايلى نىء	لقد جذبتنى رائحة المستعمرين القذرة.
٢ - أخبار فى طريق كومى أولح أفادى.	إلى أفيكيل وما فعلوه بالمجاهدين الأحرار.
٣ - ألوف أبو ألوف كوى اخوتى بىء.	بالله ذبحوا ألوفًا وألوفًا من الصبية والبنات ومن الإبل والأغنام.
٤ - أى أدون كيك صفى أرى أيوء جيليل.	كان هذا .وا أسفاه بمساعدة بعض الخونة.

٥ – اختبارك نمنكا كوك أجراد بحاجة.	الذين يساعدون المعتدين باختيارهم وليسوا مكرهين على ذلك.
٦ – أن لجوء اكراهين كلجعل جفر ابرارية.	لابدّ من قتل الخونة مهما نطقوا بالشهادتين.
٧ – الشهادة من جرن كداى أن سح من سوء.	لأن الإسلام بريء من الخونة العملاء.

المساجد كما شاهدتها فى الصومال

واكب إقامة المساجد فى الصومال دخول الإسلام إليه، فمع أن الإسلام يجعل الأرض كلها صالحة لأداء الصلاة فيها حسبما قال رسول الله: «جعلت لى الأرض مسجدًا وتربتها طهورًا» إلّا أن المسلمين يقيمون المساجد لا لكى تكون أماكن للعبادة فحسب، ولكن لتكون مواطن تجمّع وأماكن تعليم وتثقيف فضلًا عن أن صلاة الجمعة لا تصحّ إلّا فى المسجد.

والصوماليون يميلون دائمًا إلى أداء الفرائض جماعةً فى المساجد وبخاصة صلاة المغرب، وذلك بالإضافة إلى فريضة الجمعة، وتسود البساطة المتناهية هذه الشعائر، وغالبًا ما يتكوّن المسجد من فناء مكشوف يؤدّى إلى إيوان مسقوف به أعمدة مربّعة الشكل أو مستديرة تحمل عقودًا مدبّبة، وقد تحمل السقف مباشرة وهو الأغلب، وأجزاء المسجد جميعها بما فيها الأعمدة تبنى من الطوب والحجارة وتُكسَى بطلاء الجير الأبيض، وقد يكون للمسجد مئذنة أو يكون له برج أو قبّة مستطيلة والقليل منها طراز المآذن الطويلة

الرفيعة من نهايتها وهى الشائعة فى مصر. والجاليات الإسلامية تبنى مساجد لها على الطراز المعروف لديها مثل الجالية الباكستانية والهندية، وقد كثرت المساجد فى المدن والقرى ولا يمكن أن تجد قريةً إلّا وفيها مسجد، وقد بلغ عدد المساجد بالعاصمة «مقديشيو» حوالى ١٥٠ مسجدًا ما عدا الزوايا، وإذا أقيم مسجد جديد تؤدَّى فيه سائر الأوقات ما عدا صلاة الجمعة، فلا يؤذّن بها إلّا بعد استصدار قرار من قاضى المدينة الذى يعاين المسجد فإذا ما وجد مسجدًا تقام فيه الجمعة، ويقع قريبًا من هذا المسجد بحيث يسع المصلين من أهل الحى، فلا يأذن بإقامة شعائر الجمعة فى هذا المسجد الجديد، وذلك لأنهم جميعًا شافعيّون ولا تتعدّد الجمعة عند الشافعية بلا حاجة فالجمعة لمن سبق، هذا فضلاً عمّا فى تجميع أكبر عدد من المصلين فى مسجد واحد للجمعة من إظهار لروح الجماعة ومن وحدة التوجيه الدينى لأهل الجهة، وفضلاً عن قلّة الخطباء الذين يمكن أن يزاولوا الخطبة فى جميع المساجد، وهم يسمّون المسجد الذى لا تقام فيه الجمعة بالمسجد، فإن أقيمت فيه جمعة يسمّى بالجامع لقد وجدت المساجد فى الصومال قبل أن يعرفوا المدارس، وعلى هذا فالمساجد كانت مكانًا للتعليم، تعلّم العلوم الدينية من تفسير وحديث وفقه وتوحيد، وتعلّم العلوم العربية من نحو وصرف وبلاغة وأدب، ولا تزال حتى الآن المساجد تضم بين جنباتها طلّابًا نذروا أنفسهم لتعلّم العلم.

ويسمَّوْن طلاب المساجد، وأكثر المثقفين فى الصومال قد درسوا فى هذه المساجد، ولذلك تجد لديهم جميعًا قدرًا كبيرًا من معرفة أحكام الفقه والتفسير والحديث، وطلاب المساجد موضع احترام الناس وتقديرهم وهم يتبرّكون بهم، ويتنافسون فى الإنفاق عليهم، ومن الجميل الرائع أن ترى كثيرًا من المساجد تعجّ بهؤلاء الطلاب من مختلف الأعمار ومعهم كتبهم الدينية والعربية المطبوعة فى مصر، ومعهم مصاحف القرآن حيث يقضون نهارهم كله، فى حفظ القرآن ودراسة هذه الكتب، وهؤلاء الطلاب قرءوا القرآن قبل ذلك فى الدوكسى (أى الكتّاب) وهى منتشرة فى بوادى الصومال وفى المدن والقرى.

هذه المساجد بطلّابها حافظت على التراث الدينى وعلى اللغة العربية فهى تخرِّج أجيالاً متتابعة، وكلّ جيل يتعلم ينتقل إلى مسجد من المساجد يعلّم فيه الطلّاب القادمين إلى المسجد، وهكذا سلسلة متّصلة الحلقات، تعلم وتعلّم وهم يعتبرون أن دراسة هذه الكتب العربية بجانب أنها ثقافة ومعرفة هى قربى إلى الله؛ لأنها توصّل إلى فهم كتاب الله وسنّة رسوله الكريم...

إن الصوماليين جميعًا موحَّدون بحكم عقيدتهم وشريعتهم، فمن نعم الله عليهم أنهم مسلمون دينًا، شافعيون مذهبًا أشعريون عقيدة، صوفيون طريقة؛ ولهذا ترى الواحد منهم حينما يكتب اسمه على كتاب أو على وثيقة يقول:

فلان الشافعى مذهبًا الأشعرى عقيدةً القادرى طريقة مثلًا.
والشافعية عندهم خطبة الجمعة لا تصحّ إلّا باللغة العربية ولهذا ترى فى يوم الجمعة جميع منابر الصومال تنطلق منها الخطبة باللغة العربية الفصحى، وغالبًا ما يقرأ الخطيب من ديوان قديم مطبوع، والجمهور يفهم ما يسمع، وإذا ورد فى الخطبة اسم رسول الله ارتجّ المسجد بالصلاة والسلام عليه، وإذا تحدّث الخطيب عن نماذج مما تعرّض له الرسول من إيذاء المشركين أو تعرّض له أصحابه ترى أعينهم تفيض من الدمع حزنًا، وهم يذهبون إلى المسجد فى ثياب بيضاء نظيفة ولا يتخطّون الرقاب بل يجلس كلٌّ فى أوّل مكان يجده خاليًا، مهما تكن مكانته الاجتماعية، ولقد شاهدت بنفسي رئيس الجمهورية وهو يحضر إلى المسجد لصلاة الجمعة ولا يجد مكانًا إلّا فى مؤخرة الصفوف فيجلس كما يجلس سائر الناس، وبعد الانتهاء من الصلاة يتّجه إلى خارج المسجد للخروج فيسلّم عليه المصلّون الذين يمرّ بهم وهو واقف وهم جالسون كما يسلّمون على أى مواطن.

ولقد كان لخطبة الجمعة التى هى بالعربية أكبر الأثر فى الحفاظ على اللغة العربية، ولطلّاب المساجد أثرهم الكبير فى الحفاظ على تعاليم الإسلام ونشره فى سائر جهات الصومال، وتفهّم الناس أحكامه وقواعده وآدابه، ومن أهمّ الدلائل على تعمّق الدين فى قلوب الصوماليين وعلى مدى تمسّكهم بالشريعة الإسلامية ما تحقّق

عمليًا كصدى لآمال الجماهير فى دستور الجمهورية الصومالية حيث ورد فى البند الأوّل من المادة ١١ منه «الإسلام دين الدولة» وفى المادة الخمسين نصّ على أن «الفقه الإسلامى مصدر أساسىّ لقوانين الدولة» وقد طبّق هذا النصّ لفظًا وروحًا، فلا تجد قانونًا يصدر هناك إلاّ إذا أبدى الفقهاء رأيهم فى مدى ملاءمته لمبادئ الشريعة الإسلامية، وما حدث أخيرًا من الاعتداء على بعض العلماء فى عهد الثورة الحالية كان بسبب سوء فهم بين قيادة الثورة وبعض العلماء الذين احتجّوا على مشروع للميراث كان المسئولون يفكرون فيه وهو يجعل نصيب المرأة مساويًا لنصيب الرجل فى الميراث، وهذا بخلاف ما جاء فى القرآن الكريم، وقد تصدّى العلماء بعنف لهذا الاتجاه، واعتبروا أن الشيوعية لها أثر فى هذا التفكير فقاومتهم الثورة كذلك بعنف، وحوكم بعضهم ونفّذ فيه الحكم ولكن لم ينفّذ هذا الرأى فى الميراث، وسارت الثورة على منهج الإسلام تمامًا وبخاصة بعد أن أبعد عن الدولة المستشارون الروس، وبالتالى انزاح عن البلاد كل ما يتصل بثقافتهم ومذاهبهم الهدّامة.

وفى المساجد تعبأً الجماهير ضدّ أساليب الاستعمار وموجات التبشير، وكم من مظاهرات خرجت من المساجد عقب صلاة الجمعة، احتجاجًا على نشاط مبشر من المبشرين، وأذكر أنه فى عام ١٩٦٠ وهو عام استقلال الصومال أشيع أن وفدًا من إسرائيل سيحضر إلى مقديشيو ضمن الوفود التى ستحضر للتهنئة وانتشر

الخبر فى سائر جهات الصومال انتشار النار فى الهشيم، وجاء يوم الجمعة وتحدّث علماؤهم مبيّنين خطورة هذا الموقف وأعلنوا مقاومتهم لحضور أىّ يهودى إلى بلادهم، وخرجوا فى مظاهرات عارمة وعسكروا حول دار البرلمان وباتوا ليلتهم فى الميدان حتى أذيع بيان رسمى ينفى دعوة إسرائيل للحضور ولم يحضر يهودى إلى البلاد، والصومال كسائر الدول العربية لا تعترف ولن تعترف بإسرائيل وقد حدث هذا فعلاً، فالصومال من أشد الدول عداءً لإسرائيل – وتعتبرها قد سلبت أرض العرب وممتلكاتهم وأدانت هذا العدوان، وحينما يشنّ الاستعمار عدوانًا على أية دولة عربية ولا سيما مصر فإن المساجد تقوم بإلهاب حماس الجماهير، لتقف مؤيّدةً لكفاح العرب وقد أيّدوا مصر ولا يزالون تأييدًا معنويًّا وماديًّا...

وللصوماليين علماء وفدوا إلى الأزهر وتعلّموا فيه وعادوا يحملون رسالة الهدى والخير، وهم يؤدّون واجبهم فى نشر اللغة العربية وفى الحفاظ على الشريعة الإسلامية، ويتّخذون من المساجد أماكن توعية للجماهير، والبعثة الأزهرية حينما وصلت إلى هناك تقوم بالخطابة فى أشهر المساجد وبإلقاء الدروس الدينية طوال الأسبوع فى مختلف العلوم الدينية... والصوماليون يقبلون على هذه الدروس إقبالاً رائعًا، ولكى تكون الإفادة من الدروس مائة فى المائة فإنهم يحبّذون أن يعبّر أحد الصوماليين المتفقهين باللغة الصومالية عمّا يشرحه الشيخ الأزهرى.

وأذكر أننا حينما أنشأنا مكتبًا لبعثة الأزهر فى مقديشيو لأوّل مرة عام ١٩٥٩ وجعلنا فيه مكانًا لمكتبة عربية لتشدّ الشباب الصومالى إلى القراءة لم أجد ما أعمّر به مكتبة البعثة الأزهرية إلّا أن أستعير من أحد فقهائهم مجموعةً كبيرة من الكتب الدينية والعربية والتاريخية وهى كتب مراجع، ويمكن ألّا تجدها فى مكتبة بعض خريجى الأزهر المصريين...

ومن أثر المساجد فى الحفاظ على الشريعة الإسلامية ما شاهدته من مواقف علمائهم وطلّاب مساجدهم فى مقاومة دعوة مسمومة ابتدأت تنفث سمومها فى العاصمة وهى الدعوة البهائية وكان ذلك عام ١٩٥٧. لقد تحرّك العلماء فى المساجد ونبّهوا الجماهير إلى خطورتها على الإسلام فاحتجّ الجميع عليها وعلى القائمين بها، وقُضى عليها فى نفس العام.

وإذا ما أحصيت مساجد الصومال ومقارنتها بعدد السكان نستجدها تمثّل أكبر نسبة فى العالم الإسلامى بالنسبة لعدد السكان.

وهذا يدلّ على أصالة الفكر الدينى عندهم وعمق التديّن فى قلوبهم وتعتبر بحق حارسةً لدعوة الإسلام فى منطقة شرق أفريقية كلّها...

دراسة ميدانية فى كينيا

زرت كينيا مرتين فى عامى ١٩٧٢، ١٩٧٣، وكانت الزيارة للاطلاع على أحوال المسلمين بها وسير الحركة الإسلامية بين شعبها، خصوصًا وأن رئيسها هو «جومو كينياتا» المسيحى المتعصّب لمسيحيته[١] وقد لاحظت فى أوّل الأمر أن نظرة الجهات الحكومية إلىّ فيها شىء من الريبة، فكانوا يتابعون خطواتى واتصالاتى بالمسلمين متابعة دقيقة، وإذا استطاعوا أن يضعوا فى طريقى مضايقات تنفّرنى من البقاء عندهم فترة الزيارة لوضعوها، ولكنهم خشوا ما يترتب على ذلك من آثار لدى المسلمين فى كينيا فضلًا عن الأثر السياسى بين دولتين صديقتين.. وأذكر أنى أوفدت واحدًا من علماء الأزهر الذين يعملون معى فى المركز الإسلامى بدار السلام بتنزانيا لزيارة مدينة ممباسا - إحدى الموانى الرئيسية - لكينيا وكان له ببعض المقيمين بها صلات دينية. ووصل الشيخ إلى مطار

---

(١) لقد توفى منذ أشهر قلائل واختير غيره رئيسًا للدولة «الكينية».

ممباسا، وقدم جواز سفره، ومعه حقيبته، وبعد فترة من الزمن وبعد خروج جميع القادمين على هذه الطائرة من المطار إلى المدينة نودى عليه من السلطات المختصة بالمطار، وسلّموه جواز سفره وحملوا له حقيبته إلى الطائرة، فسأل: إلى أين؟ فقالوا له: إلى دار السلام عاصمة تنزانيا، يعنى لقد منع من دخول المدينة لكن بطريقة مهذبة، ورجع إلى دار السلام وأخبرنى بما حدث فأصررت أن أتخّذ فيها إجراءً رسميًا عن طريق سفارتنا لكن اتجه الرأى إلى أخذ هذا الموضوع بالرفق أوّلاً لأن الزيارة غير رسمية. وثانيًا: لا ينبغى أن يشعر الأفارقة لا فى تنزانيا ولا فى كينيا بأن شيخًا أزهريًا منع من دخول إحدى الدول الأفريقية لزيارة بعض إخوانه المسلمين فقد يترتب على ذلك عواقب سيئة نحن فى غنى عنها، وحينما وصلت إلى ميناء نيروبى توجهت إلى مفتش الجمرك، حيث كانت الحقيبة فى انتظارى، وكان المفتش هنديًا من طائفة السيخ، قد ترك له لحية طويلة شاملة لوجهه ومتصلة من شاربه إلى عارضيه ثم رأسه وهذا هو الشكل المألوف لأبناء طائفة السيخ فى منطقة شرق أفريقية كلها، ولما رآنى قال: وكأنما أرهقه العمل: «رخصة موجود شيخ» وهى كلمات عربية مستعملة فى الأردية وربما قد ظن أننى أعرف اللغة الأردية، ثم رسم علامة التفتيش على الحقيبة ولم يفتشها، ثم اتجهت من المطار إلى نيروبى..

ومعنى نيروبى «بلغة الماساى: الورد العذب أو الماء العذب، وفى

داخل المدينة يلفت نظرك كثرة المحلات التجارية، ومغالاة الناس هناك فى عرض السلع الكمالية المتنوعة، مما يدلّ على أن البلاد فيها رخاء. لكن يلاحظ أن الذين يسيرون فى الشوارع التجارية هم من الأوربيين ومن أغنياء الهنود وهم الذين بأيديهم التجارة - أما المواطنون الأفريقيون فلا تكاد ترى كثيرًا منهم فى الأحياء التجارية ولعل السبب فى ذلك أنهم غير قادرين على الشراء من تلك المحلات التى لا تبيع إلّا المستورد من الخارج. واتجهت إلى المسجد الجامع فى وسط المدينة وهو مسجد ضخم البناء وغاية فى الجمال والذوق الرفيع، قبابه مبنية على الطراز المغولى ضخمة، ويحيط بالمسجد أفنية واسعة نظيفة لا تكاد تجد فيها قذارة لو بحثت عنها، وفيه أماكن للوضوء فى غاية النظافة، كما أن فيه قسمًا للنساء منفصلًا هو عبارة عن شرفة فوق القسم الخلفى المسقوف من المسجد، وقد كتب على مدخل المسجد باللغة الإنجليزية: الدخول بالأحذية غير مسموح به فى أفنية المسجد وللأحذية مكان خاص عند مدخل المسجد..

وعلى بداية المسجد كتب بخط جميل ﴿وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا﴾ كما ألحق بالمسجد مكان للمسافرين من فقراء المسلمين، يقيمون فيه فترة من الوقت حتى يجدوا مكانًا غيره، وهذه الظاهرة من أجمل ما شاهدته فى مساجد المسلمين، وفوقه مكتبة عامة فيها كتب قليلة باللغة العربية، وأكثر منها باللغة الأردية، وإمام

المسجد باكستانى الأصل، ولا يجيد العربية وإن كان يعرف طرفًا قصيرا منها، لكنه يقرأ القرآن بلسان عربى مبين، ومؤذّن المسجد أفريقى يعرف العربية، وقد ذكر أنه تعلّمها فى زنجبار ويلبس ملابس السواحيليين ويصلّى فى هذا المسجد الهنود المسلمون والأفريقيون، وقد قرأت لوحة تأسيس هذا المسجد فوجدت أن مؤسسه اسمه عبد الله شاه، وقد فرغ من بنائه عام ١٩٣٧ ميلادية ويعرف المسجد بأنه المسجد الجامع لأنه تقام فيه صلاة الجمعة فى هذا الحىّ الأوربى من مدينة نيروبى، وهذا المسجد لأهل السنّة والجماعة، وهناك مساجد أخرى للطوائف الأخرى مثل مساجد للشيعة ومساجد للإسماعيلية، وقد التقيت فى نيروبى بكثير من أعيان المسلمين، وأكثرهم وافدون من حضرموت ووضع المجتمع الكينى كالآتى: بعد أن غادر الإنجليز البلاد صار الأوربيون فى القمة - يليهم الآسيويون من الهنود والباكستانيين، وفى المرتبة الثالثة يأتى العرب وبعدهم الوطنيون الأفريقيون، وأغلب العرب هنا فقراء وفى مكانة غير مرموقة كما أنهم قلّة فى جميع أنحاء كينيا، إلاّ فى منطقة الساحل فى مدن «ممباسا» و«مالندى» «ولامو» وما بينهما.

زيارة مدينة كيسومو:

كيسومو عاصمة مقاطعة نيانزا التى تقع حول بحيرة فيكتوريا نيانزا التى ينبع منها قسم كبير من مياه النيل الأبيض - وتبعد تلك

المدينة عن نيروبى بمسافة ٣٨٠ كيلو مترا تقريبا، وفى الطريق توجد منطقة قبيلة (الكيكويو) أكبر القبائل الأفريقية فى كينيا والتى ينتسب إليها الزعيم جوموكينياتا ومنها كان رجال «الماوماو» الذين أزعجوا الحكم البريطانى أيام الاستعمار، وطوال الطريق لم نشاهد إلّا أرضًا خضراء وحقولاً مزروعة، ترعى فيها الأبقار، وهذا يدلّ على أن أفريقية لا ينبغى أن يطلق عليها أفريقية السوداء - بل أفريقية الخضراء.. وكيسومو تقع على بحيرة فيكتوريا نيانزا.. وقد دخلت مع مرافقى الميناء الكبيرة. وشاهدنا البواخر وهى تفرغ حمولتها وينزل منها المسافرون وبعضهم من السياح الأوربيين الذين قدموا من أوغندا بهذه البواخر التى تمخر عباب البحيرة الكبيرة - التى تمتد مسافة طويلة يسير المرء فيها بالباخرة ١٥٠ كيلو مترا داخل كينيا، ثم تصل إلى حدود أوغندا..

وزرنا المسجد الجامع فى كيسومو، وشاهدنا أغلب المصلين فيه من الباكستانيين، والمسجد يسمّى «مسجد الجمعة» وهو الوحيد الذى تقام فيه الصلاة فى بلدة كيسومو. وهو مسجد جميل البناء - مفروش فرشًا كاملاً وفيه مكبّر للصوت، ويحيط به فناء مكشوف، تحيط به من الداخل بعض الأشجار، وفى ركن من أركانه عدد من الغرف. قالوا: إن هذه مدرسة لتعليم القرآن للأفريقيين، وفى ناحية بعيدة أيضا غرف هى مسكن لإمام المسجد. وقد قام على بناء المسجد جماعة من المسلمين - وأكبر العبء فى ذلك على الباكستانيين الذين عجبنا

لكثرتهم فى المسجد، فى الوقت الذى لم نر فيه فى صلاة المغرب إلّا اثنين فقط من العرب، وبعد صلاة المغرب تجمّع صبية من الباكستانيين حول رجل منهم أخذ يعلّمهم القرآن من جزء «عمّ» وهم من طلبة المدارس الإنجليزية التى يدرسون فيها فى النهار، وفى الليل يتعلّمون القرآن الكريم وأمور الدين، وقد استرعى انتباهنا عبارة كتبت فى أسفل الجدار على يمين المحراب باللغة العربية «فى سبيل الله» وانطلق منها سهم يشير إلى ما يشبه علبة وضعت على الأرض ففهمنا أن تلك العلبة يجمع فيها التبرعات لصالح المسجد، وبسؤال الإمام عنها قال: إنها ليست لمنافع المسجد لأن الذين قاموا على بنائه من المسلمين قد أوقفوا عليه عمارتين تدرّان عليه ما يحتاج إليه، ولكن الصندوق له مفتاح يوجد عند هيئة موثوق فيها وهذا الذى نراه إنما هو غطاء الصندوق فى الأرض، ولا يفتح إلّا أيام العيد حيث يؤخذ ما تجمّع فيه ويفرّق على الفقراء المسلمين فى العيد، إنها فكرة رائعة وجميلة، ابتكرتها عقول أفريقية تعيش تحت خط الاستواء - ولا تخطر ببال أحد فى مصر أو فى أى بلد عربى.. وعلمت من فضيلة قاضى المسلمين فى مقاطعة نيانزا - وهو من العرب الموجودين فى كينيا وجنسية كينية - أن المسلمين هنا يتمتعون بنفس الرعاية التى يتمتع بها غيرهم - والعرب بخاصة موضع تقدير الحكومة والمسئولين - ولا يلاقون أية صعوبات فى إقامتهم أو مباشرة نشاطهم الدينى - ولكن المسلمين والعرب

أنفسهم لا يبذلون جهودًا كافة من أجل تحسين أوضاعهم - فهم مختلفون على أنفسهم - ولا يقومون بالواجب المفروض عليهم فى الدعوة إلى الله بصفتهم من العرب الذين انتشر الإسلام على أيديهم فى العالم، وقد ذكر فضيلة القاضى: أن المسلمين يحتاجون إلى المساعدة وبذل المعونة فى حقل التعليم الدينى لأن الحكومة لا تعارض فى التعليم الدينى ولكن لا يمكنها أن تساعد على أىّ تعليم دينى، لأن ذلك قد يحمل أرباب الأديان الأخرى على الاحتجاج وطلب المساواة، إلاّ أنّ أهل الأديان الأخرى يجدون من يساعدهم ويساندهم فى بناء المدارس الخاصة بهم. والتبشير هناك يبذل الكثير، ويجدون كذلك من يعلّمهم اللغات التى يرغبونها ويساعد على نشر ديانتهم ومساعدة الفقراء منهم، أما المسلمون فلا يجدون المساعدة قالوا: وأوضح مثال على ذلك: أنه كانت توجد مدرسة عربية إسلامية خاصّة تقوم على جمع التبرعات ثم عجزت عن الاستمرار بسبب قلّة التبرعات فطلبت المساعدة من وزارة التعليم الكينية وقبلت ذلك بشرط أن تشرف عليها من ناحية المناهج، وعلى أن يُحضِر المسلمون من يدرِّس مادة اللغة العربية والدين الإسلامى لهم فى هذه المنطقة ويكون مرتّبه على الحكومة الكينية، لكنهم لم يستطيعوا الحصول على المدرس المذكور - وألحقت المدرسة بالحكومة، والحقيقة المرّة أن هذه الحالة عامة شاملة للمسلمين فى أقطار شرق أفريقية، حيث يخشى أن يفتن بعض المسلمين عن دينهم

- إما بالإغراء بالوظائف والمناصب، أو نتيجة الجهل بالدين بحيث ينشأ الجيل الجديد فى جوٍّ ثقافى بعيد كل البعد عن التعاليم الإسلامية، وإن كان بعض المسلمين من أهل البلاد يبذلون جهودًا كبيرة فى سبيل الإبقاء على إسلامهم وتعليم لغة القرآن الكريم لأبنائهم، ويضحّون فى سبيل ذلك بالشهادات والمناصب، ولكن هل هذا الطراز من الرجال المسلمين الغيورين على دينهم كثير بين الناس؟ لا أظن ذلك، ومن هنا يأتى دور مصر أولاً والدول العربية ثانيًا ومدّ يد المعونة لهذه الشعوب، وأن تبذل جهود مشتركة من البلاد الإسلامية فى هذا المجال بالاتفاق مع الحكومات المحلية، ومن تلك الجهود فتح الملاجئ ودور التربية للأطفال المسلمين من الفقراء والأيتام الذين قد يضطرون إلى دخول المدارس التربوية والتبشيرية فينسلخون عن دينهم، وتقطع الرابطة التى تربطهم بالعرب والمسلمين ومن ذلك فتح المدارس الإسلامية الخاصّة وتقريبها من المناهج الحكومية فى تلك البلاد، حتى تؤهل الطالب بعد ذلك لمتابعة تعليمه المدنى العالى فى بلاده أو خارجها بعد أن يكون قد تعلّم اللغة العربية وأمور الدين الإسلامى فى المدارس المذكورة بدون أن ينعزل انعزالاً كاملاً عن الوسط الثقافى فى بلاده، ومن ذلك توفير المنح الدراسية لأبناء المسلمين فى كافة الجامعات والمدارس فى الأقطار الإسلامية ولاحظنا أن مدينة كيسومو لم نر بها رجلاً واحدًا من البيض وإنما غالبية السكان من الأفريقيين وأكثرهم من قبيلة «جلوا» وبشرتهم

أكثر سوادًا من «الكيكويو» ولباسهم الزى الإفرنجى غير الكامل. وتوجد بينهم جالية هندية إذا رأيتهم بسمرتهم المعروفة فى بلادنا خيل إليك أنهم أكثر الناس بياضًا، وذلك بمقارنتهم فى اللون بأهل البلاد، وأغلبهم إن لم يكن جميعهم يشتغلون فى أعمال التجارة، وقد لفت نظرى فى المدينة معابد الهنود على مختلف دياناتهم فهناك معبد السيخ تظلّله قبّة ضخمة ذات طيات عديدة تشبه القمع (المحقن) المقلوب، ثم هناك معبد الهندوكيين، ومعبد الإسماعيلية أتباع أغاخان، ويسمّونه مسجد، وهناك مدرسة عظيمة كبيرة يديرها الإسماعيليون، ويلحق بها غيرهم من المسلمين، وتسير وفق برامج الحكومة الرسمية..

الذهاب إلى ممباسة:

وردت هذه الكلمة فى رحلة ابن بطوطة مكتوبة هكذا (منبسة) ولكنها لا تنطق الآن، وتكتب الا (ممباسة) وتقع على ساحل المحيط الهندى، وفى الطريق شاهدنا عراةً من قبائلٍ «الماساى» شاهدنا رجلاً وامرأة وطفلاً، أما الطفل فكان عريانًا تماما ولكن عرى الأطفال فى القرى الأفريقية ليس غريبًا - وإنما الغريب أن الرجل والمرأتين كانوا عراةً تقريبًا ليس عليهم إلاّ قطعة من القماش الخفيف وقد وضعه كل منهم على ظهره، وعقد طرفه فى رقبته. وأقل نسمة هواء تطير تكشف قطعة القماش ما تحتها من عورة الرجل والمرأة. ولا يحسّ الواحد منهم بالحياء أو الخجل من ذلك، والحقيقة

أنك لا تستطيع تمييز الرجل من المرأة إلّا بما خلق الله لهما، فالمرأة والرجل كلاهما ليس فى وجهه شعر وكلاهما قد خرق أذنيه وأثقلهما بعدد من الأقراط، بل جعل فى أعلاهما حلقة بيضاء لعلّها من الفضة، تكون قائمة فى أعلى الأذن زيادة على الأقراط والأشياء الأخرى التى تتدلّى منها، والرجل يضع أساور فى عضده وفوق ركبته بخلاف المرأة. كما أنه يحمل عصًا غليظة وهى لا تحملها، وتعتبر قبيلة «الماساى» من أغنى القبائل الأفريقية لأنهم رعاة مهرة، يمتلكون قطعانًا كثيرة من الأبقار، كما أنهم محاربون أشدّاء - ويقال: إن أصلهم من الحاميين أى الصوماليين والجالا الذين قدموا منذ فترة بعيدة إلى تلك البلاد وتغلّبوا على السكان الأصليين الذين كانوا موجودين فيها قبل قدومهم، وهم يعتمدون فى غذائهم على اللبن واللحم، وأفضل الأشربة عندهم هو الدم الممزوج باللبن، وهم جفاة ونسبة التعليم فيهم قليلة، ولم يدخل المسيحية أو الإسلام منهم إلّا عدد ضئيل أمّا غالبيتهم فوثنية حتى الآن، ومن الواجب على المهتمين بالدعوة الإسلامية فى أفريقية أن يعملوا على إيصال الإسلام إلى هؤلاء، وقد جرّبت شخصيًّا - وأنا بتنزانيا دعوتهم إلى الإسلام. لقد سافرت فى رحلة إلى منطقة يكثر فيها عددهم ومعى بعض الأصدقاء الأفارقة، وتحدّثت معهم فى الدين وفى أن هناك خالقًا يسير هذا الكون، وهو الذى يُحيينا ويميتنا، وهكذا بكل يسر وبساطة، ومجاراة لهم فى عاداتهم لم أتركهم إلّا وقد دخلوا فى الإسلام..

ومثل هذه القبيلة يستفاد من إسلامها فى جعل غيرها تعتنق هذا الدين، بل إنها ستدافع عنه ببسالتها وشجاعتها.. وصلنا إلى ممباسا، ووجدناها مدينة جميلة عصرية، فيها أحياء يقطنها الأوربيون وأغنياء الهنود، وقد هجر معظم الأوربيين بيوتهم وتركوها للأفريقيين حيث غادروا كينيا نهائيا كما أن فيها الحىّ الأفريقى «ماجنقو» ومعنى «ماجنقو» الحافّة أو الهامش، والكلمة سواحيلية. وبيوت هذا الحىّ من عشش بنيت جدرانها بالطين، وسقّفت بالقشّ والصفيح - فكأن أولئك الأفريقيين يعيشون فى بلادهم على هامش الحياة بسبب فقرهم وتخلّفهم، وهناك فى ممباسا الحى القديم الذى يبلغ قدمه مئات السنين، ويقع على ساحل البحر ويدعى «لوكالى» وسكانه خليط من العرب الذين استوطن آباؤهم ممباسة، ومن الأفريقيين، وأكثر بيوته مبنية بالطين والحجارة..

والأفريقيون فيها معظمهم من السواحيليين نسبة إلى السواحل «جمع ساحل» والمراد به ساحل شرق أفريقية أو ساحل بلاد الزنج - كما كان العرب يسمّونه فى القديم، وبينهم وبين بقية سكان كينيا من «البانتو» «والزنوج فرق كبير» إذ أن سواد السواحيليين غير حالك - كما أن تقاطيعهم أقرب إلى التقاطيع العربية، وهم فى مرتبة فكرية أعلى من غيرهم من سكان كينيا الأصليين وذلك بسبب اختلاطهم بالعرب واعتناقهم الدين الإسلامى منذ قرون عديدة، ولا شك أن السواحيليين خليط من أبناء العرب الذين كانوا باستمرار

يفدون إلى تلك البلاد منذ قرون طويلة حتى قال بعضهم: إن هجرة العرب وصِلتهم بسواحل شرق أفريقية كانت قائمة قبل الإسلام، وقد ازدادت بعد الإسلام قوّة واتساعًا حتى الآن، أى أن أولئك السواحيليين خليط من الأسيويين والأفريقيين الأصليين، وبذلك اكتسبوا ملامح ميزتهم عن غيرهم من سكان داخل كينيا.

ونساؤهم يتحجّبن لأنهن جميعًا من المسلمين، ولباسهن من عباءة سوداء وغطاء للوجه يشبه اللثام، ولكنه أعلى منه، ويتركن قطعة من خمار الرأس، تتدلّى على الجبهة، وتكاد تلتقى من أعلى اللثام، ولكن يبقى بينهما ما يكفى العينين للنظر، بدون أن يصف الوجه، أما الرجال فلباسهم لباس المسلمين فى شرق أفريقية، وهو جلباب طويل وواسع يضرب إلى الكعبين فوقه صدرى «جاكيت» وعلى الرأس طاقية بيضاء وإذا كان الشخص منهم عالمًا أو وجيهًا لبس عمامةً صغيرة فوق الطاقية، ويضعون على ملابسهم نقوشًا من الخيوط حول الجيوب: ويظهر من جميع أحوالهم أنهم يعيشون بقايا مدنيّة خاصة بهم، كانت قائمة هنا قبل مجىء الأوربيين تشبه إلى حدٍّ كبير ماعليه العرب فى شرق الجزيرة العربية، علما بأن البلاد كلها كانت محكومة بالعرب من العمانيين قبل الاستعمار البريطانى، وكان ساحل كينيا بالذات تابعاً لسلطان زنجبار وقد تولّت الحكومة الإنجليزية إدارتها بالنيابة عنه بموجب معاهدة حماية عقدت بين الطرفين، وقبل الاستقلال اتفقت الحكومة الإنجليزية وحكومة كينيا

الحاضرة عن أن ينصّ فى الدستور «أن للساحل الكينى ثقافته الإسلامية المميزة عن غيره من أنحاء كينيا، وأغلب التجارة والاقتصاد فى مدينة ممباسة بأيدى الهنود، أما الشركات والوظائف الكبرى فكانت بأيدى الإنجليز وقد تخلّوا عن بعضها الآن، ولا يزال بعضها الآخر فى أيديهم، ولكنهم يتركونها ويهجرون البلاد باستمرار خشية على أنفسهم من أن يقع عليهم ضيم من أولئك الأفريقيين الذين كانوا من قبل يحتقرونهم، وحتى العرب هنا فبعضهم متخوّفون من المستقبل، ويقولون: إنهم يخشون أن يأتى يوم يثور فيه الأفريقيون على وجود العرب فى كينيا كما فعلوا فى زنجبار ويقولون: إنه لولا حكمة الزعيم جومو كينياتا وحنكته لكان من المحتمل أن يحصل للعرب من النكبة هنا ما حصل لهم فى زنجبار، ولكن الزعيم كينياتا ناشد الزعيم الأفريقى آن ذاك عبيد كرومى حاكم زنجبارأن يحترم القانون ويرعى جوار العرب ويقولون: إن الزعيم كينياتا ذكّر الأفريقيين بفضل العرب وأياديهم السابقة فى تمدين ساحل شرق أفريقية، وقال: إنهم منكم وليسوا أجانب إنهم يخالطونكم فى السكن، ويشابهونكم فى العادات وبينكم وبينهم أصهار ورحم.. والحقيقة أن الزعيم كينياتا يعتبر هنا الشخص المحبوب المحترم من الجميع، وقد أثبت بمواقفه العديدة فى ضبط النفس وكبح جماح العاطفة الوطنية الأفريقية ما لا يستطيع الكثير من الرجال تحمّله، وكان دائمًا يناشد الأفريقيين احترام أولئك الناس الذين

يعملون فى كينيا ما داموا يحترمون القانون.. ومما يلفت النظر أن أكبر شوارع ممباسا شارع اسمه «سالم رود» وهو منسوب للشيخ سالم بن خلفان أحد رجالات العرب من العمانيين الذين كانت لهم جهود بارزة فى ميدان الحكم والإصلاح فى منطقة ممباسة، ويذكرون أنه عند استقلال البلاد عرض بعض الوطنيين الأفريقيين على الرئيس جومو كينياتا أن يغيّر اسم الشارع فيسمّى باسمه، فامتنع عن ذلك وقال: لقد عمل سالم بن خلفان لممباسة أكثر مما عملت ولذلك لا ينبغى محو اسمه من الشارع فأطلق اسم «جوموكينياتا» على شارع آخر فى ممباسة، وبقى الشارع الأعظم فيها (سالم رود) أو شارع سالم على ما هو عليه.. وطابع مدينة ممباسة طابع إسلامى فالوجه العربى واضح فى نظام مبانيها، وفى كثرة العرب بها، وفى ارتدائهم للملابس العربية وهى عبارة عن جلباب «جاكت» وفى الفجر تسمع كثرة المؤذّنين وارتفاع أصواتهم خلال الليل الساكن لينبّهوا المسلمين إلى صلاة الفجر، ويوجد عدد من الناس يمشون فى الطرقات لينبهوا النائمين لصلاة الفجر مثل مايحدث فى كثير من القرى المصرية حتى الآن - وينادون بأصوات عالية: الصلاة، الصلاة، ياعباد الله الصلاة، والمسجد فى الفجر يعمر بالمصلين ولا تجد فيه مكانًا خالياً، وكأنك فى صلاة الجمعة، لكّن مما يؤسف له أن المسلمين منقسمون على أنفسهم، فمسلمو الهند يعزلون أنفسهم عن المسلمين العرب، ومسلمو العرب يعزلون أنفسهم عن مسلمى

الأفريقيين ومسلمو الأفريقيين يعزلون أنفسهم عن الجميع، بل وقد يظهرون العداء للعرب، وقد نشرت الجرائد منذ مدة أن جماعة من مسلمي الأفريقيين قد طلبوا مقابلة الزعيم جومو كينياتا ليطلبوا منه أن يعيّن لهم قضاة من غير العرب، الذين كان العرف المتبع أن يتولّوا القضاء الشرعى للمسلمين فى كينيا عربهم وأفارقتهم، وبعد الاستقلال أمرت الحكومة أن تشتمل صلاحية قاضى المسلمين مسلمي الهنود أيضًا، ولعلّ ظاهرة بعض الأفريقيين للعرب كانت لها أسباب عميقة الجذور، ساعد على نموّها قدرة القومية الأفريقية، التى نتجت عنها مأساة زنجبار.. وقد قمت بزيارة عدد من المدارس والكتاتيب الإسلامية وأهمّها مدرسة الفلاح ويديرها مواطن عربى حضرمى، كما زرت مسجد سكينة وهو بناء عظيم قامت بالعبء الرئيسى فى إنشائه سيدة مسلمة هندية تدعى «سكينة» وشارك فيه عدد من المسلمين منهم هنود وعرب، وهو يتألف من عدة مبان يضمّها فناء واسع مسوّر بسور خارجى، يدخل إليه من بابين رئيسيين وتظلّله الأشجار الكثيفة، وبداخله المسجد الجامع ومساكن للمسلمين الفقراء، وقاعة اجتماعات كبيرة، ومدرسة لتحفيظ القرآن الكريم – ولهذا البناء الإسلامى الكبير أوقاف تدرّ عليه آلاف الشلنات شهريًا – تكفى لصيانته وترميمه، وهو فى الواقع مفخرة لمؤسسيه، والواقع أن خير ما يفعله المسلمون فى هذه البلاد هو أن يوقفوا الأوقاف على المساجد والمدارس والمؤسسات لكى تستطيع

مواصلة أعمالها، وقد وجّهت المسلمين إلى هذه الفكرة، وحثثتهم عليها، ورحبوا بها كل الترحيب.. وفى ممباسا قاضى القضاة الشيخ «عبد الله صالح الفارس» وهو عمانى الأصل ومن العلماء الفاهمين للدين وأحكامه، ومن أجمل ما عمل تأليفه تفسيرًا للقرآن الكريم باللغة السواحيلية وقد أهدانى نسخةً منه، وراجعت تفسير بعض سوره على ضوء ما تعلّمت من اللغة السواحيلية فوجدت التفسير سهلًا وجيّدًا وقد انتشر بين السواحيليين فى منطقة شرق أفريقية، وأقبلوا على اقتنائه.

المساعدات التى يمكن تقديمها لأبناء كينيا المسلمين:

١ - الجمعيات والهيئات الإسلامية فى كينيا كثيرة، وعلمت أنه يوجد بها أكثر من ثلاثمائة جمعية أو هيئة إسلامية بعضها موجود بالاسم فقط وبعضها مكوّن من ثلاثة رجال أو نحو ذلك، وقد قيل لى: إن هناك أكثر من أربعين جمعية: منها بمنطقة نيروبى، والباقى فى منطقة ممباسة وغيرها، وقد استخلصت من دراستى لأحوال الجمعيات هناك أنها تقوم على أساس عنصرى قومى، فهناك الجمعيات الإسلامية الهندية والجمعيات الإسلامية العربية، والجمعيات الإسلامية الأفريقية وبعض الجمعيات تتبادل التهم مع الجمعيات الأخرى، وحتى الأفارقة قد كونوا جمعياتهم على أساس قبلى فلمسلمى كل قبيلة جمعية خاصة مع أن الإسلام جاء بالمؤاخاة بين

المسلمين، وحارب تميزهم على أساس قبلى أو عنصرى، ولكن الظاهر أن السبب فى ذلك مرجعه إلى أن المجتمع كله عند تأسيس الجمعيات فى عهد الاستعمار الانجليزى قائم على التفرقة العنصرية، وإن لم يكن ذلك مفروضًا بحكم القانون فإنه مفروض بحكم العرف والعادة المتّبعة، لهذا لا أنصح بأن توجه مساعدات إلى أية جمعية هناك. حتى تتّحد الجمعيات كلّها فى جمعية واحدة على مستوى الدولة كلها.

٢ - اختيار طلبة لإكمال دراستهم فى مصر.

٣ - إرسال مدرّسين ومرشدين لتعليم اللغة العربية والوعظ والإرشاد، ويرسل هؤلاء بعد الاتفاق مع الحكومة الكينية ليسهلوا لهم الإقامة وأداء العمل.

٤ - إمداد المساجد الكبيرة بالمصاحف والمطبوعات العربية المترجمة إلى الإنجليزية أو السواحيلية.

النشاط المعادى للإسلام فى كينيا:

دخل الإسلام كينيا منذ أكثر من عشرة قرون حيث نزل العرب فى السواحل - أما فى داخل البلاد فلم يدخلها الإسلام إلّا قبل مائة سنة تقريبا، وتبلغ نسبة المسلمين فى كينيا إلى مجموع السكان ٢٥٪ يقطن معظمهم فى منطقة ممباسة على ساحل المحيط الهندى، حيث

تقدر نسبة المسلمين فى ممباسا بالنسبة إلى بقية السكان ٦٥٪ من العرب والأفريقيين، ثم فى باقى المناطق الساحلية مثل مالينديى ولا مو - روجيرى - التى يتكوّن معظم سكانها من المسلمين الصوماليين - أما بقية المسلمين فيوجدون متفرقين فى كل مكان تقريبًا، حيث يقدّر عددهم فى العاصمة نيروبى ٤٠ ألفا من مجموع سكانها البالغ عددهم ٢٥٠ ألفا، ونظرا لتغلغل الإسلام فى كل مكان فى كينيا فإن النشاط المعادى للإسلام قد كثف نشاطه ليقف فى وجه هذا التيار الزاحف، فدخل التبشير المسيحى إلى كينيا مع الاستعمار الإنجليزى الذى سبق غيره إلى دخول القارة، وقد نجح التبشير فى تنصير عدد كبير من السكان الوثنيين، ولا يزال يواصل جهوده فى داخل الجماعات الوثنية وهى كثيرة هناك، كما يوجد نشاط صهيونى كبير يستخدم سلاح الدعاية والإغراء بالمنح الدراسية والدورات التدريبية فى تحسين سمعة إسرائيل وتشويه سمعة العرب، وأقرب مثال على ذلك فيلم سينمائى أذكر أنه عرض منذ وقت قريب، وهو يصوّر كفاح الأفريقيين للتخلّص من العرب الذين كانوا يستعبدونهم ويذيقونهم صنوف العذاب، على حدّ ما جاء فى الفيلم المذكور كما يوجد نشاط من الجماعات غير الإسلامية التى تتستّر باسم الإسلام كالقاديانية والإسماعيلية، ولكنها لم تحقق نجاحًا ذا بال، مما جعل جهودها تتناقص وتصفّى أعمالها فى كثير من البلاد، ولهذا أرى أن جهود الدعاة ينبغى أن توجّه إلى الوثنيين لدعوتهم إلى الإسلام، وهو

التسابق الحقيقى بين الإسلام ودعاة التبشير، ولا نطمع فى أن نخرج مسيحيا عن مسيحيته ليعتنق الإسلام، بل نطمع فى أن نضمّ هؤلاء الملايين من الوثنيين الذين يعيشون فى فراغ دينى، أن نضمهم إلى الإسلام، والذى يسبق إليهم هو الذى سيجذبهم إليه فلا ينبغى أن نفوّت الفرصة، وندع المجال للتبشير يعمل حسبما يحلو له، والمسلمون من أهل البلاد لا حول لهم ولا طول، إذن يحتاج الأمر إلى معاونة الدول الإسلامية القادرة.

الاقتراحات بعد الجولة الميدانية:

أولا: إنشاء معهد دينى إسلامى على غرار المعاهد الدينية فى مصر. يكون مقرّه فى ممباسا ويقبل فيه طلاب من سائر أنحاء كينيا، ويقوم هذا المعهد بتخريج مدرّس الدين الإسلامى واللغة العربية، كما يعدّ الطلاب الذين يودّون أن يكملوا دراستهم فى إحدى الجامعات الإسلامية بالبلاد العربية.

ثانيا: عدم دفع معونات مالية لشخصيات تدعى خدمة الإسلام، لأن بعضهم يستأثر بها لنفسه.

ثالثا: الإكثار من إرسال المدرسين والدعاة الذين يعرفون اللغة الإنجليزية أو السواحيلية إلى كينيا.

رابعا: توزيع عدد كاف من الكتب الإسلامية باللغتين

الإنجليزية والسواحيلية ثم طبع ترجمة صحيحة لمعانى القرآن الكريم باللغة السواحيلية، إذ أن الترجمة للطالب تسهّل له فهم معانى القرآن، وقد كتبت تفسيرًا للكلمات الصعبة عليهم فى القرآن الكريم باللغة العربية وترجمتها إلى السواحيلية وقد كان له أثره الطيب والحمد لله فى منطقة شرق أفريقية كلها. وقد رأيت ترجمة للقرآن قامت بها جماعة القاديانية ودسّوا فيها أفكارهم. وحذّرنا المسلمين من قراءتها.

خامسًا: مساعدة المدارس الموجودة فعلًا والمنتشرة فى سائر أنحاء كينيا تشجيعا لأصحابها على الاستمرار فيها. وتشجيعا لطلابها وجميعهم فقراء، ومحرومون من التعليم الحكومى..

دراسة ميدانية فى تنزانيا

تنزانيا تتكون من جزيرة زنجبار، وتانجانيقا، وتعدادها ١٢ مليون نسمة، وقد اتّحدتا فى عام ١٩٦٤ وتشكلت منهما جمهورية تنزانيا، وزنجبار أهلها كلهم مسلمون تقريبًا، فنسبتهم ٩٥٪ من عدد سكانها البالغ عددهم حوالى ٢ مليون نسمة. أما تنجانيقا فالمسلمون فيها حوالى ٦٠٪. والوثنيون فيها نسبتهم ٢٥٪ والباقون ونسبتهم ١٥٪ يتكونون من ديانات أخرى، ويتميّز المسلمون هناك بأنهم جميعًا سنّيّة شافعية متصوّفة - وتكثر نسبة المسلمين فى مدن ساحل المحيط الهندى مثل دار السلام وتانجا، أما الهنود فيوجد منهم جميع الطوائف، منهم السنّيون الأحناف، والأباضية، والشافعية، والشيعة الاثنا عشرية.. والإسماعيلية أتباع أغاخان، والبهرة، والقاديانية...

ويلاحظ أن جزيرة زنجبار كان حكّامها من قديم حتى تاريخ الاتحاد مع تانجانيقا مسلمين، فلما اتّحدت وأصبح رئيس الدولة واحدًا، دخلت تحت حكم الرئيس «جوليوس نيريرى» الذى كان مبشرًا بالمسيحية، ويتعصّب لها. ويعمل بذكاء لسيادة المسيحية فى الدولة كلها...

لقد صدر قرار جمهورى بإعارتى مديرًا للمركز الإسلامى بدار السلام عاصمة تنزانيا فى ديسمبر سنة ١٩٧١ م. وسافرت فى منتصف ١٩٧٢ ومكثت هناك ثلاث سنوات ونصف وكل مقرّ نشاطى هو المركز الإسلامى، ومنه انطلقت لزيارات ميدانية خارج الجمهورية وداخل الجمهورية، بحيث لم أترك إقليماً من أقاليم تنزانيا إلّا زرته، ودعوت إلى الإسلام فيه - ولم أترك قبيلة من القبائل إلّا وجلست مع زعمائها وتحدّثت معهم حتى بعض القبائل الوثنية، لقد حاورتهم بهدوء فى وجود الله، وفى اليوم الآخر وأحمد الله تعالى الذى وفقنى لأن يدخل فى الإسلام على يدى قبائل كاملة، وكل ما أرجوه من مصر ومن الغيورين على دعوة الإسلام فى كل بلد عربى وإسلامى أن يمدّوا يد المعاونة المادية لهؤلاء. فلهم من الزكاة سهم المؤلفة قلوبهم، حتى يحتفظوا بإسلامهم ولا تستطيع قوّة خارجية أن تزحزحهم عن عقيدتهم بإغراءاتها المادية، وكثيرًا ما شاهدت حرارة حفاوتهم بنا - وساعدنى على الاتصال المباشر بهم معرفتى باللغة السواحيلية وتخوّفهم من المبشّرين لأنهم يعتبروننا أفارقة مثلهم فبيننا وبينهم علاقات قوية، أما المبشّر فهو أجنبى عنهم - وفد من أوربا أو أمريكا ولا يزال أثر الاستعمار البغيض عالقًا بأذهانهم، لذلك فهم يضمرون فى قلوبهم البغض لهم... وابتدأت قيادات التبشير تلاحظ ذلك فأخذت تعمل على تربية جيل من الشباب الأفريقى المسيحىّ ليكون هو المبشّر بالمسيحية، وبذلك يكون الدعاة منهم ولأهليهم

فيطمئنون إليهم.

حينما سافرت لم أضع فى خطّتى أن أخرج مسيحيًّا عن مسيحيته ليعتنق الإسلام، ولكن ركّزت على الوصول المبكّر للقبائل الوثنية التى تتوق إلى أىّ دين، وأوّل دين يصل إليها ستعتنقه وفعلاً وصلت إليهم مبكرًا، وإن كنت قد وجدت هناك مبشرة تقيم داخل البلاد، وسأتحدث عنها بعد قليل - كما ركزت على تبصير المسلمين بأمور دينهم - لأن معرفتهم به معرفة سطحية لا تتعدّى القشور... وخطّطت ثالثًا لنشر اللغة العربية، لغة القرآن، وقد ساعدنى على تنفيذ هذا التخطيط لغتهم السواحيلية، فأصلها لغة عربية مع قليل من التحريف، وتدخلها كلمات عربية كثيرة سأتحدّث عنها عند الحديث عن اللغة السواحيلية.

وخططت رابعًا لتعليم جيل من الشباب أصول الدعوة إلى الإسلام، ليرجعوا إلى قومهم فيعلموهم ويعظوهم، ويبيّنوا لهم عظمة هذا الدين، وينطلقوا إلى القبائل الوثنية فيدعوهم إلى الإسلام، ويكاد الطالب يكون من نفس القبيلة، وحينئذ يكون الاستماع إليه أقرب، وتأثيره فيهم أقوى.. ويتم تنفيذ هذا التخطيط عن طريق المركز الإسلامى.

أما المبشِّرة التى تحدثت عنها فأمرها ما يأتى: لقد شاهدت فى أثناء رحلاتى فى الداخل مركزًا للتبشير فى منطقة تقع وسط

الجمهورية وتقوم به سيدة أجنبية، والمركز فى منطقة جبلية نائية، وهى تقيم فى منزل أنيق تحيط به حديقة صغيرة، ولديها طائرة عمودية «هليوكوبتر» وضعت هى وطيارها تحت إمرتها لكى تنقلها وقتما تشاء إلى وسط الغابات فتخاطب سكانها وتتحدث معهم بلهجاتهم التى أصبحت تتقنها اتقانًا تاما، وتقدم الهدايا إليهم، وتعيش بينهم أيامًا، ثم تصحب المجذومين منهم بطائرتها إلى المركز العلاجى للجذام الذى أقامته وزوّدته بالأطباء والممرضات.

فى تلك المنطقة بالذات رأيت القوة الروحية للإسلام أمام ضخامة القوة المزودة بها البعثات التبشيرية، فالقسيس الذى كانت هذه السيدة المبشّرة قد أعدّته من أهالى المنطقة ووضعت الإنجيل المكتوب باللغة المحلية بين يديه لكى يسير داعيًا إلى المسيحية وسط أهله وعشيرته، ويعاونها فى جذب المزيد من السكان إلى حظيرة الكنيسة، هذا القسيس نفسه تحوّل إلى الإسلام عندما التقى بواعظ مسلم من أهل بلده، وصادقه دون أن يقدم إليه هذا الواعظ شيئًا فى مقابل ذلك، ودون أن تكون لديه وسائل الانتقال إلى الغابة بالطائرات العمودية، أو علاج المجذوبين أو تقديم الكساء لمن يريد، وكل الذى استطاعه هو أنه عيّنه بعد دخوله إلى الإسلام مؤذنًا بمسجد القرية الذى يؤمّ المسلمين للصلاة فيه...

لكن هناك مبشرًا آخر عاش فى قبيلة من القبائل، ووجد أن بها

رجلاً يشتغل بالسحر، وقد استحوذ على مشاعر قومه، فهم يجلّونه ويقدرونه، وقد حاول المبشّر أن ينفذ إلى قلوب الناس ويجذبهم إليه فلم يستطع لقوّة الساحر بينهم، ومكانته فيهم، وأخيرًا اهتدى إلى هذه الحيلة.. لقد سألهم ذات يوم هل يستطيع الساحر أن يخلع أسنانه جميعًا أمامكم، ثم يعيدها إلى فمه دون أن تنزف منه قطرة دم، ودون أن يحسّ بألم.

فسألوه: وهل تستطيع أنت؟ فأجاب بنعم، وهنا سارع الأهالى إلى إعداد الاحتفال اللازم وأهابوا بالساحر أن يقبل التحدّى، واثقين أنه سوف يبطل حجّة المبشر ويتغلّب عليه وأوقدوا نارًا وبدءوا رقصاتهم استعدادًا للتبارى بين قوة الساحر وقدرته وبين المبشر وما يقول. وعجز الساحر بطبيعة الحال عن أن يقوم بشىء مما طلبه المبشّر فتقدّم الأخير وأخرج أسنانه جميعًا، ثم فتح لهم فاه فلم يروا فيه سنّةً واحدة ولا ضرسًا باقيا، ولم يشاهدوا دما ينزف ولا جرحا. وبعد قليل أعاد المبشر أسنانه إلى مكانها وشرع بتناول طعامه أمامهم فى لذّة وسرور.. ولم يخطر ببال أحدهم بطبيعة الحال أنها أسنان صناعية...

وصلت مطار دار السلام مساء الخميس، وأوّل ما سمعته كلمة «السلام عليكم» يقولونها بحرارة ترحيبًا بالقادم إلى بلادهم، فاستبشرت بذلك خيرًا من أوّل لحظة لوجودى فى هذه البلاد –

وسمعت منهم أيضًا كلمة كان وقعها فى أذنى مألوفًا كأننى سمعتها وعرفتها من قبل أن أصل إلى هذه المنطقة هى كلمة «آهسنتى سانا» وشعرت وقتها بأننى كنت أيضا أقولها معهم، ثم عرفت فيما بعد معناها وهو أحسنت صنعا باللغة العربية وقد حذف منها حرفا الحاء والعين لاستحالة النطق بهما، وسمعت غير ذلك كثيرًا من الكلمات العربية، وأيقنت أن اللغة السواحيلية التى يتكلمون بها فى شرق أفريقية هى مزيج من اللغة العربية واللهجات المحلية...

وتفاءلت مرة ثانية فى اليوم التالى لوصولى، وهو يوم الجمعة، لقد خرجت مع أحد الزملاء قبل وقت الجمعة لأداء الصلاة، فى المسجد الجامع.. وقد نزلنا فى حىٍّ بعيد عنه اسمه حى «أوبيخا» ووقفنا فى الطريق العام ننتظر سيارة أجرة توصلنا إلى المسجد، وما هى إلاّ لحظات، حتى مرّت سيارة، وأشرنا إليها ووقفت، وركبناها وانطلقت وسألنا السائق بلغة عربية ركيكة: إلى أين؟ قلنا: إلى المسجد الجامع، ووصلنا إلى المسجد الجامع، وأخرج صاحبى نقودًا محليةً ليحاسبه فقال: لا يا شيخ اليوم يوم الجمعة، سألنا: وما معنى هذا؟ قال: إن يوم الجمعة أعمل فيه من الصباح إلى وقت الصلاة، أنقل الركاب إلى المسجد بلا أجر، وفى آخر الوقت أصلّى فى المسجد الذى وصلت إليه، وبعد الصلاة أبدأ فى العمل بالأجر.. هكذا شأنى كل يوم جمعة، إن هذا واجب على نحو إخوانى المسلمين، فى معاونتهم

لأداء الفريضة، فاستبشرت كذلك خيرًا وقلت فى نفسى: والله هذه البلاد فيها خير كثير، وإن للإسلام بها شأنًا جليلاً...

ومرّت بى الأيام، وتعدّدت مشاعرى وأحاسيسى، ففى كل مدينة زرتها رأيت العمارات الشاهقة والمبانى الحديثة، والفنادق الفاخرة والسيارات الأنيقة مثل ما رأيت فى نيروبى وكمبالا ودار السلام، وفى كل بقعة من الريف ذهبت إليها شاهدت الطبيعة ساحرة بجبالها وغاباتها وطرقاتها البكر وبحيراتها وأشجارها وطيورها المتعدّدة النوع والشكل. قابلت مسيحيين ومسلمين ووثنيين ورأيت الكنائس والمساجد، وشاهدت الرقصات الوثنية والاحتفالات بالشعائر التقليدية التى تحملك معها إلى عالم من الرهبة والغموض، وشاهدت الحياة فى الأقاليم حيث الطبيعة الفاتنة بسحرها وجمالها الذى تصنعه الطيور بألوانها الزاهية والتربة الحمراء مع لون الشجر الأخضر، والسماء الصافية الزرقاء، وصورة أرضها وسكانها وطقوسهم وحياة الناس وشعائرهم.. إن هذه المنطقة لا يقال عنها إنها من أفريقية السوداء ولكنها من أفريقية الخضراء...

المركز الإسلامى ودوره الإسلامى

حينما زار الرئيس المغفور له جمال عبد الناصر فى أواخر الستينيات جمهورية تنزانيا، بدعوة من صديقه الرئيس جوليوس نيريرى - التقى به زعماء المسلمين، وطلبوا منه أن تمدّهم مصر، بصفتها رائدة العمل الإسلامى بالمساعدات، حتى يستطيع المسلمون هناك أن يواجهوا التحدّيات العنيفة من التبشير المؤيّد عالميًّا من قيادات المسيحية، سواء أكان من الحبشة أو إيطاليا أو انجلترا أو أمريكا ومن الاستعمار وأعوانه فى المنطقة، ففكّر بأفقه السياسى البعيد فى أنه لو أعطاهم منحةً مالية فإنها ستنفق وسيزول أثرها بعد زمن قصير، مع ما يلاحظ من أن بعض زعماء المسلمين فى تلك المناطق ينتهز مثل هذه الفرصة ليحقق لنفسه كسبًا ماديًّا باسم العمل الإسلامى؛ لذلك قال لهم: سنهديكم مركزًا إسلاميا يعلّم أبناءكم اللغة العربية وعلوم الدين.. وقابل «نيريرى» وطلب منه قطعة أرض لتبنى مصر مركزًا إسلاميًّا عليها ويكون ملكًا للمسلمين التنزانيين.. ورحّب «نيريرى» بالفكرة، وأهدى المسلمين أرضا

متسعة يبنى عليها مركز كبير، وأهداهم حوالى فدانين من الأرض، لكن فى أي مكان من العاصمة؟ فى ضاحية من ضواحيها تسمى «تشانجومبى» وهى تبعد عن وسط العاصمة من حيث التجمعات الجماهيرية المسلمة بحوالى عشرين كيلو مترا. والقصد من ذلك ألّا يكون المركز فى وسط التجمعات الإسلامية، بل إن بعده عن وسط المدينة يجعل نشاطه محدودًا... وقامت وزارة الأوقاف ببنائه، إنه بناء كبير به حوالى عشرين حجرة، وقاعة محاضرات، وحجرة مكتبة واسعة، وجناح لعيادة طبية.. سافرت والمركز مبنى ولكن لا نشاط له. فخططت لنشاطه بحيث يكون متعدّد الأنشطة.

أولاً: المسجد:

لم يبن أمام المركز مسجد كما كان متفقًا عليه وكما هو مبين برسم إنشاء المركز حيث يلحق بالمسجد، لم يبن بسبب الحالة الاقتصادية التى تعانى منها مصر آنذاك، لهذا جعلت فناء المبنى وهو فى سعة مسجد من المساجد الكبيرة مسجدًا، فرشته بالحصير، وحدّدته بأخشاب متحركة، وأحضرت له مكبر صوت، وأسطوانات مشاهير القراء المصريين، ومنضدة وكرسيًّا بدلاً من المنبر، وصنعنا مئذنةً فوق المركز من الصاج ووصلنا بها تيارًا كهربيًّا ولمبات كهربية حتى إذا ما أضىء فى الليل رآه جميع سكان هذه الضاحية، مع الضواحى المجاورة، وعلّق عليها سمّاعات فى مختلف الاتجاهات، ويؤذّن فى هذا

المسجد للأوقات الخمسة، فيسمع الأذان كل من بالجهة ويحضرون للصلاة، وفى يوم الجمعة تدار الأسطوانات بالقرآن الكريم، حتى موعد الصلاة وكنت أخطب فيه الجمعة باللغة العربية، ثم نفسرها بالسواحيلية، وما هى إلّا أسابيع حتى عرف شأن هذا المسجد فى جميع مدينة دار السلام، وكنت ترى يوم الجمعة مئات السيارات الوافدة من مختلف الجهات، يحضر فيها المسلمون ويقولون: سنصلّى الجمعة فى مصر، لأنهم يسمعون القارئ المصرى وخطبة الجمعة من الشيخ المصرى وشدّ كثيرًا من شباب جامعة دار السلام المسلمين، الذين كانوا يجلسون بعد الصلاة ليسألونى أمور دينهم. وفيما يعرض لهم من مشاكل فى دراستهم وتعاملهم مع زملائهم غير المسلمين وكثيرًا ما دعونى إلى أن أحاضرهم فى الجامعة بعد أن كوّنوا فيها اتحاد الطلاب المسلمين، وقد حاضرتهم فى موضوعات كثيرة منها «مسئولية الشباب المسلم» «مناقشة حول تعدّد الزوجات فى الإسلام» «الطلاق من وجهة نظر الإسلام» «المذاهب الفكرية المعاصرة وموقف الإسلام منها» وكان يدور حوار حرٌ بينى وبينهم بهدف استجلاء الحقائق عمّا يثار حول الإسلام من أعدائه علمًا بأن النشاط التبشيرى تغلغل وسط الجامعة، وكان يأتى للصلاة فى مسجد المركز سفراء الدول العربية والإسلامية، وكثير من الهنود والباكستانيين المسلمين.. وقد أدّى هذا المسجد – والحمد لله – دورًا كبيرًا فى تجميع كلمة المسلمين وفى توعيتهم بأصول دينهم..

ثانيًا: المعهد الدينى:

أنشأت به معهدًا دينيًّا على نظام معاهد الأزهر بحيث ندرّس فيه العلوم الدينية والعربية، والعلوم الحديثة، واللغة الإنجليزية، وقد أدخلنا فيه هذه المواد الحديثة - لأننا نجحنا فى الاتفاق مع وزارة التربية والتعليم التنزانية بأن تأخذ خريجيه للعمل مدرّسين للدين بمدارس الحكومة، وبهذا وجد الشباب المسلم مجالاً للعمل فى الحكومة، بعد أن كان لا يجد فرصة لذلك..

وقد وصل هذا المعهد الآن بطلّابه إلى السنة الثانية الثانوية، ويضمّ حوالى ثلاثمائة طالب، واعترف الأزهر بشهادته الإعدادية، ومن المتّفق عليه أن يعترف بشهادته الثانوية بعد أن يصل إليها الطلاب، وبذلك يكون للأزهر معهد إعدادى وثانوى على شاطئ المحيط الهندى، يؤهّل لجامعة الأزهر.. والطلاب يتنافسون فيما بينهم من أجل الحصول على منح الأزهر الشريف، وقد قدّمت الجامعة الإسلامية بالمدينة المنوّرة وأنا هناك منحتين لطالبين من طلّاب المعهد، وقدّم السودان كذلك بعض المنح، وقدّم الأزهر منحتين لطالبين من طلّابه، وإن كانت إجراءات سفرهما تأخذ وقتًا طويلاً قد يصل إلى سنة حتى يتمكّنا من السفر، بحسب الإجراءات البطيئة التى تتّخذ فى الأزهر، ويدرّس بالمعهد مبعوثون من وزارة الأوقاف

ومن الأزهر الشريف، ويدفع الأزهر نفقات مبعوثيه وتدفع الأوقاف نفقات مبعوثيها، وهم ما بين علماء لتدريس الدين واللغة العربية، وما بين خريجى كلية الآداب لتدريس المواد الحديثة واللغة الإنجليزية، وتسير الدراسة فى هذا المعهد حتى الآن بانتظام، وقد أسميته «معهد الدراسات الإسلامية» وقد أعددت خطّة الدراسة بالمعهد واعتمدها الأزهر الشريف للمرحلتين الإعدادية والثانوية.

ثالثًا: الجامعة الشعبية:

المعهد تقوم الدراسة فيه نهارًا طبقًا لمناهج محدّدة ولحصص منظمة وفيه كشوف لحضور وغياب الطلاب، لكن هناك كثيرًا من الرجال المسلمين الموظفين والتجار، تقدّموا برغبة فى تعلّم اللغة العربية - لغة القرآن الكريم - وهم لا يعرفون كلمةً واحدة منها، فماذا نصنع معهم؟ لقد أنشأت لهم دراسةً حرّةً فى اللغة العربية والدين الإسلامى من العصر إلى المغرب كل يوم، ويدرّس لهم أساتذة المعهد، وقد أقبل على هذه الدراسة مئات من المسلمين من مختلف الأعمار، ومختلف المهن، فكنت ترى مديرى مصالح حكومية مسلمين، ومديرى شركات - وتجارًا - وعمّالاً - وشبابًا - ومن لا مهنة له، يجلسون جميعًا فى فصول ليدرسوا لغة القرآن، التى يعشقونها ولم يجدوا وسيلة لتعلّمها «وأحمد الله» على أن ما عندهم من رغبة قويّة فى تعلمها جعلهم بعد أشهر قلائل يجيدون التحدّث بها وكتابتها وكانوا

يفخرون بذلك، ويحاولون أن يتحدّثوا باللغة العربية مع بعضهم ومعنا..

رابعًا: العيادة الطبية:

وفى المركز كذلك خدمات طبية، فقد تبرّعت وزارة الصحة المصرية بإمداده بالأدوية المختلفة خصوصًا أدوية المناطق الحارة، وأسهمت وزارة الأوقاف فى تأسيس جناح من هذا المبنى، تكون به حجرتان للكشف على المرضى، وصالة واسعة للانتظار، وصيدلية تصرف الدواء بمبلغ رمزى يصرف على أجر الصيدلانية والخادم الذى ينظّف العيادة، واشترينا الأجهزة الطبية اللازمة، وأوفدت وزارة الأوقاف طبيبًا مصريًا وطبيبةً، وكان الطبيب يفحص الرجال والطبيبة تفحص السيدات، من جميع الأجناس والديانات، ويدفع المريض خمس شلنات يفحص بها لمدّة سنَة، كأجر رمزى يصرف على تنظيف العيادة وعلى أجرة العمال بها، ويفحص الطبيبان فى اليوم عددًا لا يقل عن مائة مريض، والعمل فى العيادة يستمر يوم الجمعة لأن العطلة الأسبوعية كما هو متبّع فى الدولة يوم الأحد، والجميل أن العمل فى العيادة يبدأ فى الصباح حتى قبيل وقت الجمعة، فيتهيّأ جميع من بالعيادة من المرضى المسلمين والمسلمات لأداء صلاة الجمعة والاستماع إلى خطبة الجمعة، وكان ذلك يعطيهم نوعًا من الاطمئنان إلى أن الله تعالى سيهيّئ لهم الشفاء، ولذا كنت ترى العيادة فى يوم

الجمعة تزدحم ازدحامًا غير عادى بسبب تبركهم بهذا اليوم المبارك من جهة، ولوجود فرصة لصلاة الجمعة لهم فى مسجد مصر، كما أطلقوا عليه من جهة ثانية، وقد هيّأنا مكانًا خاصًّا لصلاة السيدات، فى مؤخرة الصفوف..

خامسًا: القسم النسائى:

المرأة التنزانية لا تستطيع أن تمسك الإبرة بيدها لتركّب زرار قميص، فضلًا عن أن تخيط ثيابًا لها أو لأطفالها، وكل شىء يرسلونه «للفوندى» أى الصانع، حتى ترقيع الثياب، وقد فكّرت فى إنشاء قسم ليتعلّم السيدات حياكة الثياب، والتطريز وأشغال الإبرة، ووجدت سيدة مصرية زوجة أحد المبعوثين متخصّصة فى هذا الفن، فتطوعت بتدريب السيدات التنزانيات، وساعد سفيرنا المصرى[1]، فى إنشاء هذا القسم وأهداه ثلاث ماكينات خياطة تدار بالكهرباء، وأعلنّا فى الصحف عن إنشاء هذه الدراسة بالمجان، فانهالت الطلبات من مختلف أنحاء تنزانيا وأخذنا فى أوّل دفعة مائة سيدة، واستمرّ تدريبهن ٦ أشهر تخرجن بعدها يجدن تفصيل الثياب وأشغال الإبرة، فصنعن المفارش المختلفة، وأقمنا معرضًا لمنتجات

---

(١) كان فى هذا الوقت هو السفير محمد فؤاد البديوى، وكان من المتحمسين للمركز أشدّ التحمّس، ومن المؤمنين بدوره فى خدمة الدعوة الإسلامية فى هذه المنطقة «وهو الآن سفير مصر فى جمهورية زائير».

القسم ودعونا إليه كبار المسئولين التنزانيين وزوجاتهم والسفراء العرب والمسلمين، وقد اشتروا جميع المعروضات وسرّوا سرورا بالغًابهذا النشاط «وأعطينا شهادة تخرج لهؤلاء السيدات» وهى شهادة فخرية فقط، وأخذنا دفعة ثانية لمدة ٦ أشهر كذلك، وقد استطاعت الكثيرات من المتخرجات أن يشترين ماكينات خياطة لهن ويصنعن بالأجر ملابس للسيدات والأطفال، وبهذا وجد باب رزق شريف جديد للمرأة المسلمة التنزانية...

سادسًا: المكتبة:

توجد قاعة فسيحة لمكتبة إسلامية، أمدّها المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالعديد من الكتب من مطبوعاته، والعديد من المصاحف، وقد أهدى المكتبة كذلك سفراء الدول العربية عددًا كبيرًا من مطبوعات بلادهم، وأهدتنا السعودية الكتب المدرسية التى تدرس فى معاهدها، وقد وزعناها على الطلاب ليدرسوا فيها اللغة العربية، والتفسير والحديث، وينقص هذه المكتبة ركن للكتب الدينية باللغة الإنجليزية ليقرأ فيها من لا يعرف اللغة العربية، كذلك ينقصها كتب باللغة السواحيلية، وهى ضرورية جدًّا لنشر الثقافة الإسلامية بلغة الشعب التنزانى، ولولا ما نقدّمه لها من بعض كتبنا التى كتبناها بالعربية وترجمت إلى السواحيلية ما وجدوا ما يقرءونه بلغتهم، وذلك مثل كتاب «أيسر التفسير لكلمات القرآن الكريم»

«ودليل الحاج» «ومسئولية الشباب المسلم» «والإسراء والمعراج» والصيام، وبعض المحاضرات الدينية وبهذه المناسبة أناشد المسئولين عن نشر الثقافة الإسلامية فى هذه المنطقة من الدول العربية والإسلامية أن يقدّموا لهم مطبوعات باللغة السواحيلية إن أرادوا أن ينشروا قيم الدين الإسلامى.. وأن يسهموا فى الدعوة إلى الله فى هذه المنطقة..

سابعًا: قاعة المحاضرات:

وقد استخدمناها فى الاحتفالات الدينية فى المناسبات المختلفة، مثل عيد الهجرة، ومولد النبى، والإسراء والمعراج، واستقبال شهر رمضان، وغزوة بدر الكبرى، وليلة القدر، واستقبال العيد، والاحتفال بسفر الحجاج التنزانيين، فضلًا عن التمثيليات التى درّب عليها طلّاب المركز وأدّوها خير أداء باللغة العربية مرةً، وباللغة السواحيلية أخرى، وهى تمثيليات دينية مثل إسلام عمر، والهجرة..

ثامنًا: مجلة رسالة الإسلام:

وقد أنشأناها بالمركز وتكتب على الآلة الكاتبة وتطبع على «الرونيو» وتوزّع بالمجان، وقد طبعنا غلافها فى وزارة الأوقاف المصرية بالألوان، ثم يجمع أوراق العدد بعد طبعه ويوضع داخل هذا الغلاف، ويدبّس ثم يوزّع هدية من المركز إلى المسلمين بالمجان.

وهى قسمان: قسم باللغة العربية وقسم باللغة السواحيلية، وهى تعرض قيم الإسلام بأسلوب مبسّط سهل يفهمه الجميع وترد إليها مجموعات كثيرة من الفتاوى والأسئلة من مختلف أنحاء منطقة شرق أفريقية ونجيب عليها فى عدد المجلة، وتوزّع الأعداد على كبار المسئولين الإسلاميين فى تنزانيا، وعلى الجالية العربية، وترسل إلى كبار المسلمين فى أوغندة وكينيا وزنزبار، وبذلك عقدنا صلةً ثقافية بين المركز وبين المسلمين فى المنطقة، وهى المجلة الإسلامية الوحيدة التى تنشر فى شرق أفريقية وتكتب بالعربية والسواحيلية وهى شهرية وتصدر فى غرّة كل شهر هجرى.

تاسعًا: النشاط الرياضى

شباب المركز عندهم طاقة جسمانية قويّة فوجهتها إلى النشاط الرياضى وأقيم فى المركز فريق لكرة القدم، وكرة السلة، والكرة الطائرة، وكرة البنج بونج وبذلك أحسّ شباب المركز بأنهم لا يقلّون عن شباب أية مدرسة حكومية فى مزاولة الأنشطة المختلفة..

وقد جعلت هذا الشباب يعمل فى زراعة الأرض الواسعة المحيطة بالمركز ويزرعونها بالخضر السريعة الإنتاج ويوزّعونها على بعضهم، وزرعوا بعض الأشجار المعمّرة مثل الباباى وشجر «النارجيل» أى

جوز الهند - وشجر المانجو - وقد أثمرت أشجار الباباى وأنا موجود هناك.

إن أهمية هذا المركز تتّضح إذا علمنا أن المسئولين عن التعليم يضعون قيودًا شديدة على تعليم أبناء المسلمين بحيث لا يجتاز المرحلة الإعدادية إلاّ عدد قليل منهم، ولا يجتاز المرحلة الثانوية إلا أقل القليل، ثم لا يدخل الجامعة إلاّ أعداد محدودة، ويبقى الآخرون للوظائف المتوسطة، أما الوظائف العليا فى الدولة فلا يشغلها فى الأعم الأغلب إلاّ شباب غير المسلمين، ولعلك لا تعجب إذا عرفت أن وزير التعليم الحالى فى تنزانيا كان قسيسًا، وجاء الكنيسة وخلع ثياب الرهبان ولبس الملابس المدنية وولِيَ وزارة التعليم...

اقتراحات لتنشيط المركز

أوّلاً: يفد إلى المركز شباب من مختلف مناطق تنزانيا، بل وفد إليه شباب من جزر «الكومورو» والتى استقلت حديثًا، ومن كينيا وزنزبار، وهؤلاء الطلاب قد وفدوا ليتعلّموا فى معهد الدراسات الإسلامية بالمركز الإسلامى، وليس لهم أهل يقيمون عندهم، لكنهم يقيمون فى المساجد، والمساجد أكثرها فى وسط المدينة، فيحضرون إلى المركز صباحًا كل يوم ويمشون مسافة عشرين كيلو مترا،

ويعودون بعد الظهر كذلك سائرين على أقدامهم.. ومن المشاهد التى أثّرت فى نفسى تأثيرًا بالغًا وكتبت عنها فى بعض الصحف المصرية، مشهد ذلك الشاب الوافد من آخر منطقة فى تنزانيا على الحدود بينها وبين أوغندا، ويقيم بأحد المساجد، وهو شاب مواظب وممتاز وحريص على تلقى العلم، وكل أمله أن يكمل تعليمه فى الأزهر الشريف، لاحظت يومًا أنه لم يحضر إلى المعهد، ولفت ذلك نظرى لأننى أتابع نشاطه وأتوقع له مستقبلاً طيبًا يمكن أن ينتفع به فى خدمة الإسلام فى هذه المنطقة ولطالما قلت: إن إقامتنا نحن المصريين هنا محدودة، ويجب أن نكوّن جيلاً من شباب هذه البلاد يحملون عبء الدعوة إلى الله، والقيام بإدارة هذا المركز والمعهد الدينى وهم أقدر الناس على نشر الإسلام بلغة أهل البلاد وبلهجاتهم المختلفة، وحينما نطمئن إلى وجود من يحمل المسئولية، ننقل نشاطنا إلى منطقة أخرى من مناطق أفريقية، وهكذا حتى يكون للإسلام دعامة من بين أبناء المناطق التى تريد نشر الإسلام فيها، ولما جاء هذا الشاب فى اليوم التالى سألته: يا خميس، وهو اسمه - لماذا لم تحضر بالأمس؟ فأجاب بصراحة - ومن عاداتهم الصراحة فى كل شىء: مولانا الشيخ، أنا أحصل من بعض أولى الخير على شلن كل يوم كمساعدة، هذا الشلن أفطر منه وأتغذّى وأتعشى وأرقد فى المسجد، وأذهب إلى المركز صباحًا ماشيًا على قدمى وأرجع ماشيًا كذلك - يعنى يقطع أربعين كيلو مترا يوميًا ذهابًا وعودة - وأمس

أحسست بأن صحتى لا تساعدنى على المشى، فإذا ركبت الأوتوبيس بنصف شلن ذهابًا وبنصف شلن عودة بقيت اليوم كله بلا طعام، وقد جربت ذلك من قبل فازداد تعبى، لهذا تخلّفت كارهًا تخلّفى عن حضور الدراسة، أرأيت كفاحًا فى سبيل التعليم أشقّ من هذا الكفاح؟ فى الوقت الذى يرى فيه الشباب غير المسلم يعيش العيش الطيب، وتغدق عليه المعونات من كل مكان، لكن ضريبة الدعوة إلى الإسلام يتحمّلها أمثال هذا الشاب المؤمن إيمانًا بالله لا يهتز وثقة بنصره لا تتزعزع، وأذكر أننى حين نشرت هذا المشهد فى إحدى صحفنا المصرية كتب إلى أحد الأطباء المصريين الذين يعملون فى ليبيا وفى مدينة «الخميس» عارضًا معاونته لهذا الطالب، وفعلًا أرسل إليه مبلغًا من المال فرح به الطالب أيما فرح. وتأكد له أن المسلمين يحسّون إحساس إخوانهم المسلمين فى كل مكان وأن المسلم لن يضيع من الله ولا من إخوانه المسلمين..

لهذا أقترح على مصر إقامة قسم داخلى يلحق بالمركز إمّا حوله - والمكان متسع - وإما أعلاه، ويؤثث ليتسع لخمسمائة طالب من الوافدين من خارج دار السلام، وحبّذا لو أعطى كل واحد شلنًا فى اليوم ليأكل منه، ويشرف على هذا القسم الداخلى أساتذة المركز ويتناوبون المبيت فيه كل واحد ليلة فى الأسبوع بحيث يعيش الشيخ المصرى مع الطلاب إعاشة كاملة، ويسألهم عن أحوالهم، ويسألونه عن الصعب فيما يتعلّمون، ويتعوّدون منه النطق العربى

السليم، وأنا واثق من أن هذا النظام لو اتبع فلن تمضى عشر سنوات إلّا ويكون عندنا سفراء دينيّون من أبناء المنطقة تعلموا وأقاموا، وعادوا إلى قومهم يعلّمونهم، ويثقّفونهم تحقيقًا لقوله تعالى: ﴿فلوْلا نفَر من كل فرقةٍ منهم طائفةٌ ليتفقّهوا فى الدين وليُنذِروا قومَهم إذا رجعوا إليهم لعلّهم يحذرون﴾[1].

والأصل فى العمل الدينى أن يقوم على التطوّع والاختيار والرغبة فى العمل فى هذا المجال، وذلك كله موجود لدى هذا الشباب المؤمن المتحمس الغيور على دينه. فى مواجهة النشاط التبشيرى المكثّف فى هذه المنطقة.

ثانيًا: يلحق بالمركز قسم للتعليم المهنى، وما أشدّ احتياج المسلمين هناك إلى وجود الصانع المسلم الماهر، إن الصناعة احتكرها غير المسلمين، واحتكرها كذلك الهنود فلماذا لا يتدرّب الشباب المسلم على بعض المهن، ليأكل عيشه من كسب يمينه، وعرق جبينه، إذا وجد هذا القسم فيتدرّب الشباب على حرفة النجارة، وما أكثر الثروة الخشبية عندهم، وعلى السباكة - وعلى أعمال الكهرباء - وعلى ميكانيكا السيارات، وحبذّا لو عملت بعض الأنوال اليدوية الصغيرة لتدريبهم على صناعة الأكلمة، وفى نفس الوقت يدرسون دراسة نظرية فى العلوم الدينية والعربية، فيتخرج الشاب وهو مُلِمٌّ

(١) سورة التوبة آية ١٢٢.

بأصول دينه، ومعه حرفة يعيش منها.. كما صنعنا فى القسم النسائى، لقد كانت المرأة تتعلّم صناعة التفصيل وحياكة الملابس، وفى نفس الوقت تتعلّم الكتابة العربية، وتحفظ بعض سور القرآن القصيرة، فتعلمت الدين والدنيا معًا..

إن ملاحظاتى حينما أزور مصلحة حكومية أو مصنعًا من المصانع، أو متجرًا من المتاجر أن أرى رؤساء المصالح، ومديرى المصانع، والفنيين بها وأصحاب المحال التجارية من غير المسلمين، أمّا المسلمون فهم السعاة فى المصالح الحكومية وهم الخدم فى المصانع والمحلات التجارية، وهذا يضفى جوًّا من الهوان على المسلمين، وبالتالى لا يجعل للإسلام العزّة التى أرادها الله له وللمؤمنين، فالتعليم إلى آخر مداه، والمنح الدراسية الكثيرة والتدريب المهنى، كل ذلك يجعل للمسلمين قيمة فى بلادهم، ويكونون بوضعهم الاجتماعى الممتاز خير دعاة للإسلام..

وصف لمدينة دار السلام

مدينة دار السلام عاصمة جمهورية تنزانيا وهى ميناء بحرى هام، تقع على شاطئ المحيط الهندى، وهى مدينة تجارية عريقة فى التجارة، ويظهر من وجوه أهلها ومظهرهم العام أنها ليست فى مستوى نيروبى أو كمبالا فى جودة الهواء، وكثيرًا ما نرى مظاهر عدم الصحة على

الوجوه، مع أنها ليست بها أوبئة عامة وتشرب دار السلام من ماء نهرى. ولكن يطهّر بأدوية كثيرة ولا تكاد تستسيغ شرب الماء بسبب شدّة ظهور طعم الأدوية المطهّرة وخاصة مادة الكلور فيه، والجوّ فيها حارّ رطب، وتوزيع سكانها يتم كالآتى: الأوربيون ويسكنون فى فلّات متباعدة محاطة بحدائق كبيرة، مشجرة الشوارع، نظيفة غاية النظافة وكأنها مدينة قائمة بذاتها، وتقع على شاطئ المحيط الهندى، تليها مدينة متّصلة بها للهنود، وفيها غالبًا الأحياء التجارية وتتألف بيوتها من طابقين أو ثلاثة، ومعظمها مبنى بالأسمنت المسلّح وشوارعها ضيّقة غير مشجّرة ولكنها مرصوفة، ثم العرب ويسكنون مع الأفريقيين فى أحياء واحدة لأنهم يتعايشون معهم ويصاهرونهم. ولهم بهم صلات ودٍّ وأخوّة منذ زمن طويل، وينظرون إلى العرب نظرة احترام وتقدير فمنهم السادة الذين ينتسبون إلى آل البيت، ومنهم الفقهاء والمعلّمون وحفظة القرآن الكريم، وتلك ميزة يتميّز بها العرب عن غيرهم، لأن الهنود من طبيعتهم أنهم متقوقعون على أنفسهم حتى إن لهم مساجدهم الخاصة بهم ومعابدهم المختلفة، ولا يصاهرون أحدًا من الأفارقة، ولعل هذا التوزيع فى المساكن قد تمّ بذكاء من الأوربيين، فهم يتوقعون من قديم أن تقوم ثورة عليهم من الأفريقيين، فيجدون أمامهم حاجزًا حصينًا وهم الهنود، وحتى يصلوا إليهم يكونون قد ركبوا البواخر التى لا يخلو منها شاطئ المحيط وغادروا البلاد، ويبلغ عدد العرب فى دار السلام وحدها حوالى

عشرة آلاف عربى مسلم، أمّا فى الجمهورية فلا يقلّون عن ربع مليون؛ لأنك تراهم فى كل مكان ويشتغلون فى التجارة وفى الزراعة، وبعضهم موظفون فى الشركات وأغلبهم من حضرموت وعمان، وتوجد أقلية منهم من اليمن وعدن، وليس فيهم من عرب الشرق الأوسط أحد... وحينما تتجوّل فى دار السلام يلفت نظرك كثرة العرب بلباسهم المعروف: الجلباب الأبيض وعليه الجاكت والطاقية والمسلمون هناك يلبسون هذه الملابس، ويحرصون على لبس الطاقية التى تميّزهم عن غير المسلمين.

ويسترعى الانتباه فى دار السلام كثرة المساجد، وإن كان لا يوجد فيها مسجد يقع على الشاطئ لأنه - كما قلت - مكان لسكنى الأوربيين - وأكبر المساجد فى وسط البلد يقع فى حىّ العرب واسمه المسجد الجامع، وتقام فيه الجمعة والاحتفالات الدينية، ويصلّى فيه العيد، ويحضر الصلاة ممثلو الحكومة من المسلمين، وكبار رجال الدولة ووجهاء البلاد، وإمام المسجد وخطيبه رجل فاضل أصله عربى هو الشيخ عبد القادر الجنيد - وهو يخطب الجمعة باللغة العربية الفصحى ويحضّرها تحضيرًا جيدًا، وإذا حضرنا أو حضر شيخ أزهرى فى المسجد يؤدى درسًا بعد «صلاة الجمعة» وقد شاركنا فى الاحتفالات الدينية التى تقام بهذا المسجد من ذكرى الهجرة والمولد النبوى الشريف، وليلة القدر، أمّا ليالى رمضان فإن المسجد يمتلئ عن آخره فى صلاة المغرب ويفطر الصائمون فيه على بعض من

التمر ويشربون الماء ثم يصلّون المغرب وينصرفون للإفطار فى بيوتهم، ويعودون لصلاة العشاء والتراويح حيث يشهد هذه الصلاة عدد يساوى عدد الحاضرين فى صلاة الجمعة، وبعدها يجلسون لقراءة القرآن الكريم، أو يستمعون للقارئ الذى تبعثه وزارة الأوقاف لإحياء ليالى رمضان بتلاوة القرآن، ثم يشرح ما قرأه واحد من علماء الأزهر، وغالبًا يكون موفدًا من وزارة الأوقاف مع القارئ لإحياء ليالى رمضان.. وللشيخ عبد القادر الجنيد نشاط فى نشر التوعية الدينية فهو يقرأ من بعد صلاة المغرب إلى صلاة العشاء كل ليلة كتابًا من كتب الفقه الموسّعة على مذهب الإمام الشافعى وقد قرأ للناس كتاب المنهاج وقرأ لهم أحاديث من صحيح مسلم، وهكذا يقبل المسلمون على معرفة هذه العلوم الدينية ويمضى الذين استوعب فكرهم الكتابة العربية والمؤلفات العربية وخصوصًا ما يكتب عن الدين، ومن الظواهر الطيبة التى تلفت النظر أن المسلمين يجدّون طوال النهار فى أعمالهم التجارية، ولا يضيعون من وقتهم فى اللهو أو الحديث اللاهى أو المشى فى الطرقات، ولا يغلقون محلّاتهم من طلوع الشمس حتى غروبها، فإذا أذّن للمغرب أغلق الجميع محلاتهم التجارية، وذهبوا إلى بيوتهم واستبدلوا بملابسهم "الملابس البيضاء" النظيفة واتجهوا إلى المسجد، ويظلّون فى عبادة دائبة إلى ما بعد صلاة العشاء بحوالى ساعة، ثم يعودون إلى بيوتهمليناموا ويكون استيقاظهم مع الفجر حيث يؤدّون صلاته فى المسجد،

ويعودون إلى بيوتهم للراحة قليلاً وفى طلوع الشمس تكون المحلات التجارية قد فتحت أبوابها، وبدأت الحياة تدبّ فى المدينة..

هذه حياة طيبة، وقت العمل يقطع كله فى العمل، ووقت المسجد فى المسجد ووقت الراحة يكون للراحة، وكل مشغول بأمر نفسه..

هذا المسجد الجامع إمامه شافعى المذهب وروّاده جميعًا شافعية، وهناك مذاهب طائفية لها مساجدها المتميزة والخاصة بهم، وهناك مسجد السنّيين الأحناف، ومسجد الأباضية، ومسجد الشيعة الاثنى عشرية، ومعبد الإسماعيلية أتباع أغا خان ويسمونه مسجدًا وكتبوا عليه مسجد الخوجا، ومسجد للبهرة، حتى القاديانية لهم مكان يسمونه مسجدًا..

ومن المعلوم أن دار السلام أوّل من بناها العمانيون، وذلك عندما انتصروا على البرتغاليين فى إحدى المعارك، وآبوا بأسطولهم إلى مرفأ دار السلام حيث أطلقوا على هذا المرفأ اسم دار السلام، وأخذت المدينة تنمو حتى أصبح عدد سكانها الآن يقارب ربع مليون نسمة.

المتحف الوطنى فى دار السلام: ويقع فى الحىّ الأوربى فى ضاحية جميلة شمالى شرق المدينة وقد كتب عليه لافتة أنه أنشئ فى عهد الملك جورج الخامس ملك بريطانيا، ولهذا لا تعجب إذا وضعت فيه صور تمثّل العرب وهم مستعمرون لهذه البلاد، ووضعت صور

تمثّل الأفريقيين الذين سيق منهم العبيد إلى جزيرة زنجبار ليبيعهم العرب، إن هذا كله قد دسّ على العرب بذكاء لإذكاء روح الكراهية من الأفريقيين نحو إخوانهم العرب، ويستغلّ هذه المناظر أعداء العرب وأعداء الإسلام، ويلهبون به مشاعر الوطنيين ضد العرب، ولكنهم غافلون عن الذين استعمروهم وأذاقوهم العذاب، وساقوهم إلى الحروب العالمية ليكونوا نارها الموقدة، وغير غافلين عمّن كان يتخطّفهم ويشحنهم إلى أوربا وأمريكا ليباعوا هناك.

يتألّف المتحف من غرف تضمّ إحداها المخلّفات القبلية وكلها حديثة، ويتألف معظمها من طبول ورماح وسيوف وأقنعة وملابس أفريقية، وقد كتب عليها بالإنجليزية، وفى بعض الأحيان يكتب عليها بالسواحيلية إيضاحات غير كافية، وقاعة أخرى تضمّ مخلّفات عربية معظمها من زنجبار، وتضمّ رسومًا زيتيّة عن بعض المناظر التاريخية الحديثة فى البلاد مثل منظر العبيد والسخرة، الذين كان الألمان يجبرونهم على العمل إبّان الاستعمار الألمانى لشرق أفريقية وقبل دخول الإنجليز، كما يضمّ بعض المناظر لبيع العبيد، ومنها منظر سوق بيع العبيد فى زنجبار منذ مائة سنة، ورسومًا إيضاحية لتاريخ الاستعمار العربى، لساحل تنجانيقا، على حدّ تعبير الذين كتبوا على تلك اللوحات، وجميع الرسوم التى كتبت عن التاريخ العربى تظهر العرب بمظهر الحاكم المسيطر على الأفريقيين، ولكن المخلفات العربية فى غاية الروعة والجمال وهى تدلّ على الحضارة التى بلغها

الحكام العرب فى شرق أفريقية وبخاصّة فى زنجبار حيث عرض فيه كرسى جميل مطعم بعضه بالذهب وبعضه بالفضة، وسرير للنوم يشبه سرير سلاطين المماليك فى مصر والشام، وأوانى صنع القهوة وسيوف وخناجر محلاة بالذهب وملابس عربية جميلة من القرن الماضى، ومن المفارقات فى هذا المتحف أنه وضع فى داخله تمثال نصفى لأحد الإنجليز الذين أسّسوا هذا المتحف وأفنوا حياتهم فى جمع مادته، وقد وضع الأفريقيون بعد الاستقلال بجانبه صورة بارزة للرئيس «جوليوس نيريرى» رئيس الجمهورية، مع أنه ليس له فى إنشاء المتحف يد، وهذا خلاف ما جرت عليه العادة فى المتاحف الأخرى، حيث يخلّد أصحاب الجهد الحقيقيون فى إنشائها، لا يذكر معهم الزعماء السياسيون الذين يعملون فى غير هذا الحقل، وعلى سبيل المثال فلم توضع صورة الزعيم «جومو كينياتا» بجانب صورة الإنجليزى الذى قام بإنشاء متحف نيروبى العظيم.

المجلس الأعلى للشئون الإسلامية (الباكواتا)

كان فى تنزانيا كثير من الجمعيات الإسلامية، وأكبرها جمعية الإسعاف الإسلامية وكان أمينها العام رجلاً مخلصًا متفانيًا فى خدمة الإسلام واسمه الأستاذ «عزيز خاكى» أما رئيسها فهو أحد زعماء

المسلمين من الأفريقيين فى هذه البلاد، ولهذه الجمعية مدارس كثيرة تديرها وتشرف عليها. والمسئول عن التعليم الإسلامى فيها رجل مسلم متديّن اسمه الأستاذ «عمر مهاجى» وهو فى الوقت نفسه أحد موظفى الحكومة، وأحد أعضاء الحزب الوطنى الأفريقى الحاكم، ومن المعروف أن الحكومة التنزانية الحالية تميل إلى الشيوعيين ولها صداقة قويّة بالصين، وتتبادل معها التجارة، حيث تستورد منها كل ما يحتاجه الشعب بدءًا من الصناعات الثقيلة إلى الأطعمة المعلّبة؛ لذا فهى تطبق كثيرًا من أساليبهم ولذلك فقد ألغت رخص جميع الجمعيات الإسلامية عدا جمعية واحدة هى المسماة جمعية الإسعاف الإسلامية، لأن الجمعية المذكورة يشترك الإسماعيليون فى تمويلها، وهم أصحاب ثراء وأملاك طائلة فتستفيد الدولة ماديًّا من الجمعية المذكورة وقد عمدت الحكومة إلى ربط جميع المدارس الإسلامية النظامية وجعلها تحتِ إشراف هذه الجمعية لكنها حولت أكثرها إلى مدارس مدنية وأصبحت حصص الدين واللغة العربية فيها قليلة جدا.. ثم حلّت هذه الجمعية فى أوائل السبعينات وأقيم مكانها مجلس على مستوى الجمهورية اسمه «المجلس الأعلى للشئون الإسلامية» ويعرف فى اللغة السواحيلية باسم «باكواتا» وهو الجهة الوحيدة المسئولة عن الإسلام فى تنزانيا من ناحية إنشاء المدارس الإسلامية، وطلب إيفاد مدرّسين لها، وطلب منح دراسية فى الجامعات الإسلامية والترشيح للمنح، وإقامة المساجد، وتنظيم سفر الحجاج، وإصدار

الفتاوى وله فروع فى سائر أنحاء الجمهورية وهو معترف به من الدولة كهيئة إسلامية رسمية.. وقد اختار رئيس الجمهورية أعضاءه بذكاء، رئيسه رجل فاضل ولكنه مشغول بتجارته واسمه «صالح مساس» ونائب الرئيس شيخ فاضل يعمل مستشارًا لرئيس الجمهورية واسمه الشيخ «عبد الله شوارمبو» وأمين الصندوق اسمه الشيخ «محمد على» وأمينه العام اسمه الشيخ «آدم نصيبو» وله مقرّ معروف فى العاصمة، وله مدارسه التى يشرف عليها، ورأيه لا يخرج عن رأى الحكومة ولا يبتّ فى أمر من الأمور إلّا إذا استشار الحكومة فى هذا الرأى، وحينما وجد هذا المجلس المركز الإسلامى قد أخذ فى النشاط وله عيادة طبية وتدرّ بعض الدخل المادّى عليه طلبوا الاستيلاء عليه فعارضت فى ذلك لأن المركز لم يستكمل إنشاءاته بعد.

فطلبوا تشكيل مجلس إدارة مشترك من المصريين والتنزانيين فقلت لهم: إن مديره معيّن من وزارة الأوقاف المصرية، وحينما تتمّ أنشطته ويقف على قدمية يسلّم إليكم لتديروه بمعرفتكم، إلّا أن مصر أقامته هدية لكم، ولا تهديه إلّا بعد أن يكون مستوفيًا كل ما يحتاجه من أنشطة، وفى الواقع أنا أتخوّف من تسليمهم هذا المركز لأنى لا أطمئن إلى حسن إدارتهم له، وأرجو أن يسلم إلى جيل جديد من الشباب الذى تثقّف فى الأزهر وعنده غيرة على إنجاح رسالته، وعلى نشر الثقافة الإسلامية عن طريقه بالأسلوب العلمى الحديث؛

لذلك كانت تجرى فى الخفاء صراعات بينى وبينهم ولكن كلًّا منّا يظهر الودّ الكامل لصاحبه ولم يظهر بيننا أىّ خلاف فى الرأى فهم يوافقوننى على كل نشاط نقوم به، وحينما يقيم المركز حفل إفطار فى رمضان لطلّابه وفقراء الحىّ الذى يقع فيه المركز ويدعو أعضاء المجلس الأعلى للشئون الإسلامية يسارعون إلى تلبية الدعوة مشكورين وإذا طلبنا منهم كلمةً فى احتفال دينى تحدثوا وأثنوا على نشاط مصر فى هذا المركز.. وحتى الآن لا زال المركز يدار عن طريق مبعوث من وزارة الأوقاف المصرية.. ويمضى فى طريقه قُدمًا على حسب الخطة التى رسمناها له من قبل، إذن فإن هذا المجلس بوصفه الحالى لا يفى بالقيام بمسئوليته كمجلس أعلى للشئون الإسلامية نظرًا لانتمائه إلى الحاكم...

جزيرة زنجبار

تتكوّن تنزانيا من تنجانيقا وزنجبار:

أوّلًا – تنجانيقا: ويعتبر المسلمون أكبر جماعة دينية فيها، ويأتى بعدهم فى الكثرة الوثنيون فالمسيحيون ومع ذلك فالسلطات الحقيقية بأيدى المسيحيين نظرًا لوجود المتعلّمين منهم أكثر من المسلمين، ونظرًا لأنهم بطبيعتهم كانوا فى زمن الحكم الإنجليزى أكثر ميلًا

للأوربيين، بل إنهم جميعًا تعلّموا فى المدارس الأوربية أو فى مدارس المبشرين، وعلى الرغم من أن حكومة تنزانيا يساريّة فإن رئيسها «نيريرى» مسيحى وله نائبان من المسلمين هما «رشيد كواوا» و «عبود جوبتى» حاليا، وكان من قبيلة «عبيد كارومى» وحوالى نصف أعضاء الحكومة من المسلمين ويقدّر سكان تنزانيا بـ ١٢ مليونا فى الوقت الحاضر منهم أكثر من ٦ ملايين مسلمون وثلاثة ملايين ونصف وثنيون.. ومليونان ونصف مسيحيون ، ويكثر المسلمون على ساحل المحيط الهندى حيث توجد مدن تكاد تعتبر مدنًا إسلامية مثل دار السلام «العاصمة» ومدينة «تانجا» حيث تبلغ نسبة المسلمين فيها ٩٠٪ ولولا هذه الحكومة اليسارية لكان بالإمكان إدخال عدد كبير من غير المسلمين فى الإسلام نظرًا إلى أنه كانت توجد جمعيات إسلامية قويّة هناك ولكنها ألغيت كلها كما قدمنا عدا واحدة، ومع ذلك فقد ذابت فى المجلس الأعلى للشئون الإسلامية الذى تسيطر عليه الحكومة، ومع ذلك لا يزال عدد الأفريقيين من المشايخ وأئمة المساجد والطرق الصوفية يقومون بالدعوة الإسلامية بصفة فردية فى الأماكن النائية من البلاد، ولا يزال عدد الداخلين الجدد فى الإسلام يتزايد ولا يزال يبنى العديد من المساجد، وبخاصة فى الأماكن النائية بالجهود الذاتية ونحن نظن أنه لو كانت الحكومة التنزانية بعيدة عن الميل إلى اليسار الذى يقترب شيئًا فشيئًا من الشيوعية لكان من الممكن أن تغدو مركزًا للدعوة الإسلامية فى

شرقى أفريقية نظرًا لسابقة سكان السواحل فيها إلى الإسلام، وشدّة تديّنهم.

ومما يدل على قوّة تديّنهم وتعلقهم بكتاب الله تعالى هذا المنظر الذى شاهدته بنفسى، رأيت أحد الأفارقة يمسك المصحف ويقرأ فيه بصوت مرتفع وبقراءة فيها مَد وغَنٌّ بنطق للأحرف سليم، واستمعت منه كثيرًا من التلاوة وطلبت منه أن يقرأ فى سورة أخرى فقلب أوراق المصحف وأخذ يقرأ قراءةً مجوّدة سليمة ثم أعطيته مجلّة كانت معى مكتوبة باللغة العربية وطلبت أن يقرأ منها فلم يستطع أن يقرأ كلمة واحدة، فقلت له اكتب اسمك باللغة العربية فلم يستطع فهتفت من فورى يا الله، صدقت وأنت تقول: ﴿إنّا نحن نزّلنا الذكر وإنّا له لحافظون﴾ إن هذا الرجل يقرأ القرآن فى يسر وسهولة، ولا يستطيع أن يقرأ أويكتب مجرد اسمه، إن تلك الظاهرة معجزة للقرآن الكريم، وقد علمت منه أنه تعلّم القرآن فى الكتّاب على يد شيخ، وكان الشيخ يقرأ من المصحف وهو يردّد خلفه القراءة ويكرّر القراءة مرات ومرات حتى انطبعت فى عقله وكأنها صورة فوتوغرافية رسمت فى عقله، وهكذا قرأ القرآن كله، فحينما ينظر إلى أية سورة منه يتذكّر ما يعقله من كلماتها وحروفها فيقرأ بسهولة.. ويدلّ هذا أيضًا على حرص المسلم التنزانى على أن يكون متّصلاً بالقرآن قارئًا له، متعبّدًا بتلاوته..

ثانيًا – زنجبار: جزيرة فى المحيط الهندى لا تبعد عن الساحل

الأفريقى أكثر من ١٧ دقيقة بالطائرة الصغيرة وهى وسيلة الانتقال السريعة بينها وبين دار السلام وهناك وسيلة أخرى وهى عن طريق البواخر، تظهر الجزيرة من الطائرة خضراء كثيفة الأشجار وقد كسا أرضها نخيل جوز الهند وأشجار القرنفل الذى قيل إن زنجبار تنتج منه ٩٠٪ من جميع القرنفل فى العالم، وفى المطار تشاهد بعض الصور التى تمثل بعض مناظر زنجبار فى السابق، ومنها إظهارهم الأفريقى قد حطم القيد من يديه – والقيد يعنى العربى – فيما يزعمون ولقد حصلت كارثة للعرب فى زنجبار بعد استقلالها بأقل من شهر، فلقد كان الحكم فيها للعرب وكانوا يعاملون الأفريقيين معاملة الأخ لأخيه، ولم يشعر الأفارقة بأدنى اضطهاد لهم، وكانت هذه الجزيرة تعتبر معقلاً من معاقل الإسلام فى أفريقية وكانت كذلك معقلاً للغة العربية، وفيها المساجد شامخة البنيان والمدارس الإسلامية، وفيها معهد إسلامى كبير خرّج كثيراً من المثقّفين الذين درسوا اللغة العربية وتعلموها وأصبحوا كمن تخرّج فى أى معهد عربى فى أى بلد عربى، ولكن فجأة قامت ثورة حمراء على العرب[1] فأطاحت بهم وقتلت منهم الكثير وزجّت فى السجن بزعمائهم واستطاع الكثيرون

---

(١) من أثر الدعاية الأجنبية التى صوّرت العرب أنهم كانوا تجار رقيق، وكذلك لتأثرهم بالقومية الأفريقية التى تريد السيطرة الأفريقية على كل شأن من شئون البلاد واعتبار العرب غرباء عن البلاد.

أن يفرّوا من هذا العدوان الغاشم، تاركين أموالهم ودورهم، والأفريقى إذا ثار أصبح كالأسد الهصور لا يستطيع أحد أن يقف فى طريقه، وانتهت بهذه الثورة فترة طويلة من أخصب الفترات التى مرّت بهذه الجزيرة وهى فترة الحكم العربى، وكانت تلك الثورة عام ١٩٦٤م، وعند زيارتى للجزيرة عام ١٩٧٣ شاهدت أن الجزيرة تكاد تكون خالية من سكانها، ولفت نظرى أننى لم أر فيها شبابًا كثيرًا فكلٌ من رأيت شيوخًا مسنّين وأطفالاً، وذلك لأن الشباب العربى إمّا قد قُتل فى الثورة أو زُجَّ به فى السجون أو فرّ من البلاد، وأخذت أتقصّى الحقائق عن أسباب هذه الثورة فخرجت بالنتائج الآتية:

أولاً: أن بعض العرب كانوا يحكمون فى زنجبار من غير أن يختلطوا بالأفريقيين ويمتزجوا سياسيًّا معهم فكان الأفريقيون ينظرون إليهم لهذا السبب نظرتهم إلى حكام أجانب يجب التخلّص منهم.

ثانيا: أن هناك رواسب قديمة من مشاعر الكراهية للعرب تولّد معظمها من كون بعض العرب والآسيويين ممن لا يتقيّدون بأحكام الشريعة الإسلامية، ولا يميّزون بين الحلال والحرام فيما كانوا يصنعون من اتخاذهم بعض الأفارقة عبيدًا لهم، وقيل إنهم كانوا يتاجرون فيهم، ويقولون إن بعض العرب ممّن لا دين لهم كانوا ينهبون الأفريقيين ومنهم مسلمون ويبيعونهم فى الخارج، ويفرقون

بذلك بين المرء وزوجه وأهله وذويه، وإن كانت هذه الحالة حدثت فردية، ولم تكن سمةً عامّةً للعرب هناك، إلاّ أن أعداء العرب كانوا يستغلونها فى إثارة الكراهية لكل ما هو عربى، فلما قامت الثورة بتلك العواطف المهتاجة لم تفرّق بين الجانى وغير الجانى من العرب.

ثالثًا: أنه عند وصول الإنجليز إلى زنجبار بعد أن عقدوا معاهدة حماية مع سلطانها وفدت معهم الثقافة الغربية التى منها حرية الصحافة والتعبير، فاستطاع أن يسيطر على الدعاية والإعلام أناس من الأوربيين وغيرهم من الحاقدين على الإسلام والعرب، فجعلوا على المدى الطويل يظهرون العرب للأفريقيين على أنهم أناس غزاة مغامرون وصلوا إلى أفريقية لهذا الغرض، كما شرحوا بطريقة مبالغ فيها زعمهم أن العرب كانوا يزاولون تجارة الرقيق هناك، وقد استطاعوا على مرّ السنين أن يسمّموا أفكار الأفريقيين فى نفس الوقت الذى لم يكن فيه العرب يعنون بالرد على تلك المفتريات بل لم يكونوا يعنون بالدعاية السياسية أصلاً.

رابعًا: أن ريح الوطنية الأفريقية قد هبّت على زنجبار من سائر أنحاء القارة الأفريقية، وتلك الروح الوطنية ترى الحكام العرب عنصرًا خارجًا عن نطاق القومية الأفريقية؛ وذلك لأن العرب يتميزون بلونهم عن الأفريقيين ولم يوفقوا إلى أن يُبقوا على صلات القربى التى كانت تصلهم بهم على مر العصور.

خامسًا: تسللت اليسارية الماركسية والأفكار المستوردة من خارج القارة الأفريقية إلى زنجبار فأخذت تصوّر الحكام العرب فى زنجبار، لا للأفريقيين فحسب بل ولبعض العرب بأنهم حكام إقطاعيون مستبدّون يجب القضاء عليهم وإسقاط حكمهم تحقيقًا للأهداف اليسارية، فاجتمعت الماركسية المتعصّبة ضدّ الإسلام مع القومية الأفريقية المتعصّبة ضدّ العرب، بعد أن غذّتهما العوامل التى ذكرتها على نكبة العرب فى ذلك المكان الذى حكموه مئات السنين، وكان لهم شرف طرد البرتغاليين منه بعد أن عاث هؤلاء البرتغاليون فيه فسادًا وإفسادًا.

والمؤسف فى الأمر أنه قد ذهبت فى تلك العاصفة الهوجاء دماء عربية بريئة وأهدرت كرامات عزيزة، وكان من أبرزما فى ذلك هتك أعراض الأسر العربية الكريمة من الرعاع والسوقة، حتى أصبحت أسر عربية كريمة بين يوم وليلة تتكفّف الناس لكى تعيش بعد أن كانت تنعم بالكرامة والعيش الرغيد، وأصبحت بعض كرائم وعقائل العرب إذا وجدت من يمنّ عليها بالملجأ والعيش عيشة الخدم فإنها تشعر بأنها قد حصلت على خير كثير، وللأسف لم تتحرك دولة إسلامية واحدة لمساعدة العرب المطحونين فى الجزيرة آنذاك، والوقوف بجانب الإسلام الذى يطارد فى شخص دعاته العرب...

والآن ما هى الحالة فى زنجبار؟

لا نستطيع إلاّ أن نعلّق على أحوالها الآن فنقول: إن الله سبحانه قد ابتلى الزنجباريين الآن بالخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات؛ فقد جاء إلى الحكم أناس واصلوا اضطهادهم لكل ما هو عربى، وحاولوا أن يبعدوا اللغة العربية عن المدارس والمساجد، فلم يبق لعامة الناس إلاّ الخوف والإرهاب وأصبحت زنجبار بعد أن كانت تسمى «جزيرة الأحلام» لأنها كانت آمنة مطمئنة أصبحت تعيش الكراهية والحرمان والتعصب حتى بين صانعى النكبة أنفسهم.

العرب فى شرقى أفريقية:

ويسوقنا هذا الكلام إلى تسجيل كلمة مختصرة عن العرب فى شرقى أفريقيا، لقد لاحظت خلال دراستى الميدانية عن أحوال العرب فى شرقى أفريقية فى الحاضر والماضى، أنهم كانوا على مرّ القرون يفدون إلى تلك الديار زائرين وتجّارًا، بل ومستوطنين، وأن كثيرًا منهم قد اتخذوها دارًا واندمجوا بأهلها ونشأ عن ذلك اللغة السواحيلية والمدن العربية الأفريقية التى كانت تقوم فى مختلف العهود فى تلك البلاد والتى لا يزال بعضها قائمًا حتى الآن مثل ممباسة وليندى ودار السلام، بل كان العرب أوّل من لفت الأنظار إلى تلك

البلاد وسمّاها «بر الزنج» التي حرّفت بعد ذلك إلى زنجبار أي الزنج لأن كلمة «بار» هي كلمة «بر» بالعربية ضد «بحر» وجميع العرب في شرق أفريقية هم من جنوبي وشرقي الجزيرة العربية من عمان حتى اليمن، ويمكن تقسيمهم الآن إلى ثلاث فئات كما يلي:

الأولى: العمانيون:

وهم كانوا الحكام والطبقات الممتازة في الماضي. ولا يزال منهم في الحاضر موظفون كبار وحكام ولايات في كينيا، وهم بمظاهرهم التي منها بياض بشرتهم نسبيًّا، وأنوفهم الشماء وأزيائهم التقليدية يمثّلون الحكام العرب في نظر الأجانب الوافدين إلى تلك البلاد، حتى أن البرتغاليين عندما وصلوا شرقي أفريقية من رأس الرجاء الصالح سمّوهم المغاربة ظنًّا منهم أنهم من أهل المغرب العربي، أو تشبيهًا لهم بعرب المغرب.

الثانية: الحضريون:

وهم تجّار فحسب، وقد حصل بعضهم على ثروات كبيرة في شرقي أفريقية، وهم من أنشط الدعاة للإسلام وأحرصهم على العمل المتواصل وسعيهم لإدخال الأفريقيين إلى حظيرته، وأكبر دليل على أن مسلمي شرق أفريقية من الأفريقيين هم شافعيو

المذهب أى على مذهب الحضارم، وليسوا أباضية على مذهب العمانيين.

الثالثة: اليمنيون وأبناء الجنوب العربى:

وكثير منهم الآن يعيش عيشة الكفاف فى تلك البلاد، ومما يؤسف له أن بعضهم يتناولون بيع وشراء القات، تلك الشجرة الخبيثة التى تهدم البدن، وتؤثر تأثيراً سيئاً على العقل، وقد راح فريق من عقلاء الأفريقيين ينحون باللائمة على باعة القات من العرب، فى أنهم حتى بعد استقلال البلاد لا يزالون يسهلون للأفريقيين الوقوع فى شرك «القات» الخبيث.

هذه هى حالة العرب فى الحاضر، أما فى المستقبل فأنا لا أتوّقع للعرب ولا لأى جنس آخر أبيض أو أسمر أىّ مستقبل مشرق فى أفريقية إلاّ إذا قدّموا لهم المعونات الاقتصادية والثقافية بدون منٍّ عليهم أو استعلاء لأن الأفريقيين قد أخذتهم نشوة الظفر باستقلال بلادهم، فأصبحوا يشعرون بأن لهم الحق فى أن يكونوا دون سواهم من الأجناس سادة البلاد، وأن يعتبروا غيرهم من الوافدين من خارج القارة، غرباء ليس لهم حق العيش كما للأفريقيين إلاّ بمقدار ما يؤدّى للبلاد من خدمة، على أن ينظر إليهم نظرة الغريب المتميز، ومن المعلوم أنه إذا كان التمييز بين الأجناس البشرية بعامل اللون،

فإن ذلك يكون أصعب أنواع التميز لأن لون الإنسان لا يمكن ستره؛ لذلك لا يمكن تناسبه فضلاً عن نسيانه وذلك بخلاف التميز الذى يكون على أساس العرق والدين واللغة.

ومع هذا كله فلا يزال حتى الآن اعتمادهم على العرب وعلى مصر بخاصة فى تثقيف شبابهم المسلم بالثقافة الإسلامية، وتعليمهم اللغة العربية... وحينما ينشب خلاف بين الجهة المشرفة على النشاط الدينى فى تنزانيا «باكواتا» وبين المسلمين فى أية منطقة فى البلاد يلتمسون من مصر المعاونة لحل هذه المشكلات وتصفية الخلافات، باعتبار أن مصر قلعة الإسلام فى العالم، ورائدة النشاط الإسلامى فى خارج جمهوريتها، وفى سائر القارات، وقد عثرت على تقرير من إحدى الأجهزة المصرية يدل على مكانة مصر وعلمائها عند المسئولين التنزانيين وقدِّم التقرير على أثر مقابلة تمت مع السيد نائب رئيس الجمهورية التنزانية السيد/عبود جومبى «وهو نائب الرئيس والحاكم لإقليم زنجبار وأحد كبار المسئولين المصريين، ويتبين من التقرير طلبه أساتذة مصريين لتعليم الإسلام واللغة العربية للشباب التنزانى، وأذكر أننى قابلت السيد/عبود جومبى «بصحبة السيد سفير جمهورية مصر العربية فى تنزانيا آنذاك، وكان ذلك عام ١٩٧٣ لمعرفة احتياجات زنجبار من وزارة الأوقاف المصرية، وتركّزت طلبات سيادته على طلب مساعدة مصر فى تعليم المواد الدينية باللغة

السواحيلية، وأكّد على ذلك، مما جعلنا نحسّ بأنه لا يريد اللغة العربية وذلك من قبيل التعصّب للغة القومية وهى السواحيلية..
ونصّ التقرير ما يلى:

تقرير
بشأن الإسلام فى تنزانيا

عــام:

١ - وردت برقية رمزية من سفارتنا فى دار السلام عن مقابلة السيد عبود جومبى «نائب رئيس الجمهورية بشأن اجتماعه بزعماء المسلمين فى شمال تنزانيا لتسوية الخلاف بينهم وبين المجلس الإسلامى الأعلى، وطلبه تزويد حوالى عشرين مدرسة ابتدائية وثانوية بأساتذة مصريين لتعليم الإسلام واللغة العربية.

التفصيلات:

٢ - وضح اهتمام مصر منذ منتصف الستينات بضرورة مواجهة نشاط البعثات التبشيرية المسيحية المتزايدة فى تنزانيا، والتى نجحت فى نشر الدين المسيحى والتعصب له ضدّ المسلمين والعرب، مستفيدة فى ذلك من ترحيب الحكومة ومختلف المنظمات التنزانية لنشاطها، وقد تمثّلت مظاهر الاهتمام المصرى فى نشاط وزارة الأوقاف وشئون الأزهر الذى تبلور على النحو التالى:

(أ) إيفاد اثنين من الوعاظ المصريين للعمل مع جمعية مسلمى شرق أفريقية ثم مع المجلس الأعلى للشئون الإسلامية (الباكواتا) بعد حلّ الجمعية المذكورة (تتحمل وزارة الأوقاف مرتباتهما بالكامل) وكذلك إيفاد اثنين آخرين للعمل فى جزيرة زنجبار (تتحمل سلطات الجزيرة نصف مرتباتهما).

(ب) مداومة إيفاد مقرئين لتلاوة القرآن الكريم خلال شهر رمضان من كل عام.

(جـ) إقامة مركز ثقافى إسلامى فى دار السلام منذ منتصف ١٩٦٩ يهدف إلى إعداد دراسات خاصة لأئمة المساجد فى تنزانيا وتخرج مدرّسين لتدريس الدين الإسلامى فى المدرسة التنزانية علاوة على تزويده بمركز طبّى لتخريج ممرضات من الفتيات يعملن فى العيادة الخارجية التابعة للمركز، وكذلك تقديم كتب ثقافية إسلامية لأبناء تنزانيا.

(د) تقديم المجلس الأعلى للشئون الإسلامية المصرى بعض ما يصدره من الكتب والمجلات الإسلامية كما وافق رئيس المجلس أثناء زيارته لتنزانيا فى ١٩٦٨ على التصريح لخمسة من مسلمى تنزانيا لأداء فريضة الحج على نفقة المجلس..

(هـ) تخصيص المجلس الأعلى للشئون الإسلامية عددًا محدودًا من المنح الدراسية سنويًا للطلبة التنزانيين للدراسة بالأزهر الشريف

وفق عام ١٩٧٥ على تقديم منحة دراسية أثناء زيارة وزير الداخلية التنزانى للقاهرة.

التعليق:

٣ - تعتبر منطقة شرق أفريقية أكثر مناطق القارة الأفريقية التى تضم جاليات إسلامية كبيرة لكونها معبرًا لنشاط الدعوة الإسلامية إلى أفريقية منذ القرن الأول الهجرى (أكثر من ٩٠٪ من سكان الصومال وإقليم إرتريا وجزر الكمورو من المسلمين، ويمثل المسلمون فى كل من تنزانيا وموريشيوس أكثر من ٦٥٪ تقريبًا من تعداد السكان إلّا أن التاريخ الاستعمارى الذى شهدته بعض هذه الدول قد أدّى إلى نجاح العناصر المسيحية فى تحقيق قدر أكبر من التفوّق الاجتماعى والثقافى مما ساعدهم على الوصول إلى الحكم، وتولى المراكز السياسية والإدارية العليا.

٤ - تعكس الاتجاهات المسيحية الخاصة بالرئيس «جوليوس نيريرى» وتعصّبه للكنيسة الكاثوليكية علاوة على حساسية تجاه دور العرب فى تجارة الرقيق واهتمامه بتقليص نفوذ العناصر الإسلامية، الأمر الذى يمكن إيضاحه على النحو التالى:

(ا) تجنب الإعلان عن تفصيلات إحصائيات السكان فى تنزانيا مع تعمّد إبراز العناصر المسيحية كأغلبية بين سكان البلاد.

(ب) اتجاهه لتقليص دور الشخصيات الوزارية من المسلمين فى تنزانيا، وافتعال ما يثير سخط الشعب التنزانى تجاههم (تجميد المنصب الثانى لرئيس الجمهورية فى ١٩٧٧ الذى كان يشغله رشيد كواوا وإسناد وزارة الدفاع إليه بغرض إحراجه والتمهيد لإقصائه نهائيا، وتصفية جمعية مسلمى شرق أفريقية واختيار قيادة «الباكواتا الجديدة» من العناصر الموالية للحكومة، ووضع العراقيل أمام مسلمى تنزانيا لأداء فريضة الحج بدعوى انتهازهم فرصة الحج للهرب من البلاد».

(جـ) الترحيب بنشاط البعثات التبشيرية المسيحية المنتشرة فى جميع أنحاء تنزانيا، والتى تركّز على إقامة المدارس والمستشفيات وتشترط على المسلمين الذين يلتحقون بها اعتناق الدين المسيحى (نجحت هذه البعثات فى إقناع العديد من مسلمى تنزانيا باعتناق الدين المسيحى).

(د) عدم اهتمام المجلس الثورى الزنجبارى فى إطار اتجاهاته اليسارية، وتنسيق رئيسه عبود جومبى مع الرئيس جوليوس نيريرى عدم اهتمامه بنشر الثقافة الإسلامية (إلقاء السلطات التنزانية عام ١٩٧٥ القبض على ٢٨٥ من مسلمى زنجبار بدعوى معاداتهم للنظام القائم فى الجزيرة).

٥ - ومن ناحية أخرى، وبرغم إمكانيات التحرّك المصرى

لدعم الثقافة والدين الإسلامى فى كل من الدولة الأم (تنجانيقا) وجزيرة «زنجبار» (نشاط السفارة فى العاصمة دار السلام والقنصلية المصرية فى الجزيرة تواجد المركز الثقافى الإسلامى - غياب الاهتمام الكافى من جانب الدول العربية الإسلامية الأخرى بالمسلمين فى تنزانيا - تقبُّل الحكومة التنزانية لمساندة مصر فى هذا المجال) إلاّ أن هذا التحرك قد اعترضه العديد من السلبيات، يمكن تلخيص أهمها فيما يلى:

(ا) ضآلة عدد مبعوثى وزارة الأوقاف فى تنزانيا (أربعة فقط) علاوة على أن بعض من انتهت إعارتهم منهم لم تجدد لهم ثانية، إضافة إلى افتقار هؤلاء المبعوثين للإلمام الكامل باللغة الإنجليزية أو باللغة السواحيلية التى يتحدث بها سكان جزيرة «زنجبار». وبعض المسلمين فى الدولة الأم (تنجانيقا) وقد يكون من المفيد تولّى الجهات الإسلامية فى مصر ترجمة الكتب والمواد الإسلامية إلى هذه اللغات قبل إرسالها إلى تنزانيا.

(ب) عدم إنجاز المركز الإسلامى الثقافى المصرى فى تنزانيا للأعمال الموكلة إليه لقلة الإمكانات المادية اللازمة، (لم يتم اختيار الأعضاء المصريين لمجلس إدارة المركز برغم تحديد المسئولين فى تنزانيا ممثليهم فى هذا المجلس).

(جـ) ضآلة حجم المواد الثقافية الإسلامية والمنح الدراسية

للتعليم فى الأزهر، والتى تخصّص لسكان جزيرة «زنجبار»، برغم احتياجهم الشديد إليها، وبرغم إمكانية الاستفادة من قنصليتنا التى افتتحت مؤخرًا فى الجزيرة (١٩٧٤) فى هذا المجال.

(د) الرقابة الشديدة من جانب الحكومة التنزانية على النشاط الإسلامى إلى جانب اشتراطها بأن يكون التقابل مع الفئات الإسلامية من خلالها الأمر الذى يعكس ولا شك تأثيراته على نمو هذا النشاط وانتشاره.

نظرة فى اللغة السواحيلية
وصلتها باللغة العربية

اللغة السواحيلية إحدى اللغات الأفريقية الشائعة، وهى اللغة القومية لتنزانيا وكينيا، وأوغندا وجزء كبير من جمهورية زامبيا وجمهورية موزمبيق.. وهى مركب لغوى من أصل أفريقى قد طعِّم باللغة العربية، وهى لغة مكتوبة وكانت تكتب باللغة العربية، إلى وقت قريب، حيث استطاع الاستعمار وأعوانه أن يتركوا العربية ويكتبوها بالحروف اللاتينية بحجّة أنّ هذه الحروف مشهورة دوليًّا، لكن هدفهم إبعاد اللغة العربية عن طريق ترك حروفها العربية. وبما أن القرآن الكريم مكتوب بالكلمات العربية فسينسى المسلمون بمضىّ الزمن كتابة المصحف، لأنهم لم يألفوا الكتابة العربية ولم يعرفوا الحروف العربية، ومع ذلك ظلّت حتى الآن عقود الزواج والطلاق ومسائل الميراث، والكتابة التى تكتب على جدران المساجد والتى تكتب على شواهد المقابر وكل ما يتصل بالدين تكتب باللغة العربية وما زال كثير من سكان المناطق الداخلية فى تنزانيا يكتبون

السواحيلية بالحروف العربية، محافظة منهم على الحروف التى يكتب بها القرآن الكريم. والمهاجرون العرب الذين استوطنوا الساحل الشرقى للقارة أوّل من تكلم بها ولذا فقد سمّيت بذلك، لقد كانت لغة التجارة فى مراكز الاستيطان العربية، وعزا بعض الباحثين بأنها كانت أصلاً لغة بعض القبائل.. وهى لغة «بانتوية» صرفة تستمدّ خصائصها من شرق القارة، غير أنها فقدت الكثير من هذه الخصائص، وليست بلغة مختلطة كما يرى البعض، وتضمّ ألفاظًا عربية كثيرة ومستعارة، واندمج فيها الكثير من الألفاظ الأجنبية، فيها كثير من اللغة العربية وخصوصًا ما يتعلّق منها بأسماء الفرائض والشرائع الدينية، وكل ما يتعلق بالدين، تنطق بأسمائها كما هى فى اللغة العربية أو محرفة قليلاً تبعًا لقدرتهم على النطق بحروفها.. ومطاوعة مخارج الحروف لكلماتها، فهم مثلاً لا يستطيعون نطق الحاء بل ينطقونها هاء. والعين همزة، وما إلى ذلك مما سنراه فى النموذج الذى سنعرضه لبعض الكلمات، وكان من أثر وجود الأجانب هناك دخول بعض الكلمات الأجنبية واعتبارها كلمات سواحيلية ويظهر ذلك فى الصناعات والمخترعات الحديثة، وما جدّ من تقدّم للمجتمع لم يكن موجودًا من قديم، مثل وسائل المواصلات، إنهم يسمّون محطة الأتوبيس «ستيشن» والسيارة الكبيرة «باص» وسائق السيارة «دريور» والكمسارى «كونداكت» والتذكرة «تكت» وهكذا مما جدّ من وسائل المدنية الحديثة.

وهى اللغة الرسمية فى شرق أفريقية - وقد اعترفت السلطات الاستعمارية بها، وهى لغة الدراسة فى المدارس، وتعمل السلطات على نشرها، وأنشأت فى دار السلام مدارس لمحو الأمية بتعليم الأميين لغتهم السواجيلية قراءةً وكتابة.

ومن لهجاتها لهجة ممباسا، وتعرف باسم «كمفيتا» وتنتشر فى المنطقة السواحيلية فى كينيا «وكبو بخوجا» أو لهجة زنجبار وتنتشر فى كل أنحاء شرق أفريقيا.. وفى سنة ١٩٣٩ تشكّلت لجنة من ممثلين لجميع الأقاليم لوضع كتابة اللغة السواحيلية، ووفّقت اللجنة إلى حدٍّ ما.. ولكن هل نجت اللغة السواحيلية من دنس المستعمرين؟ طبعًا لا، فقد أوعزوا إلى عملائهم بأن ينادوا بإحلال الإنجليزية محلّ اللغة السواحيلية تدريجيا، وقد قررت البعثة الملكية التى وصلت إلى شرق أفريقية لدراسة الأوضاع اللغوية (١٩٥٣-١٩٥٥) بأن تعليم اللغة السواحيلية مضيعة للوقت، وكذا تدريس الحصص القرآنية، وحتى تنال من اللغة السواحيلية روّجت للغات المحلية، وجعلتها لغة تعليم فى المرحلة الابتدائية، وأخيرًا قررت أن تكتب السواحيلية بالحروف اللاتينية لتقطع كل خيط يتصل باللغة العربية، وجعلت تعلّم اللغة العربية فى الكتاتيب فقط لتنفى عن نفسها صفة التعصّب أو التحيّز ضدّ الإسلام.

مجمع اللغة السواحيلية

يوجد هذا المجمع فى دار السلام، وهو عبارة عن جمعية تشرف على الكتب والمطبوعات التى تصدر باللغة السواحيلية فتأذن بإخراجها إذا كانت لغتها قوية، وفقًا للقواعد المطلوبة، كما أن تلك اللجنة تقدّم المقترحات الخاصّة بالنهوض بتلك اللغة وحمايتها من الألفاظ الدخيلة، وآخر عمل لتلك اللجنة تقدمت به إلى حكومة تنزانيا هو أن تعلن أن اللغة الرسمية للدولة هى السواحيلية فقط وكانت قبل ذلك اللغة الإنجليزية.. وهكذا أعلنت الحكومة ذلك وهذا منذ خمسة عشر عامًا تقريبًا، مما جعل بعض الحاقدين على العرب فى نيروبى يكتب فى صحيفة يومية تصدر بالإنجليزية قائلاً: إن اللغة السواحيلية تذكّر الأفريقيين بالعهد الذى كان فيه العرب يبيعون الأفريقيين، وهو يشير بذلك إلى أن جزءًا كبيرًا من مفردات اللغة السواحيلية قد دخلها الكثير من اللغة العربية، واللغة السواحيلية قد أسماها العرب بهذا الاسم نسبة إلى السواحل جمع ساحل والمراد بها سواحل أفريقية الشرقية فهى عبارة عن اختلاط العربية لغة العرب الذين قدموا إلى تلك البلاد باللغة المحلية للمواطنين الأفريقيين هناك، ويمتدّ نفوذ اللغة السواحيلية من كينيا إلى أواسط الكونغو على اختلاف تلك الأقطار – فمثلاً فى تنزانيا وكينيا

لا يعرفون غيرها، وفى المناطق الأخرى توجد لغات أخرى ولكنها تتصف بصفة المحلية، أما السواحيلية فإنها لغة إقليمية يمكن للجميع أن يتفاهموا بواسطتها. واللغة السواحيلية حافلة بالمفردات والتعابير العربية، وهناك خلاف بين اللغوين: هل هى عربية مؤفرقة، أى أنها العربية دخلها كثير من المفردات والتعابير الأفريقية أم أنها لغة أفريقية معربة؟ وأصح الأقوال أنها فى الأصل عربية مؤفرقة، أى أنها عبارة عن مفردات وتعابير عربية أخضعت للطابع الأفريقى.. وقد دخلت العربية إلى السواحل الأفريقية الشرقية فى عصور مختلفة، وكلما ضعف تأثير العربية لسبب من الأسباب، جاءت موجات جديدة من الهجرة العربية فدفعت فى عروقها بدماء عربية جديدة، والآن وقد أصبحت اللغة السواحيلية إحدى اللغات الرسمية فى كثير من بلدان شرقى أفريقية ووسطها حتى الكونغو فإنها قد ظفرت بعناية الباحثين والدارسين...

وقد جمعتُ بعض الكلمات العربية فى جداول سأوردها هنا على سبيل المثال لا الحصر، ويلاحظ أن الكلمات العربية أصبح كثير منها خاضعا للنطق الأفريقى الذى يحوّل الكلمات لمقاطع محدودة، ولا تنطق حروف الحلق بل ينطقونها ها، فمثلاً «سكر» العربية صارت «سكارى» بالسواحيلية و «سمك» «سماكا» «قهوة» «قهاوا» وما ألطف قول الأفريقيين حين يقابل بعضهم بعضا: «خبارى»؟ أى «خبرك» والمراد ما خبرك؟ أى كيف حالك؟ فيجيبه: «سلاما»..

وقد قرأت لافتة على بنك فى دار السلام، مكتوبة بالسواحيلية وبالحروف اللاتينية: «بنك يابياشلرا» فقلت فى نفسى: ما معنى هذه الكلمة؟ هل يوجد بنك للبشارة، وقد ظننت أن معناها كذلك، وظلت الكلمة غامضة علىّ، إلى أن اهتديت إلى معناها، وهو بنك «بيع وشراء» أى البنك التجارى، وقد سهّل علىّ كثرة الكلمات العربية فى اللغة السواحيلية تعلّمها فتعلّمتها فى أقل من ثلاثة أشهر، وكنت أدوّن معنى الكلمات التى أسمعها وأصلها عربى، ومن مجموع حوالى ٢٠٠ كلمة استطعت أن أتكلم بالسواحيلية.

ويلاحظ أنها ليست غنية بالكلمات، فكلماتها محدودة ويمكن حصرها فى قاموس فى حدود ألف كلمة فقط..

ويلاحظ أن الأرقام فى السواحيلية أكثرها عربية فمثلاً:

الرقم	النطق السواحيلى	الرقم	النطق السواحيلى
١	موجا	١١	كومى ياموجا
٢	ميلى	١٢	كومى ياميلى
٣	تامو	١٣	كومى ياتامو
٤	انى	١٤	كومى ياانى
٥	تانو	١٥	كومى ياتانو
٦	سيتا	١٦	كومى ياسيتا

الرقم	النطق السواحيلى	الرقم	النطق السواحيلى
٧	سابا	١٧	كومى ياسابا
٨	ثانى	١٨	كومى ياثانى
٩	تيسا	١٩	كومى ياتيسا
١٠	كومى	٢٠	اشيرينى
	وهكذا إلى..		
٣٠	ثلاثينى	٨٠	ثمانينى
٤٠	أربعينى	٩٠	تسيئينى
٥٠	خمسينى	١٠٠	ييـة
٦٠	ستينى	١٠٠٠	ألف
٧٠	سبئينى	مليون	مليون

وهذه بعض الكلمات العربية فى السواحيلية:

العربية	النطق السواحيلى	العربية	النطق السواحيلى
خبر	خبارى	زيادة	زيادا
كامل	كاميلى	ربع	ربعو
نصف	نصو	رأس	راسى

العربية	النطق السواحيلى	العربية	النطق السواحيلى
إذاعة	إذاعا	ساعة	ساعا
عسكر	عسكرى	غال	غالى
واجب	واجب	عنوان	عنوانى
سياسة	سياسا	أمة	أما
بعض	بعض	عدو	عدوى
عمر	عمارى	معنى	معنى
مرضى	مراضى	الحرية	أهورو
قبول	كبولى	تفضل	تفضلى
قريب	كريبو	كتاب	كتابو
قلم	كالامو	سفر	سفارى
قرطاس	كاراتاسى	صندوق	صاندوكو
دكان	دوكانى	ظن	كودانى
فكرة	فيكيرا	عقل	اكيلى
وزير	وزيرى	رئيس	رئيسى
وزارة	وزارا	علم	عيليمو
عافية	عافيا	دليل	داليلى
صحة	سيها	مصحف	مصاحفو
خطبة	هوتوبا	طبيب	طبيبو

العربية	النطق السواحيلى	العربية	النطق السواحيلى
فرح	فوراحا	لغة	لغا
سلام	سلاما	فخر	فخارى
فائدة	فائدا	مال	مالى
أو	أو	شرط	شرتى
مشرق	ماشاركى	مغرب	ماغاربى
وقت	واكاتى	حديث	حديثى
تعريف	تعريفا	خوف	خوفو
فرس	فاراسى	خصوصا	كوهوصو
لوم	لاواما	كنيسة	كانيسا
شكر	كوشوكورو	السواك	مسواكى
خسر	هسارا	سبب	سابابو
قياس	كباسى	نفس	نفسى
صبر	كوصبيرى	سلاح	سلاحا
دين	دينى	عبادة	عبادا
شريعة	شاريعا	مشقة	ماشاكا
صوت	صوتى	بيع	بيعى
ثمن	ثامانى	ست	سيتا
سبع	سابا	تسع	تيسا

العربية	النطق السواحيلى	العربية	النطق السواحيلى
عشرين	عشرينى	ثلاثين	ثلاثينى
ضمان	ضمانا	سهم	سيهيمو
حلال	حالالى	حرام	حرامو
معيشة	ماعيشا	مرة	مارا
خالص	هالص	شركة	شريكا
نعم	ناعاما	احتياج	كوهيتاجى
فلان بن فلان	فلانى بن فلانى	سلطان	سلتانى
صحيح	صاهيهى	دنيا	دونيا
طائفة	تايفا	دقيقة	داكيكا
مهم	موهيمى	طبيعة	تابيعا
أذية	اذيا	سؤال	سوالى
ماء	ماجى	مسجد	مسكيتى
صلاة	صالا	صدقة	صاداكا
زكاة	زاكا		

اللغة العربية فى مواجهة
اللغة السواحيلية

كان من أثر التوسّع فى الفتوح الإسلامية أن اعتنق كثير م الأفريقيين الدين الإسلامى فى البلاد المفتوحة، وبدءوا يتعلّمون اللغا العربية لفهم القرآن وأداء الشعائر، واتّبع العرب سياسة هجرة المسلمين إلى البلاد المفتوحة، وكثر عددهم فيها وأخذوا يختلطون بسكان المدن والقرى تدريجيًّا، ويتزوجون بهم ويصاهرونهم، وزاد هذا الاختلاط، عندما سمح لجند العرب بسكنى الريف فزادت الصلة بينهم وبين الأهالى وازدادت اللغة العربية تبعًا لذلك انتشارًا.

انتشرت اللغة العربية واتّسعت خطوط انتشارها مع الهجرات العربية فى الغرب والشرق، فلقد وصلت فى شرق أفريقية إلى الداخل حتى حدود الكونغو، وأعالى المناطق الشرقية منه.

ووصلت فى غرب أفريقيا إلى قرب خط الاستواء، ومن العوامل الرئيسية التى ساعدت على انتشار اللغة العربية بين الأفريقيين اعتناقهم للإسلام وإحساسهم بالحاجة إلى تفهّم القرآن ورغبتهم

الصادقة فى تعلّم اللغة العربية وهجرة فقهاء المسلمين إليهم من الحجاز ومصر لتثقيفهم وتعليمهم فى الخلوات والكتاتيب حتى يفهموا أصول دينهم.. والهجرات العربية أشعلت الرغبة فى تعلّم اللغة العربية وانتشارها، ومنها هجرة بنى هلال وبنى سليم إلى غرب أفريقية، وهجرة العناصر اليمنيّة والحضرمية والعمانية إلى سواحل شرق وجنوب أفريقية، واختلاطهم بالأفريقيين. ومن أقوى العوامل فى هذا الموضوع مشكلة التعدّد اللغوى الأفريقى، وصعوبة التفاهم فيما بينهم وبخاصة فى المعاملات التجارية حيث دفعت بهم إلى التمسّك بالعربية لغة الأسواق التجارية والدين، وأعان على ذلك أن التجارة كانت فى أيدى العرب، وكانوا ينتشرون فى كل مكان ويرتحلون فى جميع الوديان. ولقد دخلت اللغة العربية فى معارك لغوية كثيرة، وخرجت منها مظفّرة، دخلت فى صراع لغوى مع اللغات الأفريقية المحلّية وانتصرت عليها، بل لقد استمدّت منها اللغات الأفريقية المحلية الكثير والكثير من الألفاظ والمعانى..

فاللغة السواحيلية أخذت منها قواعد التركيب اللفظى، وفى مناطق أخرى احتفظت بشكلها المعروف، وبخاصة فى ميدان التقنين والتشريع فى المجتمعات التى ساد فيها النظام الإسلامى، فإنّ خَلْق لهجة عربية خاصة بعد الاحتكاك اللغوى احتاج إلى عملية امتصاص وتفاعل وتمثيل وأخذ تيّار العروبة يزحف إلى الكثير من أجزاء القارة حتى اصطدم بالاستعمار الأوربى. اصطدم تيار العروبة

ع انجلترا رائدة الاستعماريين ثم مع المستعمرين، وقد وجدوا أن خطر ما سيواجههم فى السيطرة على القاهرة هو تيار العروبة، أخذوا الثقافة الأفريقية وصنّفوها، ووجدوا أنهم أمام نوعين منها:

ثقافة عربية: تستند وتتساند على تراث فكرى ودينى يجعلها لا تخضع ولا تلين أمام الثقافات الأخرى، بل تستطيع مقاومة هذه الثقافات والسيطرة عليها.

وثقافة أفريقية: هيّنة يسهل هضمها وضغطها فى الثقافات الأخرى القوية. وبعد هذه الدراسة واجه المستعمرون هذه اللغة القويّة بأكثر من أسلوب تبعًا لاختلاف جنسية المستعمر، فالإنجليز انفردوا بأسلوبهم المتميز الفريد فى محاربة اللغة العربية فى أفريقية، لقد أحيوا الثقافة الأفريقية الأصلية وصبغوها بصبغة قبلية إقليمية تستهدف أغراضهم ومناهجهم الاستعمارية.

والمقصود بذلك إقامة سدٍّ فى وجه اللغة العربية، تلا ذلك تسلّل تدريجىّ لإحلال اللغة الإنجليزية ونشر الثقافة الإنجليزية، وقد رسموا لذلك تخطيطًا استعماريا لغويًّا، يبدأ بتشجيع دراسة اللغات الأفريقية على يد المبشّرين وعلماء اللغات؛ لتحقيق المعرفة الأوّلية بهذه اللغات، ثم محاولة تصنيفها وتوحيد مجموعات لغوية تواجه الاحتياجات التعليمية، واختيار لهجة تسود وينتفع بها فى التعليم فى المدارس الابتدائية، ثم إلغاؤها بعد ذلك تدريجيًّا أو نهائيا.

ويأتى بعد ذلك تشجيع اللغة الإنجليزية المبسطة كتمهيد لسيادة الإنجليزية وأخيراً إحلال اللغة الإنجليزية كلغة أساسية فى مراحل التعليم المختلفة حتى مرحلة التعليم العالى، ولا تنس موقف العداء اللغوى السافر بالنسبة للغة العربية فقد تجنّى عليها المستعمرون، واتّهموها بالضعف، وحاولوا أن يدفعوا الناس إلى كتابتها بالحروف اللاتينية..

إن الاستعمار السياسى يعقبه استعمار اقتصادى، ويؤمّن عليه باستعمار ثقافى، واللغات الأوربية فى أفريقية رمز خطير للظاهرة الاستعمارية، وهى لم تكتف بالتغلغل والسيطرة، بل حاولت أن تحارب العربية وغيرها من اللغات التى تعلّق بها الأفريقيون..

ولما وجدوا أن الشعوب تنفر من لغة المستعمر، حاولوا تقوية اللغة السواحيلية لتكون بديلاً عن اللغة العربية، لكن الذى حدث أن الأفريقيين درسوا لغتهم وجعلوها لغة رسمية، ولكنهم مسلمون وكتاب الإسلام هو القرآن الكريم - والقرآن باللغة العربية، إذن فإن اللغة العربية بقيت وخلدت، والجماهير المسلمة تنظر إليها لا على أنها مجرد لغة، ولكن تنظر إليها بروح القداسة لأنها لغة القرآن، ولغة رسول الإسلام، ولغة كتب الدين التى يحبّونها ويحترمونها ويتعلّمون منها أصول دينهم.. والله تعالى تكفّل بحفظ

اللغة العربية عن طريق حفظ قرآنه الكريم، فقد قال: ﴿إنّا نحن نزّلنا الذكر، وإنّا له لحافظون﴾..

* * *

ويتبيّن من هذا، العبء الضخم الملقى على أجهزة الدعوة الإسلامية فى مصر وفى سائر الدول الإسلامية لرسم خطة لنشر الدعوة الإسلامية وللحفاظ على اللغة العربية لغة القرآن الكريم، ولا يكفى أن تقف الدول العربية والإسلامية موقف المتفرّج واللغة العربية تجد هذا التآمر الاستعمارى، الخطير، الذى يخطّط له وينفّذه الاستعمار مع التبشير ويهدف إلى إيقاف الزحف الإسلامى الجبار فى داخل أفريقية شرقيها وغربيها ووسطها، وحينما يزحف الإسلام من شمال القارة متجهًا نحو جنوبها، فى الوقت الذى يزحف فيه من جنوبها متجهًا نحو شمالها، فسيتقلص نفوذ التبشير، وتتقلّص كذلك الوثنية، وتصبح قارة أفريقية قارةً إسلامية فاهمةً للإسلام مطبّقة تعاليمه حافظةً لكتابه، ناشرةً لغته وهى اللغة العربية...

عادات وتقاليد فى المنطقة

للمجتمع التنزانى عادات وتقاليد يتميّز بها، وذلك بالنسبة لميلاد الطفل وختانه وتثقيفه الإسلامى، والزواج، والموت والحداد.

١ - الميلاد:

يعتبر الأطفال خطرًا يهدّد المجتمع إن ولدوا فى ظلّ ظروف شاذّة، أو بهم مسٌّ من الشيطان أو لحقهم تشويه ما: وعندما يولد الطفل فإن المعلّم، أو أكبر العائلة سنًّا يُدعَى لترتيل الأذان فى أذنه اليمنى أوّلاً ثم فى الأذن اليسرى، ويبقى الطفل فى داخل البيت لمدّة ستة أيام ثم يوضع فوق مطرحة من القش النقى النظيف الخالى من الشوائب ويحمل لكى يرى الشمس ويعرض للعائلة ثم يلقى الماء من فوق سقف البيت ويصيحون والماء يتساقط «إنها تمطر.. تمطر.، أجر.. أجر».

وفى جزر القمر يقام هذا الاحتفال فى اليوم التاسع قبل الفجر، ويربط حجاب وعادةً - مايكون سورة يس - حول رقبة الطفل. والبعض يؤدّى العقيقة، وهى أوّل قصٍّ لشَعر الطفل مع تسميته

تقديم ذبيحة فى اليوم الثامن، وبعد التسمية تنشد الموالد عادةً فى
بت الوالد (وفى منزل أم الزوجة دائمًا بالنسبة لأوّل طفل يولد) وفى
عض الأحيان يختن الطفل سواء كان ذكرًا أم أنثى فى زنجبار فى
ليوم الثامن ويقوم بقصّ شعره حلّاق القرية، وتختلف طريقة
التخلّص من الشعر المقصوص من مكان إلى آخر فالحاديميون عادة
يدفنونه فى شاطئ البحر بجوار إبريق ماء، وفى أجزاء كثيرة من
الساحل تتم الحلاقة فى اليوم الأربعين ولا يهتمّون بالتسمية،
والواضح أن احتفال العقيقة قد تحوّل إلى اليوم الأربعين عندما يتم
تطهر الأم والطفل من شوائب الولادة فإن كلًّا من الأم ووليدها
يشتركان معًا فى الطهارة وفى عدمها، وتفرض بعض الممنوعات على
الوالدين من مولد الطفل حتى فطامه. ويُذبح طيرٌ فى اليوم الثامن:
ديك للولد ودجاجة للأنثى، ويُغلى حتى يتحوّل لحمه إلى سائل
ويضاف إليه الفلفل والجنزابيل والحبّهان ويقسم إلى أربعة أنصبة،
نصيب للمعلم، ونصيب للوالدين، وآخر لكبير العائلة، والرابع
للفقراء والمساكين (عادة، يكونون من عبيد المنازل السابقين)
ولا تترك الأم حجرتها حتى اليوم الرابع عشر لكيلا تخطو فوق
العتبة، ويزورها المعلم كل يوم ليرشّ الماء فوق رأسها ويقرأ سورة
يس، ويتمّ قصّ شعر الطفل وتطهر الأم والبيت كله فى اليوم
الأربعين وبعد ذلك تجتمع الأسرة جميعًا حول وليمة يقدَّم فيها خبزٌ
معدٌّ إعدادًا خاصًّا.

ويختار الاسم بواسطة الأشخاص المعتادين، وتختاره عمّات الطفل فى أوساط السواحيليين الشماليين، وأحيانًا يختاره المعلم، وأحيانا أخرى يتمّ الاختيار بالقرعة وذلك بأن يقوم طفل صغير باختيار اسم من بين عدد من أسماء الأسلاف.. وفى زنجبار تتبع عائلات قليلة حرفية القانون وذلك بوزن الشعر ثم إخراج ما يعادله ذهبًا، والضحية عادة ما تكون عنزة للبنت واثنتين للولد.

وفى زنجبار لا يرتلون القرآن فى هذه المناسبة ولا يقيمون صلاة ولا ينشدون الموالد أيضًا.

ويبدو بصورة عامة أنه لا تعطى أهمية خاصة لتسمية المولود، فالاسم الذى يطلق على الطفل عند مولده لا يستمرّ بالضرورة - بين بعض السواحيليين - كاسم يعرف الشخص به بعد ذلك، فإن الأحوال والظروف قد تستدعى إطلاق اسم مستعار عليه، وقد يكون اسم عيب أو مسبة أو إساءة كأن يسمّى الشخص «العبد»، وفى البداية يطلق عليه اسم بمناسبة الختان ثم فى الزواج يسمى باسم آخر.

ويتميز المجتمع السواحلى، ومنه الأفارقة العرب بقراءة العقيقة للطفل فى اليوم الثانى أو الثالث أو الرابع لوفاته وذلك يقابل الخاتمة فى مأتم البالغين، وتعتبر قراءة «العقيقة» فى الواقع «تسمية طفل حديث الولادة توفى، قراءة الدعوات من أجله»، وهى لا تقام

بطبيعة الحال لمن لا يموت من الأطفال حديثى الولادة إذ أن احتفالات العقيقة الأصلية التى تقام للأحياء من الأطفال عادة ما يتأخر، والاعتقاد الشائع أنه إن لم تتم احتفالات العقيقة، لا يصبح الطفل شخصًا ولا يعتبر مسلمًا ولن يقبله الله، ومنها يردّد المعلم دعوات باللغة العربية تنتهى بأن يدعو الله أن يقبل الضحية التى هى عنزة أو اثنتان (تبعًا لما إذا كان الطفل ذكرًا أم أنثى) كشهادة للطفل، وتذبح العنزة وتشوى فوق الفحم ثم تقدَّم ومعها العسل الأبيض إلى الحاضرين جميعًا[1].

والاحتفال بإشهار إسلام البالغين، شبيه باحتفال العقيقة للأطفال، والإشارة إلى أحدهما تغنى عن الإشارة إلى الآخر.

وإشهار الإسلام أمر له أهميته الكبرى فى شرق أفريقيا حيث يغلب طابع التحول الفردى إلى الإسلام أكثر منه فى غرب أفريقيا حيث التحوّل الجماعى هو القاعدة. وفى زنجبار حيث الإسلام هو الدين السائد لا تثور ضجّة فى مناسبات التحوّل إلى الإسلام ولكنه يعتبر حدثًا هامًّا بين مسلمى الداخل خصوصًا إذا كان الشخص الذى تحوّل إلى الإسلام شخصيةً لها مغزاها كأن يكون زعيمًا مثلا أو أن يكون مسيحيًّا.

وعناصر الاحتفال بإشهار الإسلام هى: الإعداد (التعاليم

---

(١) العسل الأبيض الذى يقدّم مع اللحوم هو عادة حضرمية.

والختان) والاغتسال والتسمية ثم الوليمة الدينية.

ويقول المتحولون: إن التعاليم روتينية وهى فى الأغلب تتكوّن من الشهادتين والوضوء والصلاة وبعض الواجبات الأخرى والممنوعات.

والختان إجبارى إن لم يكن المتحوّل قد ختن من قبل، وبعده بثلاثة أو أربعة أسابيع عندما يشفى الجرح تمامًا يخلع المتحوّل ملابسه القديمة ويغتسل اغتسالاً شاملاً ثم يُعطى مايغطى به عورته ويصب المعلم الماء عليه سبع مرات وهو يقرأ الفاتحة ثم يسميه أمام الحاضرين، ويتمّ ذلك عادةً إمّا فى بيت المعلم أو فى بيت أحد أقرباء المتحوّل من المسلمين، وأحيانًا فى أحد المساجد. وليس ضروريًا أن يذبح ضحيّة خاصّة، عند التسمية، ولكن الوليمة تعتبر جزءًا من المناسبة وعادةً تقام فى أحد بيوت أفراد قبيلته من المسلمين فإن لم تكن قبيلة أو كان قد انفصل عنها ففى بيت المعلم، وفى أوغندا يختار المتحوّل عادةً اسمه بنفسه، وقد تم اختيار اسم اسلامى لزوجة مسيحية لأحد زعماء أوغندا بعد خلوة لمدّة يوم كامل أمضته فى بيت المعلم، وبعد اغتسالها قام المعلم بتبريك الماء الذى اغتسلت به ثم خرجت بعد ذلك إلى الناس للاحتفال بتسميتها.

وفى الداخل فى تنجانيقا يستقبل الذين يشهرون إسلامهم ويتحوّلون إليه بطقوس وشعائر معيّنة وأحيانًا يرسل الوالدان

الوثنيان أبناءهما إلى هذه الاحتفالات لكى يسملوا اعتقادًا منهم أنها وسيلة تساعدهم فى مستقبل الأيام.

وغيرهم يتحوّلون إلى الإسلام فى صمت دون احتفال فيطلقون على أنفسهم أسماء إسلامية ثم يعرفهم الناس بعد ذلك عند أدائهم الصلاة فى المساجد.

٢ - الختان والتلقين:

تعتبر شعائر التلقين من القوانين والعادات القبلية التى احتفظت بقوّتها والتلقين القبلى فى كامل صورته يتمثّل فى احتفالات الجاندو التى يقيمها المسلمون للختان والتلقين معاً.

والرقصات التى تقام فى مناسبتها تسمّى أويناجو، أمّا الإسلام نفسه فلا يعرف من ذلك سوى عادة الختان وهى شعيرة للتطهّر، فردية فى طبيعتها ومع ذلك فلها أهمية اجتماعية قصوى لأنها تفتح الطريق أمام حياة البالغين الإسلامية، والوحيدون الذين يأخذونها بهذا المعنى المحدّد هم العرب والمندمجون منهم وبعض العائلات الجديدة، أما بالنسبة لغالبية الأفريقيين المسلمين فإن الختان يعتبر مقدّمة يكملها التلقين، كما أنه جماعىّ وليس فرديًا وتكون فترة الشفاء من الجرح، ومن وقت خلوة المختن واختفائه إلى بداية إعداده فى مدرسة من مدارس التلقين أو التأهيل.

وفى المجتمعات السواحيلية كثيرًا ما يكون المختن هو نفسه المعلم أو شيخ الجماعة حيث إنها شعيرة إسلامية، ولكن مدّة الخلوة بعدها يحدّدها رجل الدين التقليدى. ولقد اجتمعت فيها عناصر من الإسلام وعادات البانتو ولكنها لم تنصهر جميعًا معاً، فإن الإسلام يظهر واضحًا فقط عندما يتمّ فى النهاية إنشاء الموالد وتوزيع الصدقات وهناك مراحل ثلاث: الختان، والعزلة أو الخلوة، ثم الخروج بعدها.

٣ - التثقيف الإسلامى:

يحتلّ التثقيف الإسلامى مركزًا هامًّا فى الحياة السواحيلية، فعندما يبلغ الطفل من العمر ست أو سبع سنوات، يتفق والده مع المعلم على إلحاقه بالكتّاب، أى مدارس القرآن - وعادةً يستشير العراف ليحدّد له يومًا ذا طالع سعيد يبدأ فيه دراسته، وعند حلوله يصحب ابنه إلى المدرسة وهو يحمل معه العطاءات والهبات المعتادة التى تتكوّن فى زنجبار من أرز مخلوط بالخبز وأذرة محمصة، ويقول للشيخ وهو يسلّمه تلك العطاءات أمام ابنه:

«لقد حضرت لكى أعهد إليك بابنى، لا تحافظ على شىء من سوى عينيه» ومعنى ذلك: لا تبخل بالعصا وقد سمعت أن بعض المدرّسين لا يبخلون بها وأن التلاميذ يضربون ضربًا مبرحًا، ويقسم الوالد العطاء الذى أحضره، يعطى الشيخ الأرز المخلوط بالخبز،

ويوزع الأذرة على التلاميذ.. وفترات الدراسة تبدأ فى الصباح من (٧-١٢) وبعد الظهر من (٢-٥).. وفى هذه الأيام يحدث كثيراً أن يذهب الصبية إلى مدرسة عادية فى الصباح، ثم إلى الكتّاب بعد الظهر لأن التلاميذ الذين تقتصر دراستهم على الكتّاب لمدة ثلاث سنوات، ثم يذهبون بعدها إلى المدارس العادية يتأخرون كثيرًا عن غيرهم من التلاميذ، وتدريس القرآن عمل دينىّ لا يتوقّع عليه أجر، ومع ذلك فإن الشيخ يتلقى فى العادة بعض الهدايا وفى كل يوم من أيام الخميس. يحضر الطفل معه للشيخ نصف شلن، أما قبل الأعياد وقبل شهر رمضان بثلاثة أيام فيأخذ المدرس من ٥ شلنات إلى سبعة شلنات ونصف كعيدية، وتغلق المدرسة خلال تلك الأيام الثلاثة وبعد الظهر طوال أيام رمضان كما تعطّل لمدّة سبعة أيام فى عيد الفطر وكذلك فى أيام الجمعة وبعد الظهر من كل خميس، وبعد تعلّم الألف باء بالعربية ويرسل الآباء هدايا للمدرّس وطعامًا للأطفال، وكذلك يفعلون عند نهاية كل مرحلة من مراحل التعليم، وتُعطَى هدية أكبر للشيخ عندما ينتهى الطفل من حفظ القرآن، وبعض المدرّسين يقومون بصنع الجبب والكوفيات وبيعها، وفى بعض المناطق يعمل التلاميذ فى بيوت المدرّسين فى حمل الماء وفى جمع خشب الوقود، أو يعملون فى مزارعهم وفى تنظيف البيوت وفى بعض الأعمال الأخرى، كما أنهم يستخدمون فى إنشاء الموالد التى يتقاضى عنها أجرا..

ويبدأ التلميذ بتعلم القراءة والكتابة بعد الألف باء، وبعد ذلك

يكتب المدرّس فوق «اللوح» بداية «جزء عم». وبعد أن يتم التلميذ استظهاره يبدأ فى حفظ القرآن جميعه مبتدئًا بالفاتحة.

وفى زنجبار يبدءون عادةً بالفاتحة، ثم ينتقلون إلى جزء «عم» وقد يكون على التلميذ أن ينقل فوق لوحه سوراً من أجزاء القرآن المطبوعة التى يجب عليه أن يحصل عليها بنفسه من المصحف، فإن تقدّم فى دراسته قد يعطيه أبوه مصحفًا كاملاً.. والمصاحف هناك ليست كثيرة، وأذكر أننى وأنا فى إحدى رحلاتى إلى المناطق الداخلية لجمهورية تنزانيا أخذت معى مجموعة من المصاحف لأوزّعها هدايا على تلاميذ المدارس القرآنية، وأوزّع بعضها فى المساجد، فتسابق الطلاب، وتسابق الأهالى كلٌّ يريد أن يأخذ مصحفًا، ولمّا لم يتسّع عدد المصاحف التى معى لهم جميعًا. أخذوا يقسّمون المصحف الواحد إلى أجزاء، وكل واحد يأخذ جزءًا بحسب نصيبه الذى أدركه فى التوزيع، ويخصّص صباح يوم الخميس لتعلم إنشاد مولد يسمى مولد البرزنجى باللغة العربية، ومثل هذه المدائح النبوية كان لها تأثير كبير فى المحافظة على اللغة العربية نطقًا لا كتابةً، وغالبيّة الذين ذهبوا إلى الكتّاب لا يتكلمون العربية ولا يكتبونها، ولكن يحفظون ما أمامهم فى المصحف، عن طريق تلقين معلمهم ما يريد منهم قراءته أو حفظه، فإذا ما كرّر النطق نقشت كلمات القرآن فى عقله، ويستطيع أن يقرأها فى المصحف ولكن لا يستطيع قراءة غيرها من الكلمات العربية.

وعندما يُخطِر المدرّس والد الطفل بأن ابنه قد أكمل استظهار القرآن فإن مجموعةً من المعلّمين تُستدعَى لاختباره، فإن اجتاز الامتحان يُعطى والده للمدّرس مبلغًا يتراوح من ثلاثين إلى ستين شلنًا كفدية لولده، وفى بعض الأحيان يكون ذلك مناسبة لإنشاء الموالد وإقامة الولائم إذا كان الوالد قادرًا على ذلك.

ومن الضرورى للنساء أن يكنّ قادرات على تلاوة القرآن وأداء الصلوات المفروضة وفى الكتّاب يتعلّم الذكور جنبًا إلى جنب مع الفتيات حتى يبلغن سنّ البلوغ وعندها يحجبن، وفى بعض المناطق تردّد فتيات كثيرات على المدارس، بعكس مناطق أخرى حيث يقلّ عددهن، كما أنه لا يوجد سوى عدد قليل من مدارس البنات (فى تانجا وزنجبار)، ومع ذلك لا حظت أن التلاميذ الأكثر تفوّقا فى المدارس التى قمت بزيارتها كان بينهم عدد لا بأس به من الفتيات.

٤ - الزواج:

يقوم الزواج فى شرق أفريقية - شأنه شأن باقى نواحى الحياة الإسلامية، - على عنصرين:

الأوّل: عنصر إسلامى وتحكمه القوانين والعادات الإسلامية.

والثانى: عنصر إقليمى وتحكمه العادات والتقاليد الوطنية.

وبينما ظلّت الناحية الإسلامية منه على ما هى عليه لم تتغيّر، لأنها

تقوم على قانون ثابت ومكتوب، وإن حدث فيها اختلاف، فسببه الجهل والإهمال، فإن هناك تنوعات كثيرة وملحوظة فى العنصر الوطنى الأهلى بين المجموعات السواحيلية المختلفة.

والزواج فى صورته العامة يتكوّن من ثلاث مراحل: العرض، والاحتفال بالعقد الإسلامى، ثم اجتماع العريس بعروسه.

(أ) **العرض**: الزواج فى أساسه هو عقد بين والدين، والد العريس، ووالد العروس، وفى البداية، أى قبل اتّصال العائلتين، تستشير أسرة «العريس» عرّافًا فى طالع الفتاة وأسرتها قبل الإقدام على الارتباط بها، فإن جاء الطالع سعيدًا والفأل حسنًا، قام أفراد من أسرته - من بينهم خاله فى أغلب الأحوال - بزيارة أسرة العروس ويحملون معهم هدية يقدّمونها قبل التقدّم بعرض الزواج، ويهتم العرب عادةً بأن يكون العريس كفئًا لعروسه، أما المسائل المالية فيناقشونها بعد التأكد من مدى كفاءته ولياقته لابنتهم. وبعد الاتفاق المبدئى بين الأسرتين يدفع مندوبو أسرة العريس مبلغًا لأسرة العروس يسمّى «فاتح الباب».

وهذا المبلغ كما تدلّ تسميته بفتح الباب فى وجه العريس من ناحية، ويغلقه فى وجه الخاطبين من ناحية أخرى.

والمدفوعات التى يؤدّيها العريس هى: المهر للعروس ومبلغان أساسيان لوالديها: ثمن العروس لوالدها ويسمونه «ثمن العمامة».

أما والدتها فيدفع مبلغًا يسمى مكاجا أو مويليكو.

والمكاجا هو القماش الذى تلفه المرأة حول وسطها أيام الحمل وبعد أن تضع مولودها، أما المويليكو فهو الرباط الذى يشدّ الطفل إلى ظهر أمه. وإن لم يدفع المهر المتفق عليه بكامله فإن حدّه الأدنى على الأقل لا بدّ من دفعه، على أن يدفع الباقى إذا ما طلّق الزوج زوجته، أو تتقاضاه من تركته[1] وبرغم أن المذهب الشافعى لم يضع حدًّا أدنى للمهر، فإن بين عرب ساحل كينيا لا يقلّ عن أربعة وستين شلنًا. وبجانب تلك المدفوعات توجد مبالغ أخرى تقليدية وهدايا سيجىء الكلام عنها فيما بعد.

(ب) الاحتفال بالعقد: ويسمى «هطوبا»[2] أو عقد النكاح ففى اليوم ذى الطالع السعيد[3] الذى يحدّده العرّاف يتوجّه العريس، ومعه أقرباؤه وأصدقاؤه إلى المسجد أو إلى المحكمة أو منزل العروس حيث يجدون المعلم أو القاضى ووالد العروس أو ولىّ

---

(١) يتراوح المهر فى زنجبار بين ٩٠٠ إلى ٣٠٠٠ شلن للعذراء وبين ٤٠٠ إلى ٦٠٠ للثيب تدخل فيه المدفوعات الأخرى، وعلى الساحل يختلف مهر العروس الذى يدفع للوالد حسب الحالة الاقتصادية للعريس ومركزه الاجتماعى.

(٢) والأغلب أن هذه الكلمة، – مأخوذة من خطبة أى موعظة لأن كلمة خطوبة بمعناها المعروف لا تنطبق هنا.

(٣) توجد فترات مثل شهر صفر يحرم الزواج فيها.

أمرها وبعض الشهود، ويجلس الوكيل الذى يكون قد تحقق من موافقة العروس سواء بزيارتها شخصيا أو بشهادة شاهد على ذلك، ويفسر صمتها وسكوتها بأنها موافقة - فى مواجهة العريس وأصدقائه ويسأل سؤالا تقليديا: «هل توافق على أن تتخذ «فلانة» زوجة لك طبقًا لما تمّ عليه الاتفاق معك على صداق مقداره (كذا شلن) الذى دفعت منه مقدار (كذا؟) وبعد الإجابة بنعم يعيد الوكيل السؤال مرة أخرى وتتكرّر إجابة العريس، وهنا يقرأ الحاضرون الفاتحة ويتلو المعلم صيغة عقد النكاح، وبعد انتهائه يصافح الحاضرون بعضهم بعضًا ثم يتناولون القهوة والحلوى.

(جـ) دخول البيت (الدخلة): ولا يكتمل عقد الزواج إلاّ بتمام «الدخلة» وإقامة الوليمة، ونادرًا ما تكون «الدخلة» فى نفس اليوم الذى يعقدون العقد فيه، ذلك أنه لابد من استطلاع رأى العراف مرةً أخرى، وعادةً يكون ذلك فى مساء اليوم التالى[1] عندما يذهب العريس إلى منزل زوجته مصحوبًا بأصدقائه مهندمًا[2] ومعطّرًا، فيجلسونهم فى غرفة خارجية قبل أن يأخذوه إلى غرفة العروس. وبعض السواحيلية يذبحون طيرًا أو عنزة كضحية عند عتبة الدار

---

(١) وبين العرب إذا كان الزوجان أولاد عمومة فمن الممكن أن تصحب العروس إلى منزل عريسها.

(٢) فى زنجبار يلبس العريس رداءً طويلا تزينه أشغال الإبرة ويضع عمامة كبيرة.

قبل دخول العريس حتى يخطو فوق دمها عند دخوله، وفى الساعة التى يحدّدها العرّاف، يدفع مبلغًا يسمّى أيضًا «بفاتح الباب» إلى «بلانة العروس»[1]. فتسمح له بدخول حجرتها حيث يجدها ملتفةً فى إزارها النسائى، وتطلب «البلانة» منه أن يخلع ملابسه ويضع هو الآخر إزارًا جديدًا وعليه أن يقدّم لعروسه هدية لكى تسمح له بأن يمسك بيدها أوّلاً، وهدية أخرى لكى يمسك بذراعها، ثم لكى يكشف النقاب عن وجهها عليه أن يقدّم إليها الهدية الثالثة.

وفى اليوم الأوّل بعد الدخلة[2] تقام الوليمة الشرعية للزفاف على نفقة العريس وهى غير الاحتفالات التى تبدأ فى اليوم التالى وتستمر لمدة سبعة أيام ويطلقون عليها فونجاتى وفى أثنائها يقدم الطعام على نفقة أهل العروس، وفى بعض الأحيان تتبادل الأسرتان تقديم الطعام كل أسرة فى يوم، ويلاحظ أن الوليمة الشرعية الإسلامية دخلت فى الإطار العام للاحتفالات الأصلية المحلية، وهى كثيرًا ما تقام فى زنجبار فى اليوم السابع من الفونجاتى، يسبقها فى بعض الأحيان إنشاد الموالد.

وهناك أيضًا ما يسمى «بالاحتفال بغسل الأقدام» وليس له

(١) أى التى تتولّى تزيينها ومرافقتها حتى منزل الزوجية.

(٢) يطلب عادة الدليل على عذرية العروس معناها عرض القماش الأبيض فوق الفراش وعند إتمام ذلك يعطى العريس عروسه هدية للتعويض تسمى الجزاء.

وقت محدّد، فأحيانًا يتمّ فى الغرفة الخارجية بعد دفع «فاتح الباب» «للبلانة» وقبل ذهاب أصدقاء العريس، وأحيانًا أخرى - كما فى زنجبار - يقام فى اليوم الأوّل لاحتفالات السبعة أيام (الفونجاتى)، وفى ممباسا يقع فى اليوم الثالث من تلك الاحتفالات وعلى العريس وأصدقائه أن يدفعوا «غسيل الأقدام» لبلانة العروس فتقوم بغسل أقدامهم ومسحها بالزيت.

وإلى جانب ما يقوم العريس بدفعه من مبالغ تقليدية. وما يقدّمه من هدايا تحتّمها التقاليد والعادة، عليه أيضًا أن يقدّم هديةً إلى كلّ فتاة من الفتيات اللاتى تحطن بزوجته من صديقاتها «وصيفات الشرف» إلاّ أننا يجب أن نشير إلى أن كل تلك المظاهر والاحتفالات والهدايا والمدفوعات المختلفة لا تتمّ إلاّ فى زواج العذراء فقط، أما الثيّب (المطلّقة أو الأرملة) فزواجها بسيط لا يحيط به سوى الضرورات فى أضيق حدود الإنفاق.

ويتبع السواحيليونَ قواعد الشريعة فى الطلاق فإن طلّق الزوج زوجته فقد وجب عليه أن يدفع لها الدْين المستحق فى عقد الزواج أما إن كانت الزوجة هى التى حصلت من القاضى على الطلاق، فإنها تعيد ما سبق أن قبضته. ومسبّبات حصول المرأة على الطلاق قليلة ويفسّرها القضاء تفسيرًا محدودًا وضيّقًا وتثور المشاكل كثيرًا حول المبالغ التى تسترد لأن كل ما يدفع يذكر فى العقد ويصبح

استرداد الزوج لما سبق له أن دفعه عبئا ثقيلا على أسرة زوجته، ولذلك فإن كثيرًا من الزوجات يهجرن أزواجهن ليس فقط بسبب الصعوبة التى يواجهنها فى الحصول على الطلاق أمام المحكمة، بل أيضًا بسبب عجز أسرة الزوجة عن مواجهة العبء المالى بردّ ما سبق للزوج أن دفعه إذا ما سمحت لابنتها بطلب الطلاق من المحكمة، ولتذليل تلك الصعوبات كثيرًا ما يتفاهمون على الطلاق مع بعض التعويض. أمّا إذا طلّق الرجل زوجته طلاقا بائنًا لا رجعة فيه فلن يستطيع الزواج من نفس المرأة مرةً أخرى حتى تتزوّج من غيره (المحلّل) ويحافظ العرب على الفترة الشرعية المحدّدة للعدّة بعد الطلاق، ولكن الأفارقة السواحيليين وبخاصة «الوازاليا» فلا يهتمون كثيرًا بها.

وبالنسبة لأركان الحياة العائلية الأخرى مثل علاقة الزوج بزوجته أو زوجاته ورعاية الأطفال، فإنه السواحيليين جميعًا يتبعون المذهب الشافعى فيها، أما شعوب القبائل فلا يزالون يطبّقون عاداتهم وتقاليدهم وأعرافهم السائدة.

٥ - الموت والحداد:

عندما يقترب شخص ما من نهايته ويصبح على شفا الموت، يستدعون شيخًا لتلاوة سورتى يس والرعد، وتأدية بعض الصلوات

وتقترن قراءة البردة للبوصيرى بحالة المرض الخطير، وبالموت أيضًا، وخصوصًا ما جاء فيها عن التلقين لتمكّن الروح من الردّ والإجابة على ملائكة الحساب.

وشعائر الموت ثلاثة:

الجنازة.

الحداد.

نهاية فترة الأربعين.

حفل ختم القرآن:

ومن التقاليد المحمودة فى حالة الوفاة، أن الميت بعد أن يدفن يعلن عند قبره أن حفل ختم القرآن فى أكبر مسجد من مساجد الحى الذى يقع فيه منزل المتوفى، وقد يختارون مسجد الجمعة وهو أكبر مساجد العاصمة «دار السلام» ويقع فى وسط المدينة.

وقد شاهدت هذا الحفل، وهو عبارة عن أن كل من يريد العزاء يفد إلى هذا المسجد، حيث يصلّى العشاء مع الجماعة، وبعد صلاة العشاء وأداء السنّة والوتر، يوزّع شيخ المسجد أجزاء القرآن على كل الحاضرين فى المسجد، ويكون المسجد مكتظًا بالمصلّين مثل صلاة الجمعة، وبهذا المسجد وبالمساجد الكبرى أكثر من ثلاثين مصحفًا، مجزّأةً على أجزاء القرآن الثلاثين، وكل جزء مجلّد تجليدًا قويًا، وذلك

يعنى أن تسعمائة من المصلين يستطيعون أن يقرءوا القرآن فى وقت واحد، وهذه الأجزاء وجدتها مطبوعة فى سنغافورة وبعضها فى الهند، ومهداةً إلى المساجد، ثم يعطى شيخ المسجد إشارة البدء بالقراءة، فيمسك كل واحد الجزء الذى معه، ويقرأ فيه حتى يتمّه، وتسمع للمسجد دويًّا كدوىّ النحل، وقد أحسست وأنا أشاركهم هذه القراءة أن ملائكةً من السماء تحفّ هذا المكان الذى يرتفع فيه كلام الله بالقراءة، وبعد حوالى ثلث ساعة يعطى إمام المسجد إشارة الانتهاء فتطوى الأجزاء وتجمع. وتوضع فى دواليب خاصّة بها فى المسجد، ثم يتحدّث الشيخ الأزهرى إن كان موجودًا أو إمام المسجد الوطنى بكلمة مناسبة فى الاتعاظ بالموت، والتذكير بالآخرة وبلقاء الله، ثم يدعو للميت بالرحمة والمغفرة والجميع يؤمّنون، ثم توزّع بعض الحلويات وأكواب القرفة التى أحضرها أهل الميت، وبعدها يتّجه أهل المتوفى إلى باب المسجد الخارجى ليتقبّلوا العزاء من الحاضرين، وينصرف الجميع بعد أن احتفلوا بختم القرآن ودعوا للميت بالرحمة. هذه هى كل الاحتفالات التى تقام بمناسبة الوفاة، لا توجد سرادقات ولا قرّاء، ولا سهرات غير هذه السهرة، ويتم الحفل بهذه البساطة، وأعتقد أنها أقرب الوسائل قربى إلى الله وأنفع للميت إذ لايعدم أن يكون فى هذا الجمع لسان طاهر وقلب مخلص يدعو بالرحمة للميت فيستجيب الله.. هذه الظاهرة شاهدتها فى منطقة شرق أفريقية كلها، فى الصومال وكينيا وتنزانيا وأوغندا، وهى ظاهرة

طيبة، حبّذا لو أخذناها عنهم ونبذْنا تقاليدنا المذْمومة من التغالى فى إقامة السرادقات وإحضار مشاهيرْ القراء، وغالبًا يكون ذلك من باب الرياء والسمعة، وليقال: «إن فلانًا صنع كذا لميته».

والميت لا ينفعه إلّا ما ورد فى الحديث الشريف: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلّا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له».

البَابُ الثَالث

الجهود المبذولة لنشر الإسلام

١ - الجهود المبذولة من الأزهر ووزارة الأوقاف

اتّصل الأزهر بالمنطقة منذ زمن طويل، عن طريق الطلّاب الذين يفدون إلى القاهرة للتعليم بالأزهر، وتوجد به أروقة للطلاب الأفارقة، يقيمون فيه، ويتعلّمون بين جنباته، وتخرّج فيه عدد من العلماء، وخصوصًا من الصومال، أقام بعضهم بمصر، ووجد بها وظيفة مناسبة، وتزوّج من مصرية، وعاش وكأنه بين أهله وعشيرته، وأعرف منهم عالمًا جليلًا اسمه الشيخ على عثمان الصومالى، وبعضهم عاد إلى بلاده يعلّم المسلمين أمور دينهم.

واتّصل الأزهر بإرتريا عقب الحرب العالمية الثانية، حيث أرسل الأزهر مبعوثين منه لتعليم الدين واللغة العربية. وهناك معهد دينى أنشأه رجل حضرمى استوطن «أسمرة» واسمه عبد الله باحبيش.. وبعد أن استولت أثيوبيا على إرتريا منعت دخول مبعوثين أزهريين هناك لنشاطهم فى الدعوة إلى الإسلام. وأثيوبيا حامية المسيحية فى هذه المنطقة، مما اضطر بعض المبعوثين أن يقيموا هناك ولا يعودوا

إلى وطنهم خشية ألّا يمكّنوا من دخول البلاد. أمّا الصومال فقد ورد فى شأنه قرار الأمم المتحدة فى ديسمبر ١٩٥٠. وأهم ما ورد فى هذا القرار ما يلى:

١ - يصبح الصومال الإيطالى دولة مستقلة بعد عشر سنوات.

٢ - خلال هذه الفترة يوضع الصومال الإيطالى تحت وصاية إيطاليا، ويتحتّم عليها أن تعدّه للاستقلال خلال هذه الفترة.

٣ - يساعد السلطة الإيطالية مجلس استشارى يتكوّن من ممثّلين لمصر وكولومبيا والفلبين وقد أسهمت مصر ومندوبها الشهيد كمال صلاح بنصيب كبير فى تهيئة الشعب الصومالى للاستقلال وقدّمت خدمات واسعة فى هذا المجال.

أما الصومال البريطانى فقد وعدت بريطانيا بمنحه الاستقلال سنة ١٩٦٠ وبناءً على ذلك تم استقلال الصومال البريطانى فى ٢٦ يونيو سنة ١٩٦٠، وتمّ استقلال الصومال الإيطالى فى أول يوليو ١٩٦٠. وقد حضرت حفلات الاستقلال بصفتى رئيساً لبعثة الأزهر بالصومال آنذاك، وقد أجمع السكان الصوماليون بالصومال الإيطالى والبريطانى على تكوين دولة واحدة هى جمهورية الصومال، على أن يطلق على الصومال البريطانى اسم الصومال الشمالى، وتكون عاصمته الإقليمية هيرجيسة. ويطلق على الصومال الإيطالى اسم الصومال الجنوبى، وتكون مقديشيو عاصمة له، وعاصمة الجمهورية، وأصبحت الجمهورية الصومالية عضوًا بالأمم المتحدة ابتداءً من

سبتمبر سنة ١٩٦٠ وقامت ثورة ٢١ أكتوبر ١٩٦٩ بقيادة اللواء محمد سياد برى الذى كان قائداً للجيش الصومالى.

وبتكوين المجلس الاستشارى عام ١٩٥٠ ووجود ممثل مصر فيه، بدأ دخول البعثة الأزهرية هناك. بهدف نشر اللغة العربية. لغة القرآن الكريم - وتعليم المسلمين أمور دينهم.. وكان أفراد البعثة معدودين. وحينما اختارنى الأزهر رئيسًا لبعثته الأزهرية اخترت للعمل معى أربعين من خيرة رجال الأزهر، ما بين مدرّسين ووعّاظ. ومن مختلف التخصّصات، وكان الأزهر يتحمّل مرتباتهم ووزّعتهم على جميع المناطق، خصوصًا المناطق المجاورة للصومال مثل الحبشة، والمناطق التى يوجد بها نشاط للتبشير، مع توجيه عدد منهم إلى الإقليم الشمالى وأبقيت بالعاصمة عشرة أساتذة ليغطّوا الوعظ بالمساجد، وليدرسوا بمعهد الدراسات الإسلامية الذى كان تابعًا لوزارة المعارف الصومالية.. وقد غطّيت بهذا العدد جميع مناطق الصومال تقريبًا. ومعهد الدراسات هذا كان له مدير إدارة صومالى معيّن من وزارة المعارف، وكنت مديره الفنى، واستطعنا أن نربى فيه جيلًا من الشباب المسلم المتمسّك بإسلامه، وقد تخرج فيه من ولىَ القضاء والوظائف العليا فى الدولة وتخرّج فيه شباب أتموا تعليمهم فى مصر فى الأزهر والكلية الحربية.

وكان فى مقدمة الشباب الثائر على القبلية والفساد السياسى بعض خريجى هذا المعهد، ولا يزال بعضهم حتى الآن فى مراكز

القيادة لثورة ٢١ أكتوبر ١٩٦٩. ومن خلال المعهد أنشأنا مجلةً باللغة العربية تعتبر رائدةً فى المنطقة كلها وتسمى مجلة الرائد. وكنا نطبعها على ماكينة «الرونيو» على نفقة الأزهر ونوزعها هدايا بالمجان على المسئولين فى الدولة، ونرسل منها إلى الأقاليم وإلى الدول المجاورة: أثيوبيا، وكينيا، وتنزانيا - وقد كان لها أثر كبير والحمد لله - فى إذكاء الحماس الوطنى والوعى الدينى لدى جماهير المسلمين، وأنشأنا بتمويل من الأزهر مكتبًا للبعثة فى أهم شوارع العاصمة مقديشيو. وكانت تقام فيه الاحتفالات الدينية. وأصبح منتدًى إسلاميًّا يفِد إليه المواطنون من مختلف طبقات الشعب، وخصوصًا الشباب المتعطّش إلى معرفة الثقافة الدينية فكانت تعقد ندوات دينية بصفة مستمرة، وكانت به مكتبة بها كتب متنوّعة فى الفقه والتفسير والحديث. ويقصدها الشباب للاطلاع على ما بها من ثقافة دينية، ويلاحظ أن جميع أهل البلاد شافعيون سنّيون متصوفة، ولذلك لا ترى خلافًا طائفيًّا بين المسلمين. وهذه نعمة من الله عليهم. ولكن بدأت بوادر الخلاف العقدى بعد ظهور النشاط السعودى. وسنشير إليه فى الجهود المبذولة من السعودية وأنشأنا فى مقديشيو معهداً دينيًّا تابعًا للأزهر اسمه معهد مقديشيو الدينى وبه أساتذة من الأزهر يعلّمون الطلاب، كذلك أقام الأزهر معهدًا دينيًّا على نظام معهد مقديشيو الدينى فى مدينة برعو بالإقليم الشمالى، وأوفد إليه مبعوثين يدفع نفقاتهم، ويأخذ بعض طلّابه الناجحين فى منح دراسية

لإتمام تعليمهم بالأزهر.. كما يعمل مبعوثو الأزهر فى المدارس الإعدادية والثانوية حتى الآن.

وفى تنزانيا اتصلت وزارة الأوقاف والأزهر بالمسلمين هناك عن طريق اثنين من المبعوثين فى أوائل الستينات طلبوا إلى جزيرة زنجبار - ليعلّموا المسلمين الدين فى المساجد، وكانت سلطات زنجبار تدفع لهم نصف مرتباتهما. وتهيّئ لهما المسكن المناسب - ووزارة الأوقاف تتحمّل نصف المرتب.. وأقامت وزارة الأوقاف المركز الإسلامى بدار السلام عاصمة الجمهورية. وقد سبق أن تحدّثنا عن أنشطته المختلفة - فيه معهد دينى وجامعة شعبية وعيادة طبية، وقسم نسائى. وقاعة محاضرات ومكتبة عامة، واتخذ فناؤه مسجدًا إلى أن تبنى الوزارة مسجدًا مستقلًا بجواره.. وقد زار المركز جميع المسئولين المصريين الذين يفدون إلى تنزانيا فى مهمات رسمية، واطّلعوا على أنشطته وحازت إعجابهم، وكان من الوفود التى زارته وفد من مجلس الأمة الاتحادى، أيام أن كان قائمًا، ووفد من مجلس الأمة المصرى، ووفد من منظمة التحرير الفلسطينية.

وبالمركز مبعوثون من الأزهر من وزارة الأوقاف، وطبيبان من وزارة الأوقاف تدفع لهما مرتباتهما وبدل العيادة، وتدفع كذلك مرتبات مدير المركز الذى توفده الوزارة مع مبعوثيها. ويدفع الأزهر مرتّبات مبعوثيه، وكان عدد المبعوثين أيام أن كنت مديرًا لهذا المركز عشرة من العلماء خمسة منهم من الأزهر وخمسة من الأوقاف.

كما تمد الوزارة المركز بالكتب. وبالأدوية المطلوبة للعيادة الطبية.

ويقتصر نشاط المركز على العاصمة، وعلى الطلاب الذين يفدون من الأقاليم، لكن ليس للداخل نصيب من هذا النشاط اللهم إلّا بعض الزيارات الفردية فى المناسبات الدينية، وحينما يأتى شهر رمضان توفّر الوزارة بعض القرّاء والعلماء لقراءة القرآن والوعظ والإرشاد فى كثير من المناطق الداخلية، الأمر الذى يجعل المسلمين هناك ينتظرون قدوم رمضان بفارغ الصبر ليستمعوا إلى قراءة القرآن من القراء الذين يسمعون أصواتهم فى المذياع ولم يروا أشخاصهم فهاهم أولاء الآن يجيئون إليهم بأنفسهم بدون أن يتحملوا شيئاً من النفقات، فالبعثة تفد على نفقة الوزارة فى مصاريف السفر وفى بدل السفر طوال شهر رمضان..

أما فى كينيا فلا يوجد للأزهر ولا للأوقاف نشاط دينى، وكنا نمدّهم بالنشرات والكتب الدينية، وخصوصًا نشرة المركز الإسلامى والتى تكتب باللغتين العربية والسواحيلية واسمها «رسالة الإسلام» فهى أداة الاتصال بيننا وبين المسلمين فى كينيا.. وكذلك فى أوغندا كنّا نرسلها إليهم، وتوفد الوزارة إلى أوغندا القراء فى شهر رمضان بناءً على طلب الجهات المسئولة ويلقى القارئ حفاوةً بالغة من المسلمين فى هذه البلاد.

٢ - الجهود المبذولة من السعودية وتقييم هذه الجهود

دور السعودية فى النشاط الدينى بأفريقية دور حديث، إن دورها الباقى الذى تتميز به هو أنها مكان الحرمين الشريفين، وإليها يفد الحجّاج من مختلف بقاع الأرض، فيحسّ الأفريقى الذى يلتقى بإخوانه المسلمين فى الحجّ بأنه عضو فى جماعة كبيرة، وأنه ليس وحده، بل هناك الملايين من أمثاله، يعبدون الإله الذى يعبده، ويؤمنون برسالة الرسول الذى يؤمن به، ويقرءون القرآن الذى يقرؤه. فيحسّ بأنه قوىّ وبأن الإسلام عزيز. وأنه الدين الذى يعلو ولا يُعلَى عليه، فإذا ما رجع إلى بلاده ازداد اعتزازًا بدينه، ونقل لإخوانه ما شاهده من عزّة الإسلام وقوّة المسلمين، فيكون ذلك سدًّا عاليًا بينهم وبين أى نشاط تبشيرى يوجّه ضد الإسلام. فضلا عن تعرفه وهو فى الحج على مناسك الحج، وتعرفه على فرائض العبادات، واستماعه إلى الوعظ والإرشاد وإلى ما يتيسّر له من تفسير للقرآن الكريم، وشرح لأحاديث رسول الله، وهذا دور رائد ومتميّز وباق للسعودية إلى أن تقوم الساعة..

وفى عهد المغفور له الملك فيصل امتدّ النشاط الدينى للسعودية إلى الخارج واهتم اهتمامًا كبيرًا بنشر الإسلام فى أفريقية بصفة خاصّة، لما يدركه من نشاط تبشيرى مكثّف، وللوثنية الموجودة بها، والمسيحية تحاول أن تجذب هؤلاء الوثنيين إليها فضلاً عن محاولة إغرائها لبعض المسلمين المستضعفين؛ لهذا وضع تخطيطًا لإنشاء المساجد الكبيرة فى بعض العواصم الأفريقية، وإنشاء مجمعات إسلامية، وإرسال وفود من الدعاة إلى هذه الأقطار، وإعطاء منح دراسية للشباب المسلم ليتمموا تعليمهم فى الجامعة الإسلامية بالمدينة المنوّرة.. لقد شاهدت فى أوائل الستينيات وفودًا من السعودية قدمت من أجل إقامة مجمع إسلامى، وفعلاً أقامت معهدًا دينيًّا، طلّابه محدودون، ولم يؤثّر تأثيرًا كبيرًا فى النشاط الدينى هناك، لكنهم أعطوا منحًا لبعض الطلّاب للدراسة فى المدينة المنوّرة.

كما امتدّ النشاط السعودى إلى تنزانيا، عن طريق منح مساعدات لبعض المساجد، ومنح معونات للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية (الباكواتا) ولو أنها لم تصرف فى الأغراض المخصّصة لها وحدث مثل ذلك فى أوغندا وفى كينيا..

وتتخذ السعودية الآن طريقة طيبة فى نشر الدعوة الإسلامية فى هذه المناطق خاصّة، وفى أفريقية كلها بصفة عامة، وهى إيفاد علماء أزهريين تعاقدت معهم من القاهرة على أن يعملوا لديها برواتب تدفعها لهم، فإذا ما وصلوا إلى السعودية أوفدتهم إلى الدول

الأفريقية دعاةً إلى الإسلام، على نفقة السعودية، فهى بذلك تسهم بجهد مادّى كبير، ولكن القوى البشرية من علماء الأزهر، كما توفد بعض الدارسين فى معاهدها من الهنود المسلمين، وتخرجوا فى المعاهد العلمية هناك توفدهم إلى هذه المناطق للدعوة إلى الإسلام، وتدفع لهم رواتب مجزية، ومساكن طيبة على نفقة السعودية، وسيارات خاصّة تسهم الدولة فى شرائها لهم ليسهل انتقالهم لأداء أعمالهم، كما ترسل الكتب الدينية إلى المدارس الإسلامية والمساجد، لتسهم فى نشر اللغة العربية..

تقييم هذه الجهود:

إنها جهود مشكورة بلا شك، ولكن لى ملاحظات عليها أرجو أن يدرسها المسئولون عن الدعوة فى السعودية من هذه الملاحظات:

(أ) يحاول المبعوث السعودى من أوّل يوم يصل فيه للعمل نشر الفكر الوهابى، ويجعل كلَّ اهتمامه فى الدعوة إلى إعفاء اللحية، وفى الهجوم على الأولياء والأضرحة، وفى محاربة الاحتفالات الدينية التى ألفها المسلمون هناك مثل احتفالات المولد النبوى الشريف - والهجرة النبوية - وليلة القدر.

وبهذا يشغلون المسلمين بهذه المسائل التى لا تعتبر أساسًا من أساسيات الدين - وتترك تعليم المسلمين كيف يعبدون ربهم -

وتترك الاتصال بالقبائل ونشر كلمة: «لا إله إلاّ الله محمد رسول الله» بينهم «لقد شاهدت فى الصومال وفى تنزانيا اختلافات حادّة بين أبناء الدولة الواحدة، هؤلاء يقولون: لا تحتفل بمولد النبى، وأولئك يقولون: لابدّ من الاحتفالات، وخاصم الأخ أخاه، وتنازع أبناء الحى الواحد، ووصل الأمر إلى أنّ بعضهم يكفر الآخر، وقد حدث أخيرًا خلاف حادٌّ فى مدينة بكوبا على شاطئ بحيرة فيكتوريا بين المسلمين: بعضهم يقول: هى سنّة وينبغى المحافظة عليها، وأدّى هذا الخلاف إلى نزاع سياسي. مما حدا بالمسئولين فى الدولة أن يطلبوا من مصر الرأى الدينى الصحيح فى هذه المسألة حفاظًا على وحدة الصف..

إن منطقة شرق أفريقية كلها شافعيّون سنيّون متصوّفة، ويقفون جميعًا صفًّا واحدًا فى مواجهة تيارات الإلحاد والتبشير، وكلهم إخوة متعصّبون لدينهم، فهل من الحكمة فى توجيه الدعوة أن نبدأ بإثارة خلافات مذهبية مع وجود هذه المخاطر فى المنطقة، وهل هذا يتّفق مع قوله تعالى: ﴿ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن﴾.

(ب) المبعوث السعودى يتّخذ لنفسه أسلوب الانعزال عن زملائه العاملين معه فى حقل الدعوة الإسلامية، ولا يتّصل إلاّ بمن اتّفق فكره الدينى، الأمر الذى يظهر الدعاة أمام هؤلاء القوم بأنهم

مختلفون، ومتفرّقون، وكلٌّ يعمل من زاوية رسمها لنفسه. مع أنه إذا تعاون الدعاة من مختلف الجهات التى أوفدتهم، ومع تنوّع فكرهم الدينى، إذا تعاونوا فى أسلوب العمل كان لهم تأثير كبير فى الأخذ بيد المسلمين وتثقيفهم دينيًّا، وليتركوا الخلافات المذهبية فهى تثار مع المتخصّصين لا مع العامة؛ وليجتمع الجميع على الأصول الثابتة التى لا يختلف عليها أحد: توحيد الله «ورسالة الرسول» واليوم الآخر، وفرائض العبادات من صلاة وصيام وزكاة وحج، ومكارم الأخلاق والحرص على وحدة المسلمين والتصدّي لأفكار المنحرفين، وللتيارات الدخيلة التى تهبّ على المنطقة من الشيوعية الهدّامة، سواء أكانت تيارات سوفيتية أو صينية.. حين يتجمّع الدعاة على هذه الأصول سيكون نجاحهم فى العمل محقّقًا بمشيئة الله.

(جـ) يجب التنسيق بين هذه الأنشطة على مستوى قيادات الدعوة فى مصر والسعودية بحيث إذا أقامت مصر مسجدًا فى عاصمة دولة من الدول تقيم السعودية مسجدًا فى جهة أخرى، وإذا أنشأت مركزًا إسلاميًّا فى مدينة، لا تنشئ السعودية مركزًا إسلاميًّا فى نفس المدينة، بل توجّهه إلى جهة أخرى فى نفس الدولة، فمثلاً لمصر مركز إسلامى فى دار السلام عاصمة تنزانيا، وقد أقيم منذ عشر سنوات فلماذا تنشئ السعودية مركزًا إسلاميًّا فى نفس المدينة، لماذا لا تنشئه فى داخل الجمهورية وفى وسط القبائل، وتجعل منه قسمًا داخليًّا وعيادةً طبية ومعهدًا دينيا يضم الشباب التنزانى الذى يعيش فى

داخل الجمهورية بعيدًا عن جميع الثقافات إلّا ثقافة المبشّرين الذين استطاعوا أن يصلوا إليهم وأن يقيموا بينهم. إن وجود مركزين إسلاميّين لدولتين معناه التنافس والتصارع. مما يظهر الدعاة بمظهر يسيء إلى دعوة الإسلام التى تدعو إلى وحدة الكلمة، ووحدة الصفّ، تحقيقًا لقوله تعالى: ﴿واعتصموا بحبل الله جميعًا ولا تفرّقوا﴾.

وبهذا تكون الجهود المبذولة من السعودية - وهى جهود مشكورة - قد أدّت رسالتها كاملةً فى نشر الثقافة الإسلامية، بين قوم متعطّشين لمعرفة دينهم، وتعلّم لغة قرآنهم الكريم، ولا يجدون من يساعدهم إلّا الدول العربية الإسلامية التى أخذت على عاتقها مسئولية الدعوة إلى الله، حتى يتحقّق لها قوله تعالى: ﴿ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحًا، وقال إننى من المسلمين﴾..

الباب الرابع

خطوات المستقبل

أوّلاً: على مستوى الدول والجماعات الإسلامية

(أ) إن القيام بالدعوة الإسلامية فى أرجاء العالم يتطلّب أموالاً طائلة وأعدادًا بشرية كثيرة وأجهزة فنّية متنوّعة ومن الواجب أن تسهم فى هذه النفقات الدول العربية والإسلامية تخفيفًا للأعباء التى تقع على كاهل الأزهر والأوقاف من جهة، وتنبيهًا لجميع القادة والرؤساء والملوك والموسرين المسلمين إلى أن نشر الإسلام بين المسيحيين وتحويل الوثنيين إلى الإسلام وإنقاذهم من الشرك وتصحيح الأوضاع الإسلامية وعودة المسلمين إلى رحاب دينهم السمح.

كل ذلك أمر يهمّ جميع المسلمين ويجب أن يضطلع به كل المستطيعين ممّا استخلفهم الله عليه من مال، وأقترح أن ينشأ صندوق فى الجامعة العربية يسمى (صندوق دعم الدعوة الإسلامية فى الخارج) ويطلب من كلّ دولة إسلامية وعربية أن تسهم فيه بنسبة معيّنة من اشتراكها فى الجامعة العربية ويطلب من المسلمين

الموسرين أن يسهموا فيه بقدر من زكاة أموالهم من نصيب المؤلّفة قلوبهم وهو مصرف شرعى من مصارف الزكاة.

(ب) وتشكل لإدارة أموال هذا الصندوق موارده ومصارفه لجنة من المتخصّصين وخصوصًا المشتغلين بالدعوة الإسلامية على المستوى العربى والإسلامى، ومهمّتها تنسيق العمل للدعوة بين الجهات القائمة بها من شتّى الدول الإسلامية فى أفريقية والتنسيق فى الأنشطة القائمة الآن والتى تقوم بها مصر والسعودية والكويت إمّا باستقدام دارسين وإمّا بإيفاد مبعوثين.

ثانيًا: على مستوى جمهورية مصر العربية

تخطيط وتنسيق عملية تعلّم الأفريقيين بمصر حيث تستقدم أكثر من جهة طلّابًا يتعلّمون فى الأزهر، يستقدم الأزهر ويستقدم المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بدون تنسيق بينهما، ولهذا يقدم عدد كثير ويبذل لهم الكثير ولكن النتائج التى تجنى لا تتناسب مع هذه الأعداد الكثيرة والجهود الكثيرة المبذولة لهم ولهذا توصى الدراسة:

(أ) بإحسان اختيار الوافدين إلينا اختيارًا يقوم على الصلاحية للدراسة والكفاءة بعيدًا عن أى اعتبارات أخرى ولو كانت اعتبارات سياسية.

(ب) تيسير تعليم الطلّاب الأفارقة فى بلادهم فى المراحل الإبتدائية والإعداية والثانوية ثم استقدام من يحصل على الشهادة الثانوية ليلتحق بجامعة الأزهر مباشرة.. ومتابعة دراسته ليحصل على أعلى الدرجات العلمية من الشهادة العالية والماجستير والعالمية (الدكتوراه) فهؤلاء سيعودون إلى بلادهم بأرقى الشهادات ويتولّون وظائف هامة. ويكونون خير دعاية للأزهر والإسلام ويتعصّبون للّغة العربية التى أجادوا دراستها طوال مراحل تعليمهم بالأزهر.. إن هذا

هو الطريق الأيسر للانتفاع بالشباب الأفريقى لا أن نستقدمهم لنعلّمهم فى المراحل الإعدادية والثانوية - فإن الزمن سيطول بهم ويكلّفون نفقات باهظة - وقد يختصرون الطريق ويعودون إلى بلادهم، أو تتخطّفهم السفارات الأجنبية وترسلهم إلى بلادها ليدرسوا بها سنةً أو سنتين ويعودوا إلى بلادهم بشهادات عليا يتولّون بها وظائف مناسبة.

(جـ) إنشاء سجلٍّ لخريجى الأزهر ومتابعة نشاطهم فى بلادهم ومداومة الاتصال بهم ليكونوا همزة وصل بين الأزهر وبلادهم.

(د) التخطيط لاستقبال الحجّاج المسافرين من أفريقية لأداء فريضة الحج عن طريق مصر فى ذهابهم وعودتهم. والعمل على زيارتهم الأزهر والمساجد الكبرى والآثار الإسلامية وإحسان استقبالهم واستضافتهم ليعودوا لسان صدق لمصر وللأزهر فيتعلق المسلمون هناك به ويسارع الأب إلى إيفاد ابنه لإكمال دراسته فيه.

(هـ) العناية بالإذاعة الموجّهة إلى البلاد الأفريقية والتأكيد على روابط الأخوّة الإسلامية بيننا وبينهم وبخاصّة وهم يتلهّفون على سماع صوت مصر من أجهزة الإذاعة عندهم.. وهذه الإذاعة الموجّهة تنقل أخبارهم وتعلق عليها، وتعرض لهم قيم الإسلام وحضارته بلغتهم الوطنية، وقد شاهدت بنفسى أثر هذه الإذاعة فى الصومال باللغة الصومالية وفى تنزانيا باللغة السواحيلية.

ثالثًا: على مستوى الأزهر

(أ) فى المؤتمر الإسلامى الذى يعقده مجمع البحوث الإسلامية مجال خصب لتأكيد أواصر الأخوّة الإسلامية وتهيئة مجالات الدعوة الإسلامية فى أفريقية وغيرها. وتوصى الدراسة بأن يخصّص جانب من بحوث المؤتمر فى كل دورة للتعريف بالعالم الإسلامى الأفريقى ودراسة أوضاع الدعوة والمسلمين هناك وأن يسهم فى هذه الدراسة أبناء أفريقية الذين يدعون فى كل مؤتمر.

(ب) أن يقوم المجمع بنشر وتشجيع الدراسات الإسلامية الأفريقية وبخاصّة المخطوطات التى يجب أن تنال اهتمامًا كبيرًا وصْلًا لما بدأته الإدارة العامة للثقافة الإسلامية بالأزهر عام ١٣٨١هـ مارس ١٩٦٢م بنشر كتاب (إحياء السنّة وإخماد البدعة) للشيخ (عثمان وان فودبو)، ولما اقترحه بعد ذلك بنشر كتاب (حصن الأفهام) وقد شاهدت بنفسى مخطوطات قيّمة فى الصومال حبّذا لو وجدت طريقها للتحقيق والنشر، وهى مخطوطات قديمة وباللغة العربية لعلماء صوماليين فى التفسير والحديث والفقه والتصوف.

(جـ) أن يقوم المجمع بدراسات عن العلماء الأفريقيين الذين

تربّوا فى رحاب الأزهر وكذلك دراسات عن الأروقة التى كانت فى رحابه ويأوى إليها الوافدون منها.

(د) أن يعنى باختيار العلماء المبعوثين إلى أفريقية عنايةً خاصّة من حيث الكفاءة والقدرة سواء أكانوا مدرّسين أم وعاظًا وسواء أكانوا لمدّة مؤقّتة كبعثات رمضان أو لمهمّة طويلة كالتدريس، وأن يرسم لهم برنامج عمل وأن يتابع عملهم بجدّية بحيث يكون نافذةً مفتوحةً على العالم الإسلامى الأفريقي ومسيرة الدعوة الإسلامية فيه، وبحيث يكون إنتاجهم فى هذا المجال رصيدًا فى مجمع البحوث الإسلامية من دراسات علمية وميدانية يستطيع المجمع على ضوئها أن يتابع نشاط مبعوثيه فى الخارج.

وتكون كذلك رصيدًا علميًّا للهيئات العلمية فى هذا الحقل فضلًا عن أنها ستكون مادّةً علمية لعمل لجان المجمع المخصّصة للتعريف بالعالم الإسلامى والحضارة الإسلامية وعمل الموسوعات ودوائر المعارف الإسلامية وغيرها من اللجان.

(هـ) التدقيق فى اختيار المبعوث بحيث يجيد لغةً أجنبية بقدر المستطاع، ولكن يجب أن يعرف اللغة الوطنية للجهة التى سيعمل فيها وأن يكون شافعى المذهب للعمل بمنطقة شرق أفريقيا متصوّفًا أو محبًّا للتصوّف وأن يكون له من سنه والتزامه بالزىّ الأزهرى ما يضفى عليه سمات الاحترام فلا يذهب شاب متخرّج حديثًا لا يعتنى بملبسه الأزهري ويستحسن أن يكون لون بشرته مائلًا نحو

السمرة ولأن هذا يقرّبه من قلوبهم؛ فلونه قريب من ألوانهم. وأن يكون اجتماعيًّا بطبعه يألف الناس ويألفونه ويحبّ تكوين الصداقات.

(و) الاهتمام بثقافة المبعوث فليس كل مبعوث من الأزهر بقادر على العمل فى مجال الدعوة الإسلامية وبخاصّة فى أفريقية حيث النشاط التبشيرى المكثّف والمذاهب الهدّامة والأفكار المستوردة التى تحاول التشكيك فى الإسلام؛ لذا يجب أن يكون المبعوث واسع الثقافة عميق الفكر مطّلعًا على النتاج الحديث فى الدراسات الإسلامية الذى يقدّم له خير عوْن وهو يدعو إلى الإسلام وفى مقدّمة ذلك دراسة الحضارة الإسلامية بمختلف اتجاهاتها وأنواعها.

والمبشّر المسيحى يعرف الكثير عن الإسلام. ويهاجم الإسلام من خلال هذا التعرّف المنحرف؛ ولذلك ينبغى للدارس المسلم أن يدرس مقارنة الأديان ليعرف الأديان السابقة ومكانة الإسلام منها؛ فلقد مضى العهد الذى كان الإسلام فيه يدرس دراسة مستقلّة، واتجه الفكر الآن إلى تصحيح ذلك فأصبح الإسلام يدرّس كحلقة ختامية فى سلسلة الأديان وهذا يستلزم أن يعرف المبعوث الأديان السابقة ويدرس كل شىء عنها، ثم يعرف الدور المهم الذى جاء به الإسلام ليكمل صلة السماء بالأرض، وليقدم للبشرية خاتمة الرسالات.

(ز) ويتحتّم على الأزهر أن يبذل أقصى الجهد لنشر اللغة

العربية فى أفريقيا فاللغة العربية هى الوعاء الذى جاء به كلام الله وأحاديث الرسول، والتعرّف عليها سيفيد كثيرًا فى مزيد من فهم الإسلام، ثم إن اللغة العربية هى أوسع اللغات الأفريقية انتشارًا وأكثرها حضارة، وإذا لم تكن اللغة العربية هى اللغة الأولى فى الأقطار التى يكون المسلمون بها غالبية مثل الصومال فلتكن الثانية بعد اللغة الوطنية، ولكن يتحتّم أن تسبق اللغات الأوربية ولكن الاهتمام باللغة العربية يجب ألّا ينسينا أن نحاول تقديم الإسلام للناس بلغاتهم، ومما يذكر فى مجال تقديم الدين إلى الناس بلغاتهم نذكر أن الكنيسة وضعت أجزاء من الإنجيل فى حوالى ٥٠٠ لغة أو لهجة أفريقية لتيسّر على الناس قراءة الإنجيل، ولست أقصد بذلك أن نكتب لهم أجزاء من القرآن الكريم بلغاتهم الوطنية، وإنما أقصد أن نقدم لهم تفسيره، وأن نقدّم لهم الفكر الإسلامى بهذه اللغات وتلك اللهجات وأن تكون آيات القرآن الكريم باللغة العربية منارات بين هذه الدراسة.

رابعًا: على مستوى وزارة الأوقاف

فى ريع بعض الموقوفات أموال تخصّص للدعوة الإسلامية وتوصى الدراسة بتوجيه جزء من فائض الريع للدعوة الإسلامية فى الخارج عن طريق:

(أ) إنشاء المساجد فى عواصم دول أفريقيا الشرقية وتؤثّث وتزوّد بمكتبة إسلامية ويختار لها الإمام من الأوقاف وتعيّن الوزارة المؤذّنين والخدم من أبناء البلاد.

(ب) إنشاء مراكز إسلامية فى العواصم وفى المدن الكبرى على غرار المركز الإسلامى فى دار السلام عاصمة تنزانيا ويكون المركز متعدّد الخدمات وتوفد الوزارة مبعوثين إليه من بين العاملين بالأوقاف بدلاً من أن تختار الأوقاف علماء ويختار الأزهر علماء والجميع يؤدّون عملاً واحدًا ويتبعون جهتين مختلفتين كما هو حاصل الآن فى المركز الإسلامى بدار السلام.

(جـ) تنظيم إحياء شهر رمضان فى الدول الأفريقية بابتعاث قرّاء مجيدين وعلماء يشرحون للناس الآيات التى تتلى عليهم ويتمّ اختيار هؤلاء المبعوثين بمعايير دقيقة حتى يكونوا خير دعاة للإسلام ولمصر فى هذه البلاد.

خامسًا: على مستوى جامعة الأزهر

العمل جديًّا للعناية بالدراسات الأفريقية وذلك بتخصيص برامج كاملة لها فى الدراسة تمهيدًا لإنشاء كلّية أو معهد متخصّص لهذه الدراسات وتوضع له البرامج ونظم الدراسة التى تكفل لنا تخريج متخصّصين فيها دعاةً ومدّرسين، وتوصى الدراسة بإنشاء المعاهد الأفريقية الإسلامية وقد سبق أن رصد لمشروع المعاهد الأفريقية الإسلامية أكثر من ثلاثمائة ألف من الجنيهات - فى عهد الدكتور محمد البهى وزير الأوقاف والأزهر الأسبق وذلك من ريع الأوقاف الخيرية - وهى أوقاف كانت مرصودة على التعليم فى مدارس وزارة الأوقاف قبل تحويلها إلى وزارة التربية والتعليم، ووضع المشروع على أن تكون له أولويّات فى البلاد الأفريقية، فلا تقحم جمهورية مصر العربية نفسها بإبداء الرغبة فى إنشاء معهد هنا أو هناك فى بلد أفريقى إسلامى وإنما تعطى الأولوية للبلد الذى يطلب ذلك من الجمهورية ويعطى تسهيلات يتّفق عليها لإقامة المعهد أو جملة من المعاهد على أرضه، وكان المشروع عبارة عن مدرسة ذات مرحلتين: إعدادية وثانوية وعلى غرار مرحلتى الأزهر وبجانب البرامج التعليمية للوطنيين هناك يعدّ مركز صغير للبحوث

العلمية وعلى الأخصّ فى ميدان الزراعة والثروة الحيوانية وطبّ المناطق الحارة، واللغة واللهجات والوثائق العلمية والتاريخية والدراسات النفسية والاجتماعية وصلتها بالجوّ والبيئة مما يعود على الكشف العلمى فى ذاته بفائدة، كما يثمر فى مراجعة وإعادة تقييم ما كتبه المستعمرون عن هذه البلاد. ومن حصيلة هذه المراكز المتفرّقة تتكوّن الدراسات الأفريقية وتتكون مكتبة للتوجيه السياسى والاقتصادى والثقافى والعلمى والاجتماعى للشعوب الأفريقية فى صلة بعضها ببعض..

وقد سبق أن طلبت زنجبار قبل الانقلاب اليسارى الأخير وانضمامها إلى تنجانيقا تحت اسم تنزانيا ووقوعها تحت حكم (جوليوس نيريرى) عن طريق وفد رسمى حكومى برياسة وزير الداخلية طلبت من وزارة الأوقاف إنشاء معهد من هذه المعاهد على أن تقام معه محطة إذاعة إسلامية لشرق أفريقيا هناك وقد استجابت الوزارة آنذاك ووافقت على سفر مدير الأقسام الهندسية لعمل التمهيد اللازم عن طريق الدراسة الميدانية للواقع والإمكانات وسافر بالفعل وعاد قبل مارس سنة ١٩٦٤ وقامت الثورة فى زنجبار فلم ير المشروع النور. وتوصى الدراسات بمعاودة الاتصال بالسلطات الحاكمة فى زنجبار وحاكمها هو نائب رئيس الجمهورية وهو رجل مسلم متديّن اسمه (حبود جومبى).

سادسًا: على مستوى كليّات الدعوة بالأزهر وقسم الدعوة بكلية أصول الدين

توصى الدراسة بما يأتى:

(ا) توجيه مزيد من العناية بالدراسات الإسلامية الأفريقية من شتى جوانبها واعتبارها مادّةً أساسية بعد تخطيط البرامج وخطة الدراسة فيها لتخرج الداعية الناضج الذى يمكن الإفادة منه فى هذا الحقل.

(ب) توجيه الدارسين فى هذه الكليات لعمل رسائل علمية فى هذا الميدان على مختلف المستويات الدراسية.

(جـ) يدعم قسم الدراسات الأفريقية بدراسة اللغات الأفريقية على نمط جدّى ومنتج.

(د) توفير المكتبة المتخصّصة فى الدراسات الأفريقية بشتى اللغات وتيسيرها بالحصول عليها وتصوير مخطوطاتها للدارسين.

سابعًا: على مستوى أجهزة الدعوة كلها

توصى الدراسة بما يأتى:

(أ) العمل الجدّى لتنسيق أنشطة أجهزة الدعوة المختلفة من جهاز المساجد بالأوقاف وجهاز الوعظ بالأزهر وإدارة البعوث ومجمع البحوث الإسلامية والمجلس الأعلى للشئون الإسلامية وكليات الدعوة بالأزهر والجمعيات الدينية والطرق الصوفية ووضع خطة مدروسة تنفذ على المدى القريب والمدى البعيد مع وضوح الهدف فيها والتزام كل جهاز من هذه الأجهزة بتنفيذ ما يكلّف به من أعمال فى المجال الأفريقى الذى يستقطبه الآن النشاط العالمى للمذاهب المختلفة، فالنشاط الإسلامى فى هذا المجال يمثّل مستقبلاً طيبًا للإسلام هناك.

(ب) تلتزم أجهزة الإعلام من إذاعة وصحافة وتليفزيون بالتعريف بأنشطة الدعوة الإسلامية فى هذه المنطقة وتعريف المسلمين بطبيعة العمل فيها والتحدّيات التى تواجه الإسلام من تيارات دخيلة وافدة إليها، وأن تقوم أجهزة الإعلام هذه بالتصدّى لحملات الإلحاد

والاستعمار والتبشير والصهيونية ولكنها تلتقي على معاداة الإسلام ومناوأة الدعوة الإسلامية ومطاردتها من أفريقية.

(جـ) عدم إرسال مجلّات ذات فكر منحرف أو تنطوى على قصص لا تتواءم مع قِيَمنا وأخلاقنا أو تحتوى على صور خليعة تتنافى مع ما ندعو إليه هناك من التمسّك بالفضائل والبعد عن الرذائل، كذلك عدم إرسال أفلام سينمائية من أفلامنا الهابطة التى تصوّر البيت المصرى بصورة البيت الذى يعيش فى اللهو والمجون وشرب الخمر والخيانة الزوجية وما إلى ذلك من الأفلام التى تعرض للكسب المادى فقط بغض النظر عن تفاهة موضوعها، مثل هذه الأفلام لا ينبغى أن تعرض فى بلاد ينظرون منها إلى مصر على أنها قلعة الإسلام فى العالم كله ومجتمعها مجتمع مثالى فى التمسّك بالفضيلة والتخلّق بمكارم الأخلاق.

ثامنًا: مقترحات عامة

(ا) توصى الرسالة بأن يعقد سنويًّا لقاء فى القاهرة بين جميع المبعوثين إلى أفريقية من علماء ومدرّسين وأطباء ومهندسين ومن يعمل فى أى مجال هناك من المصريين للتعارف ولتدارس المشاكل التى تواجههم وتقديم الحلول لها، وتنظم هذه اللقاءات وزارة الخارجية ويدعى إلى هذه اللقاءات كل من سبق له العمل فى هذه المناطق للانتفاع بآرائه من واقع عمله الذى كان يزاوله هناك..

وبذلك يستفاد بخبرات السابقين كلّ فى مجال عمله.

(ب) أرى أنّ من ينجح من الدعاة فى العمل هناك ويكون له نشاط بارز وله صلات طيبة بأبناء البلد لا تتقيّد مدّة بعثته بزمن فكلما تقادم عهده بالعمل هناك كلما ازدادت خبرته واتّسع نشاطه وكثر أصدقاؤه وأتقن اللغة الوطنية للبلد التى يعمل بها، أمّا من لم ينجح فى عمله بأن تقوقع حول نفسه أو أثار مشاكل وخلافات مع أهل البلد أو مع زملائه المبعوثين أعيد فورًا إلى القاهرة ولو كان ذلك بعد شهر من ابتعاثه.

وقد شاهدنا المبشّرين يقيمون هناك بصفة دائمة تقريبًا لأنهم

يعتبرون التبشير رسالة دينية تخدم دينهم وأهدافهم من نشر المسيحية والتبشير بها وليسوا مجرّد موظفين يتقاضون رواتب ويعدّون أيام المدّة التى يقضونها هناك ثم يعودون إلى أوطانهم، إنهم خرجوا من بلادهم مكافحين من أجل دينهم وخرجوا للإقامة الدائمة، ولذا تراهم يحفظون كلّ شبر من أرض الدولة التى يعملون بها ويجيدون لغتها الوطنية ويكونون أصدقاء كثيرين...

(جـ) متابعة نشاط بعثاتنا الدينية عن طريق جهاز للتفتيش يسافر إلى الدول التى بها مبعوثون ويتعرّف على نشاطهم ثم يضع التقييم لهم.

وأخيرًا

أحب أن أنبّه بصوت عال إلى أنّ الاستعمار فى أفريقية له ضراوته، وهو يقاوم الإسلام بمختلف الوسائل، وهو إن كان قد أعطى استقلالاً لكثير من دولها، فهو لا يزال يمسك بزمام التوجيه والتثقيف فيها، وعندما رأى أنه سيرحل وضع خطًّا يسير عليه ولا ينحرف عنه قوامه العناوين التالية:

(ا) الذهاب من أجل البقاء - أى أن يذهب جيشه ويبقى نفوذه.

(ب) الاختفاء من أجل الظهور - أى أن يختفى ممثّلوه البيض ليظهر ممثّلوه السود.

(جـ) الخروج من الباب والدخول من النافذة - أى خروج الجيش ثم دخول ممثّلين له خبراء ومستشارين.

إن الاستعمار يقف بالمرصاد من الإسلام ويعمل بكل جهوده للنيْل منه ويثير الفتن فى الداخل بين المسلمين وغير المسلمين ليتخذ من غير المسلمين وسيلته للتدخل وليضعف من قوى المسلمين،

ويحدثنا الواقع الذى شاهدناه بأعيننا ما حدث للمسلمين فى جزيرة زنجبار من تقتيل لهم وتشريد وإلقاء فى السجون، وما حدث للمسلمين فى الفلبين ولم يحرك أحد ساكنًا، كما يحدّثنا عن الصراخ المدوّى والزمجرة العاتية عندما يحصل أى عدوان على غير مسلم فى أى بلد من بلدان العالم. حينئذ نرى ونسمع كلامًا عن الإنسانية وعن حرية الأديان وعن الضمير البشرى.. وما أصدق قول القائل فى تصوير هذا الواقع.

قتل امرئ فى غابة   جريمة لا تغتفر
وقتل شعب بأسره   مسألة فيها نظر

فليتنبّه المسلمون - وليوحّدوا صفوفهم للدفاع عن الإسلام وعن المسلمين فى أى مكان فى العالم، وليدفعوا بإصرار أىَّ عدوان على المسلمين فى أى مكان.

وصدق الرسول العظيم وهو يقول:

«من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم».

رقم الإيداع		١٩٨٥ / ٣٩٤٩
الترقيم الدولى	٩٧٧-٠٢-١٣٦٦-٧	ISBN

١ / ٨٤ / ١١٧

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

